سلسلة المؤتمرات

مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي

مركز دراسات المخطوطات الإسلامية

علوم الأرض في المخطوطات الإسلامية



تحرير

إبراهيم شبّوح

(Al-Furqān Cataloguing in Publication Data): (بيانات الفرقان للفهرسة أثناء النشر:

المؤتمر الخامس لمؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي (١٩٩٩ ± لندن)
علوم الأرض في المخطوطات الإسلامية: أعمال المؤتمر الخامس لمؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي من ٢٤- ٢٥ نوفمبر ١٩٩٩ . شعبان١٤٢٠ هـ / تحرير إبراهيم شبوح ؛. لندن : مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ٢٠٠٥م/ ١٤٢٦ هـ .
٣٩٤ ص، أشكال وصور؛ ٢٤سم. . (منشورات الفرقان؛ ٩٤ . سلسلة مؤتمرات الفرقان؛ رقم ٥).
المحتويات: تقديم الشيخ أحمد زكي يماني - العلوم الرياضية المتعلقة بكوكب الأرض- نظرات في تحقيق النصوص الجغرافية العربية - أنظار في بعض مشكلات النص الجغرافي التراثي - تاريخ الأدبيات الجغرافية في العهد العثماني - م.ج. دي خويه وتحقيق النصوص الجغرافية العربية - النصوص الجغرافية غير المنشورة: حصر وتقييم - تجربة صغيرة في نص جغرافي - مخطوطات الخيمياء: نموذج المدونة الجابرية - جواهر نامه نظامي - مقالة ابن رشد حول الطعوم؛ أهي جزء من كتابه المفقود«كتاب النبات»؟ قراءة المصطلح النباتي العربي وتحقيقه.
١- المخطوطات الإسلامية. أ . مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي- لندن . ب. شبوح، إبراهيم، محرر . جـ. العنوان. د. السلسلة.

Contents: 1. Manuscripts, Islamic-. I. Al-Furqān Islamic Heritage Foundation - London. II. Chabbouḥ, Ibrāhīm (ed). III. Title .V. Series.
ISBN 1 873992 94 7

Published by Al- Furqān Islamic Heritage Foundation.
Eagle House High Street Wimbledon London SW19 5EF, London, UK
Printed by Almadani press Cairo EGYPT

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الشيخ أحمد زكي يماني

يكشف النظرُ في خصائص النّصوص التراثيّة لمختلف العلوم الإسلاميّة، عن خصوصيّات ودقائق يتميّز بها كل علم عن غيره. وكلما كانت هذه العلوم تتصل بالمجموعة المصطلح عليها بالتعاليم، أو العلوم التجريبيّة، كانت صعوبات النصّ أكثر تعقيداً، تبدأ بالمصطلح الغامض، وتنتهي بانغلاق ذلك العلم من حيث هو علم يحتاج إلى مَداخل متمكنة، وإلى تخصص، حتّى يستطيع المحقّق الحاذق أن يقتحم ذلك المجال بثبات وعُدّة عمل ناجعة.

ولقد كان موضوع العلوم أحد المحاور الأربعة التي ارتكزت عليها سياسة عمل مؤسسة الفرقان منذ قيامها، وقد أولت هذا الفرع أيّما عناية، لإخراج نصوصه النادرة محقّقة أدقّ تحقيق، ومعروضة بصيغة تجعل منها إضافة حقيقيّة للمعرفة الإنسانيّة، ومجلىً

معبّراً عن عبقريّة الأمّة الإسلاميّة في إبداعاتها الرّائعة وفي تأصيل قواعد العلم وفتح مغالقه.

وقد تعرّفت المؤسسة في مؤتمرها الرّابع على وجوه من التراث العلمي كانت محجوبة تقع في مواقع الظلّ، لقلّة الروّاد المقتحمين لصعابها؛ ونظراً لما حقّقه ذلك المؤتمر بفضل الإطلالة الكبيرة التي قام بها السّادة الباحثون، رأينا ضرورة أن يتواصل البحث في مجالات أخرى من مجالات التراث العلمي، فكان هذا المؤتمر الخامس الّذي اتجه لعلوم الأرض في المخطوطات الإسلاميّة وحقّق أهدافه بفضل التجارب التي تضمنتها الدّراسات المشاركة وعبّرت عنها.

ولقد وضع التخطيط الجيّد لإعداد هذا المؤتمر في تصوّراته المقاربة لفروع العلوم التي لم يتناولها المؤتمر الرّابع، فحدّدَ أولاً أن ينفذ إلى التّراث الجغرافيّ الضابط لصورة الأرض، وأن يبرز جهد العلماء المسلمين في مجالاته التي أنصفها الاستشراق وأولاها كلّ الاعتبار، ونشر نوادره التي قامت شواهد ناطقة على طاقات الاستكشاف والتحليل وصفة الأرض وما عليها.

ثمّ اتجه التخطيط لإبراز موضوع علم النبات الّذي تطوّر على يد العلماء المسلمين، بعد أن استوعبوا التّراث اليوناني، فكتبوا عنه

باعتباره مبحثاً لغويّاً، أو مبحثاً فلاحيّاً، أو مبحثاً طبيّاً، ثمّ استقلّ عندهم مبحثاً علميّاً قائماً بذاته لذاته، يتجه إلى وصف النبات وصفاً علميّاً صرفاً دون اهتمام بالمنافع أو الفوائد الزراعيّة.

ومع أنّ موضوع الكيمياء الإسلاميّة لم يسجّل تقدماً في دراستها منذ أكثر من نصف قرن، إلاّ أنّ التخطيط للمؤتمر ارتأى إثارة الهمم من جديد لتتجه إلى فكّ مغاليق هذا العلم الغامض، الّذي استعملت الرّموز في كتابته لكيلا يكون علماً مكشوفاً مباحاً لكلّ الناس.

وآخر المجالات التي دعا المؤتمر لتناولها هو مجال "الأحجار" الذي سجّل التراث الإسلامي المخطوط قائمة كبيرة من الأعمال المهمّة التي أنجزت فيه، سواء ما يتّصل ببحوث الآثار العلويّة التي تفسّر ظواهر الكون ونشأة بعض المعادن، أو ما اقتضته ظروف الحياة المدنية ورفاهية الحضارة من اتخاذ الأحجار وصقلها ومعرفة خواصها ومنافعها وألوانها وصلادتها ونظام تبلورها وأسواقها وأسعارها.

ونأمل أن يكون محتوى هذا السّجل الجامع لأعمال المؤتمر، إضافة جادّة لتاريخ العلوم الإسلاميّة، وتعبيراً عن الرؤية التي ترتأيها مؤسسة الفرقان، من إضاءة مسالك البحث والتنقيب عن النّصوص

النادرة الأساسيّة المعبّرة عن العلم عند المسلمين وكيف كان مرتكزاً ثابتاً لنقل المعرفة مباشرة في صياغة معارف العصر الحديث.

العلوم الرياضيّة المتعلّقة بكوكب الأرض*

رشدي راشد

ليس من النّادر أن يرتّب مؤلفو فهارس المخطوطات العربية تصانيفهم وفهارسهم حسب نسق يستوحونه من نظام التعليم التقليدي المتأخر، أي أنّهم بعبارة أوضح يرتبون تصانيفهم وفهارسهم حسب نسق مدرسي مقرر. فبعد علوم القرآن يأتي الحديث النبوي وعلومه ورجاله ثم علوم اللسان وهكذا وصولاً إلى العلوم الرياضية فالفلكية إلى آخر ما رتبته المحاولات المختلفة لتصنيف العلوم.

وحسب هذا النسق بالذات تتابعت مختلف فصول كتاب «ك. بروكلمان» C. Brockelmann تاريخ الآداب العربية Geschichte der Arabischen Litteratur وعلى نفس ذاك النسق جرى خلفاؤه من بعده، غير أنّ نظام العرض هذا ليس نفس النظام المتّبع عند مؤلفي الفهارس وطبقات العلماء الأوائل، من مثل «ابن النديم» و «القِفْطيّ» و«ابن أبي أُصَيْبعَة» بل هو نظام أشبه بالنظام الذي أقامه الموسوعيّون المتأخرون من أمثال «ابن خلدون» و«ابن الأكْفَانيّ» وإن لم يماثله تمام المماثلة. فالموسوعيون المتأخرون

---

* ترجمةُ من الفرنسيّة السيّد بن محمد العِلاّني (القيروان).

يَفْصِلُونَ في واقع الأمر بين مواد العلوم المختلفة ويُفَصّلون الحديث فيها ، في حين أنّ مؤلفي الفهارس المُحْدثين يضمّون بعضها إلى بعض.

ولقد استفاد هؤلاء المحدثون من الجهد الذي أنجزه المتأخرون لتقارب عهديهما. بيدَ أن ميلهم الشديد إلى ضم الفصول بعضها إلى بعضٍ انتهى بهم إلى إغفال موادّ علمية بأكملها ، وهذا يعنى أنّ نظام ترتيب الفصول، بتحوّله إلى مجرّد نظام عرض فحسب، حَجَبَ نظامَ ابتكار المواد العلميّة. وهذا العيب الكبير يتضافر معه عاملان إضافيان: أوّلهما : أن صانعي فهارس المخطوطات، وهم ليسوا مؤرّخي علوم، كانوا يميلون إلى التسوية بين المواد العلمية من ناحية والكتابات عنها من ناحية أخرى، وثانيهما : أنّ مؤرّخي العلوم، وَهُمْ نادرا ما كانوا واضعي فهارس للمخطوطات، لم يكونوا يُبَالون عادة بتاريخ المخطوطات. وإذا عدنا إلى القرن العاشر الميلادي وإلى ترتيب العلوم عند «الفارابيّ»، ذلك الترتيب الذي انتهجه خلفاؤه من بعده- و«ابن سِينَا» نفسُه واحد منهم- فإنّنا نجد مزيجًا معقّدا يحشرون فيه جملةً من المواد العلمية ، وهو مزيج يقع تحت عنوان واحد لكنّه ذو دَلاَلَةٍ، هو علم «الحيل» ويعني علم الطرق الإبداعية والميكانيكة Science des procédés ingénieux إنه خليط يَضُمُّ جملةً من الموادّ العلميّة يتعلّق كُلُّها بما سيُسمَّى

مستقبلاً «بالعلوم الممتزجة» بمعنى أنّ العلوم الرياضيّة تمتزج بها عناصرُ ماديّة.

إنّ التّصوّر الضّمْني الذي تقوم عليه هذه الموادّ العلميّة هو أن لا تنافر البتّة بين العلم والعمل، بين العلم والفنّ، بل على العكس من ذلك تماماً. وبناءً على هذا المفهوم فإنّه يمكن من جهة أولى إدخالُ قواعد الفنّ وبالأحرى أدواتِهِ في موضوع العلم ذاته؛ ومن جهة ثانية فإنّ العلم نفسه يمكن أن يُوَجَّهَ نحو أهداف خارجة عنه. وإذا كان العلم يهدف إلى العمل، فَيَتَعيَّنُ على العمل أن يتأسّس بدوره على العلم. وبناء على هذا المفهوم الجديد أيضا، فإنّ أيَّ معرفة يمكن أن تَكْتَسِبَ قُوَّةَ العلم دون أن تتطابق مع التّصوّر الأرسطوطاليسي أو التّصوّر الإقليدي.

إن هذه العلاقة الجديدة بين العلم والعمل، وبين العلم والفن، طمَست نظريّاً - على الأقّل- تلك الحدودَ التي كانت المدرسة الأرسطوطاليسية قد أقامتها بينهما، وهو طَمْسٌ يقصد منه منحُ تطبيقات العلوم وجوداً شرعيّاً أصيلا. وهكذا اندرج ضمن هذا المزيج من عُلُومِ (علم الحيل) فنُّ المقاييس، أي علمُ المساحة إضافة إلى علم العمارة وعلم المرايا المحرقة وحتّى علم الجبر، كما يطبّق في علمَيْ الهندسة والحساب. بَيْدَ أنّ نظام العرض المتَّبعَ عند صانعي فهارس المخطوطات المُحْدثين، يقسم هذا التركيب ويوزّع موادّه على مختلف الفصول، وبهذه الطريقة

تُدْمَجُ العناوين المخصّصة لفنّ المقاييس ضمن فصل الرياضيّات، فيغيب فنّ المقاييس من حيث هو مادَة علمية متميَزة. وكذلك هو الشأن بالنسبة إلى باقي الموادّ العلميّة التي يُكَوّنُ مَجْمُوعُها فروع علم الحيل. وهكذا نفقد جملة من العلوم المخصوصة رغم تميّزها عند أولئك الذين رصدوا نشأتها وتطوّرها، والحال أنّنا نجد أغلب الموادَ الرياضيّة التي تتخذ من الأرض موضوعاً لها ضمن هذا التركيب.

إنّ وصْفَ كوكب الأرض وتمثّله- وباختصار- التفكيرَ فيه، هو أساس كثير من الموّادّ العلميَة التي تَمَّ حَشْرُها في هذا التركيب، وهي موادٌّ كان لها - هي أيضاً- أثرٌ فعليٌّ في تاريخ الرياضيّات، كما أنها كانت، حتى القرن العاشر الميلادي، مترابطةً فيما بينها ترابطاً وثيقاً لكنه شَهِدَ تراجُعًا بعد ظهور «نيوتن» ... لقد كان كوكبنا الأرضيّ إلى ذلك العهد مركزَ عالَمٍ مُغْلَقٍ وَمتَدَرِّجٍ، تحتلّ فيه المنطقة الآهلة مركزَ المركَزِ، أمّا الوَحْدَةُ التي تكوَّنت بين هذه الموّاد العلمية وما ضُمَّ إليها من مواد أخرى، فإنّما ضَمنَهَا مَوْقِعُ الأرض المركزيُّ بالنسبة إلى هذا العالم المغلَق.

وإنه لمن المسلّم به أن علم الفلك منذ ابتكاره في العصور القديمة، إنما قام، أو في جزء منه على الأقل، مِنْ أجْلِ معرفة صُورَةِ كَوكْبَنا وأبْعَادهَ، أمّا الهندسة فلقد كانت في الأصل،

كما يشير اسمها، تعني علم قياس كَوْكَبِ الأرض «الأرض géo قياس métrie » وإذا كان المصريّون والبابليّون والإغريق منذ فجر التاريخ، قد اعتنوا بعلمِ الفلك وعلمِ الهندسة وعلمِ الجغرافيا، فإنّما كان ذلك لغاية التَّعَرّفِ على هذا الكوكب، أو مَثَّلَتْ هذه الغاية ـ على الأقل ـ أحدَ بوَاعِثِ هذه العناية. أمّا مع نشأة العالم الإسلامي، فقد غَدَتِ الصِّلاَتُ المتينةُ التي تَجْمَعُ مع الرياضياتِ عُلُومَ معرفةِ كوكبِ الأرض مَوْضُوعَ بحث عميق وخصب. ففي القرن الرابع الهجري(١٠م) شهدت النُّورَ موادّ رياضيّةٌ كثيرةٌ كان القصدُ منها البحثُ في كوكب الأرض، ولْنَذْكر من بين هذه الموادّ العلمية عِلْمَ المِسَاحَةِ، وعلمَ تسطيح الكرة، وعلمَ الآلات الظِلّيَّةِ، وعلمَ الاسطرلاب، وعلمَ الجغرافيا الرياضيّة، وعلم المِلاَحَة، الخ ذلك. غير أنّ البحث في المخطوطات بالنسبة إلى هذه العلوم جميعاً مازال هزيلاً بل حتّى الفهارس المتعلقة بهذه المخطوطات ما زالت تنتظر التحرير والنشر، أمّا النصوص المطبوعة فقليلة جدّا والمعلومات التاريخية ما زال يَسُوُدها غموضٌ كثير.

وسأكتفي في هذا العرض- المحدود الوقت- بدراسة بعض الأمثلة دراسة عاجلة أتّبع فيها ترتيبا بإمكانه أن يَقُودَ ساكناً من سكّان الأرض من المكان الموجود فيه، بَيْتِهِ أو

حَقْلِهِ، إلى العالم الذي يحيط به، وهذا يعني أنّني سأبدأ بعلم المقاييس.

إنّ الدراساتِ القديمةَ المتعلقةَ بعلم المقاييس غنّية جداً فابن النديم في كتابه الفهْرست يذكر أسماء عديدة أمثال الحسن ابن الصباح، وابن ناجية وابن برزه وغيرهم، ويمكن أن نضيف إليهم الخوارزميّ نفسه والكنديّ وأبا كامل والقبيصيّ ونضيف بعض المتأخرين عن هؤلاء مثل عبد القاهر البغداديّ والأسفزاريّ والكرجيّ وخلفاؤه وغيرِ هؤلاء كثير. فابن الأكْفَانيّ وهو مفهرس القرن الرابع عشر الميلادي يذكر في كتابه إرشادِ القاصدِ عناوينَ وأسماءَ أخرى غيرَ التي ذكرنا. ومن البديهي أن تكون قائمة الكتابات التي خصَّصَها رياضيُّو ضحى الإسلامِ لفن المقاييس طويلةٌ، وفي هذا دليل قويّ على أنهم سَعَوْا إلى تطوير مادّة علمية قائمة بذاتها وخاصة بهذا الفن، ونجحوا في ذلك. ومثلما أشرت سابقاً، فإنّ مؤلفي الفهارس المُحْدثين لم يَعْرِضُوا هذه المادّة العلمية تحت عنوان خاصّ بها، في حين أنّها موجودةٌ قائمةٌ بذاتها في كتابات موسوعيّين من أمثال ابن الأكْفَانيّ وطاش كبرى زادة. ومن جهة أخرى فإنّ تاريخ هذه المادّة العلميّة لم يكتب بعد وعناوينها المختلفة تنتظر الإحصاء، ومن المفروغ منه أنه لا مجال هنا للنهوض بهذه المهمّة، ولذلك فإنّنا نكتفي بالتوقُّفِ عند إحدَى المساهمات المتميزة التي أضاءت تاريخ هذه المادّة العلميّة. ونعني مساهمات ابن الهيثم

المُتَوَفَّى بَعْدَ سَنَةِ أربعين وألف ١٠٤٠م. فلقد ترك لنا حول هذا الموضوع أَثَرَيْن مخطوطين، الأوّلُ منهما دراسة علمية حقة بعنوان «في أصول المساحة»، وثانيهما كَنَّشٌ في علم قياس الأحجام وضع له عنوانا «في معرفة ارتفاع الأشكال القائمة وأعمدة الجبال وارتفاع الغيوم». ونشير أيضاً إلى أَثَرٍ ثَالِثٍ لَعَلّهُ يدور حول الموضوع نفسه يَذْكُرُه مفهرسو التراث القدامى وهو بعنوان «مسألةٍ في المساحة» وهو عمل لم يصل إلينا في حين وصلت إلينا أربعُ نسخٍ من الدراسة العلمية «في أصول المساحة» واحدة فحسب تامة وموجودة في «سانت بيترسبورغ» Saint Petersbourg وأمّا القصدُ الذي سعى إليه ابن الهيثم فهو مدّ القائمين على ممارسة المساحة بمُخْتَصَرٍ في فنّ المساحة أسَاسِيٍّ وَدَقِيقٍ في الوقت ذاته، وهو بحثٌ يؤسس فنّهم هذا على ركائزَ ثابتةٍ إضَافَةً إلى مَدّهِمَ برصيد من قواعد يُمْكِنُهُمْ تطبيقها. فبعد مقدّمة استعرض فيها مفاهيمَ فنِّ المساحة الأوليّة كمفهوم المساحة نَفْسِه ومفهومِ وَحْدَةِ القياس ومفهومِ المقادير القابلة للقياس، يُخَصِّصُ فَصْلاً أوّلَ لقياس الخطوط المستقيمة والدائريّة لا غير، وهما الخطّان الوحيدان اللّذان يحتاج إليهما القائمون بعملية القياس. وفي فصل ثان يعالج مسألة قياس المساحات كالمستطيل والمثلث ومتعدّد الأضلاع المحدّب والدائرة. أمّا الفصل الثالث فخصّصه لقياس (المجسّمات) كمتعدّد السطوح والإسطوانة والمخروط والكرّة، وفي الفصل الرابع عَرَضَ ابن الهيثم تجربةً تتمثّل في حساب ارتفاع

جسم مّا قائم على سطح الأرض، والارتفاع الذي يسعى إلى التعرّف عليه هو مسقط العمودِ النازلِ من أعلى نقطةٍ في هذا الجسمِ إلى مستوى قاعدته، وهذه الطريقة التي يَعْرِضُها ابن الهيثم تَصْلُحُ عِندما يَتَعَذّرُ على المهندس الوصول إلى إحدى نُقْطَتَيْ العمودِ المُقاس، إمّا القاعدة أو القمة أوعندما يتعذّر الوصول إليهما جَميعا مثل قمة جبل قائم على ضفةِ نهر مقابلةٍ.

ولقد كان الكنديّ وسنان ابن الفتح قد درسا في كِتَابَاتِهِما التي يعالجان فيها المساحات المَنَاظِرية نفسَ المسألة المتعلقة بقياس الأجسام التي يعالجها ابن الهيثم في مختصره هذا، ثمّ يختم كتابه بما كان يسمى برصيد المسّاح حيث يَذْكرُ من جديد كلَّ طرق القياس وكلَّ النتائج لكن دون براهينَ، ولعلّه كان يريد أن يُقَدّم إلى المسّاح دليلاً أو مذكّرةً تسمح له بالعثور، دَونَ عَنَاءٍ، على القاعدة التي يَحْتَاج إليها. وإنه لمن المناسب أن نُذَكّرَ بمنهج ابن الهيثم الأصيل والعميق في ذات الحين دون التَوقّفِ عند براهينه أو عند دقائقه التّقْنيّة. إنّه يَرُدُّ قياسَ الخطوط المنحنية إلى قياس المستقيمات، كما يَرُدّ قياس المساحات المحدَّبَةِ إلى قياس المستويات المُسَطّحة، ليختزل جميع تلك القياسات عند التحليل الأخير في قياسات خطيّة ترجع هي نفسها إلى وحدات قياس اختيرت بطريق الاتفاق، وتُمَثّلُهَا أيضًا أعدادٌ منطقة أو صنم. لقد أدخل ابن الهيثم في العلاقات بين

الأطوال مفهوماً عدديًا، وقد ظلَّ في جميع آثاره وَفِيًّا لمنهج مُنَظَّمٍ يقوم على أنّ الخواص والبراهينَ في علم قياس الأحجام تُسْتَنْسَخُ مَا أَمْكَنَهَا النَّسْخُ خَصَائِصَ الهَنْدَسَةِ المُسْتَوِيَةِ وَبَرَاهِينَهَا المُمَاثِلَةِ، فابن الهيثم يُفَكِّكُ المضلّعات إلى مثلّثات وبنفس الطريقة يُفَكِّكُ متعدّد السطوح إلى أهرامات ولقد فعل ذلك سواء في رسالته المتعلّقة بعلم المقاييس أو في رسالته المتعلّقة بالأشكال المتساوية الإحاطة.

إنّ هذه الدراسة التأسيسيّة التي قام بها ابن الهيثم هي غاية ما حققّته تقاليدُ البحث الذي شُرِعَ فيه منذ مائة وخمسين سنة قبل ابن الهيثم، إنّها تُمَثّل حدثاً تاريخيّاً في الوقت نفسه. لسنا هنا أمام عمل واحد من مُنَظّري الهندسة، بل واحد من أكبر المُنَظّرينِ الذّين يتوجّهون إلى المسّاح؛ وابن الهيثم ليس أوّل من سلك هذه السبيل، ما في ذلك شكّ، فسنرى فيما يلي أن ابن سنان قد سبقه في هذا المجال، ولم يتردّد في تأليف رسالة في هذه الصناعة. غير أنه، حسب عِلْمِي، مَا مِنْ عَالِمٍ كبير في الهندسة منذ العصر الهلّيني قَد ألّف مثل هَذَا النوعِ من التأليف. فالتجديدُ في هذا المنهج المزدوج، المتّجه إلى غَايَتَين مترابطتين ترابطا مكينا، تجديدٌ كليٌّ. وابن الهيثم الرياضي يسلك هذا المنهج قصد تحقيق غايتين، أولاهما: أن يؤسس فنّاً هُوَ فنُّ مساحة الأرض تأسيساً هندسيّاً. وثانيتهما: مَدُّ المسّاحين بجملة القواعد

التي عليهم أن يُطبّقوها. وهكذا ينشأ علم جديد وتنشأ معه أدبيّاته، ولن يتسنّى لنا فهمُ هذا العلم أو تلك الأدبيات إنْ نَحْنُ لَمْ نَبْذُلْ جهدا في تَمْييز المخطوطات الخاصّة بهما.

إنّ فنّ مساحة الأرض يسمح للإنسان بَتمثّل مَكَانِهِ والتعرّف عليه، وإن هُوَ رَفَضَ أن يبقي أسيرًا لهذا المكان وقرّر، من أجل بعض مصالحه الفردية أو الجماعية، أن يَطُوفَ في أقطار بعيدةٍ أو حتىّ في العالم كلّه، فيتعيّنُ عليه عندئذ أن يتعرّف على موقعه من حيث المكانُ والزمانُ على حدّ سواء. ثمّ أليس عليه كذلك أن يستنبط موادَّ علميةً أخرى تمكّنه من تَمَثّل مواقع مختلفِ الأماكن تمثّلاً هندسيّاً كما تمكّنه من تمثّل الزمن الخاص بِكُلّ منها؟ ثم عليه أيضا أن يرسم خرائط عديدةً منها خرائطُ خاصّةً بالسماء وأخرى بالأرض وأخرى بالبحار. والحال أنّ الهندسة الإقليدية والأرخميدية لا تكفيان لتحقيق هذه الغاية تحقيقا جيِّدًا، ومن المؤكّدِ أنّ الشعور بهذه الحاجة قد ظهر منذ وقت مبكرّ جدّا، بَيْدَ أنّه كان علينا أن ننتظر قيامَ العالِم الإسلامي حتى تصبح هذه الحاجة مُلِحّةً شَديدَةَ الإلحاح، ومرّة أخرى يمكن أن نردّ أسباب هذا الإلحاح الشديد إلى إتّساع رقعة العالم الاسلامي ووحدته من ناحية، وإلى الممارسات الجديدة التي فَرَضَت حلولاً رياضيّةً جديدة من ناحية أخرى. والحقيقة أنّ أحد العلوم الرياضية الضروريّة لتحقيق مثل هذه الغاياتِ هو عِلْمُ تَسْطِيح

الكُرَة، وهو علم يلزم لصناعة الاسطرلاب كلزومه لعلم رسم الخرائط. إنه بالفعل الأساس الذي قام عليه رسمُ المواقع هندسيا على سطح الأرض كما قام عليه أيضا رسم المساحات بيَانيّاً؛ ولْنقرأ ما يذكره أحدُ الموسوعيّين:

«هو علمٌ يُتَعرف منه كيفية نقل الكرة إلى السطح مع حفظ الخطوط والدوائر المرسومة على الكرة، وكيفية نقل تلك الدوائر إلى الخط»[1].

ويذكرنا طاش كبري زاده بالعناوين الرئيسية والمؤلفين الذي اعتنوا بهذا الموضوع فيقول: ومن الكتب القديمة في هذا العلم كتاب بطلميوس Ptolémée حول تسطيح الكرة، ومن الكتب الحديثة كتاب الكامل للفرغانيّ والاستيعاب للبيرونيّ وكتاب آلات التقويم للمراكشيّ.

وَيُسْتبعَدُ أن يكون هذا رأيُ عَالِمٍ مِنْ علماء القرن السادس عشر الميلادي، لأنه من الآراء الشائعة منذ القرن الحادي عشر للميلاد على الأقل، أي مباشرة بعد أن أصبح علم التسطيح فرعًا متميّزًا من فروع الهندسة بشِقَّيْهَا النَّظَرِيّ

---

[1] طاش كبرى زاده(أحمد بن مصطفى) : «مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم» تحقيق كامل كامل بكري وعبد الوهاب أبو النور، ١: ٣٨٣، دار الكتب الحديثة- القاهرة ١٩٦٨.

والتَّطْبِيْقِيّ، وعَلَى كُلٍّ فإنّ هذا هو رأي البَيْرُونِيّ وكذلك رأي ابن السريّ ورأي كثيرين غيرهما.

والسؤال الآن هو: متى استَقلّ علم «التسطيح» عن علم الفلك وأصبح فرعاً من فروع الهندسة يمكن تطبيقه في رسم الخرائط؟ قبل الاسترسال في الموضوع أَوَدُّ التذكير بحقيقتين تاريخيتين: الأولى معروفة جدّا تتعلق بالبحث العلمي في بغداد في أواسط القرن التاسع الميلادي. فحسب ما يذكر الفرغانيّ وهو شاهد على ذلك العصر وعنصر فاعل في الأسرة العلميّة، فإن مسائل التسطيح كانت موضوعَ نِقَاشٍ بل وخِلاَفٍ بين الرياضِيِّين ولا سيَّما بنو موسى والكنديّ والمَرْوَرُوذيّ (فلكي الخليفة المأمون) والفرغانيّ وغيرهم، أما الحقيقة الثانية فقد غَفِلَ عَنْهاَ جُلّهُمْ: وهي أنّ جميع هذه المسائل التي تتصل برسْمِ الخرائط وصُنْعِ الاسطرلابات قَدَ أُثِيْرَتْ في ضوء آخر ألا وهو ترجمة مؤلف أبلونيوس[٢] الذي عَنْوانُهُ «المخروطات». وبالنسبة إلى الفلكيين والجغرافيين فقد تمثلت المسألة الأساسية في كيفية التوصل إلى إسقاط يمكن أن يضمن رَسْمَ الخَرَائِطِ واثْبَاتَ صِحَّةِ هَذَا الرَّسْمِ بِدِقَّةٍ، ولقد مَهَّد أبلونيوس، عَنْ غير قَصْدٍ، الطَّرِيقَ إلى بحوث جديدة في الهندسة عبر اهتمامه بتقاطع المخروطات مع السّطوح رغم أنّه لم يكن مهتمًا بمسألة الإسقاطات. ولقد تمّ التلاقح بين قضيّة رسم

---

[٢] رياضي إغريقي عاش بين ٢٦٢- ١٨٠ ق.م ويعتبر كتابه المتعلق بالمخروطات من أعظم كتب الإغريق الرياضية (المترجم).

الخرائط ونظريّة الإسطرلاب من جهة وقضيّة هندسة المخروطات[٣] من جهة ثانية في القرن التاسع الميلادي، وفي كتاب الكامل للفرغانيّ بالتحديد. وقد كان لهذا الحدث الحاسم أثرٌ واضحٌ في كتاب الكامل شكلاً ومضموناً، فَأَمَّا من ناحية الشكل فقد خَصَّصَ الفرغانيّ لهندسة التسطيح فصلا مستقلاً عن فصول الكتاب الأخرى وعنوانه مقدّمة للفرضيَّات الهندسيّة التي يمكن عن طريقها إثباتُ شكل الاسطرلاب وقد عَرَضَ الفرغانيّ في هذه المقدّمة بَحْثاً يُعَدُّ من أوائل البحوث في مسألة التسطيح المخروطي.

ودون أن نغوص في التّقْنِيَاتِ الهندسية، أودُّ أن أَذكِر بإحدى النتائج البارزة التي توصّل إليها الفرغانيّ: فقد أثبت أن التسطيح المخروطي لكرة عبر القطب (ق) على السطح المماس لنقطة مقابلة للقطب (ق) على قطر أو على سطح موازٍ له هو «مسقط مجسّم»[٤]، وهذه نتيجة جوهرية فيما يتعلق برسم خريطة الكرة، وهو ما كان يُمَثّلُ المشكلة الرئيسية للجغرافيين وغيرهم من المهتمين بنظرية الاسطرلاب. وتميزت هذه الدراسة التأسيسية التي قام بها الفرغانيّ بأنها دراسة هندسية بحته، رغم أنها أُجْرِيَت لأغراض الفلك والجغرافيا، وَلَحِقَتْ بهذا العمل التأسيسي الذي أنجزه رِيَاضِيُّو القرن التاسع

---

[٣] المخروطات Conic sections (المترجم) .

[٤] مسقط مجسم Stereographic Projection.

وَفَلَكِيُّوهُ دراساتٌ أخرى قام بها علماء آخرون كانت معارفهم «بعلم الإسقاطات» قد تَطَوَّرت. وَتَلَتْ أبْحَاثُ جِيلِ بنو موسى والكنديّ والمَرْوَرُوذيّ والفرغانيّ أبحاثٌ أخرى أَنْجَزَها رياضيّون كبار قطعوا أشواطا واسعة في هذا المجال، وَلْنَذْكُرَ بَعْضَهُم مِثْلَ أبي العلاء ابن كرنيب وأبي يحيى الماورديّ وابن معدان وابن سنان وكثيرين غَيْرَهم. ومن المؤسف القول أنه لَمَ تَجْرِ دراسةُ أيّ مُسَاهَمَةٍ من المساهمات المذكورة، فَحَتَّى كتاب الكامل للفرغانيّ لم يُنْشر ليومنا هذا. وعَلَى كُلٍّ، وَلِكَيْ أتمكّن من تقييم التطوّر الذي حققته هذه المادة العلمية الجديدة، سأقفز إلى الجيل الثالث أَيْ جيل الثلث الأخير من القرن العاشر للميلاد، وسأقَدِم خلاصةً مُوجَزَةً لإسْهَام أبي سهل ويجن القوهيّ الذي تأخّر عن الفرغانيّ بِحَوَالَيْ قَرنٍ مِنَ الزَّمَانِ، و القوهيّ هو أحد أهم علماء القرن العاشر وأبرزُ من ظهر في بلاط عضد الدولة وابنه أبي الفوارس شرف الدولة. وفي كتابه صنعة الاسطرلاب بالبرهان الذي حَقّقْتُهُ مُنْذُ أكثر من عقد، يُقَدِّم القوهيّ دراسة دقيقة لعلم الإسقاط؛ وقد قام بالتعليق عليها وإكْمّالِهَا أحدُ مُعَاصِرِيه وهو العلاء بن سَهْل من مشاهير الرياضيين في بلاط صمصام الدولة. يبدأ القوهيّ بالتذكير بأنّ الاسطرلاب آلة تستخدم لدراسة القُبَّة السماوية في حركتها الدائرية حول محور، باسقاطها على سطح متحرك يقع فوق سطح ثابت. ولكن، قبل أن يَعْمَدَ إلى دراسة مشكلة

الاسقاطات التي أثارتها هذه الآلة، يُوَجّهُ جُلَّ اهتمامه نحو قضية أخرى أكثر عمومية وهي دراسة إسقاط كرة ذات محور معروف على سطح إمَّا ثَابِتٍ أو متحرك بحركة دائرية. وهَذَا، تَحْدِيدًا، هُوَ مَوْضُوعُ المُقَدّمَةِ التي غَطّتْ أكثر من نِصْفِ مَا قَام به «ابنُ سَهْلٍ» مِنْ شَرَحٍ وتعليقٍ، وبالفعل فهذا هو الجزء الذي قَادَ القوهيّ، وَمِنْ بَعْدِهِ ابنَ سَهْلٍ، إلى تحديد التسطيح الاسطواني في اتجاه موازٍ لمحور الكرة أو غيرَ مُوَازٍ لَهُ؛ وكذلك تحديدِ التسطيح المخروطي[٥] لقطب قَدَ ينْتَمِي إلى هذا المحور أو لا ينتمي إليه.

وحسب علمي فهذه هي المرّة الأولى التي يظهر فيها مفهومُ الإسقاط الإسطواني، سواء أكان متعامداً أو مائلاً، وكذلك هو الحال بالنسبة إلى الإسقاط المخروطي لا من نقطة على المحور فَحَسْبُ، بَل وكذلك مِنْ أيّ نقطة خارج المحور. ومن ناحية أخرى وَقَبْلَ مَجِيءِ البَيْرُونيّ، فقد تَمَّتْ دراسةُ التسطيح الإسطواني[٦]، كما تَمَّتْ في زمن الصاغاني إن لم يكن قَبْلَهُ دراسةُ الإسقاط المخروطي خارج القطب[٧] بل حتى خارج المحور[٨].

---

[٥] التسطيح المخروطي: Conical sections (المترجم).

[٦] الإسقاط الأسطواني: Cylindrical projections (المترجم).

[٧] القطب: Pole (المترجم) .

[٨] المحور: Axis (المترجم).

وخلاَصَةُ القول، فقد أدخل القوهيّ وابن سَهْل أنواعاً مختلفة من الإسقاطات سَيَتمُّ اسِتثمارُ واحدٍ منها فقط في الاسطرلاب وهو الإسقاط المُجَسَّمُ. ولتوضيح هذه الخاصيَّةِ في البحث الهندسي، لا بُدَّ من التذكير بإيجاز ببعض ما تَوَصَّل إليه الرياضيان سَالِفَا الذِّكْرِ من مفاهيمَ ونتائجَ شَكّلَتْ أرضِيَّةً قَامَ عليها عِلْمٌ رِيَاضِيٌّ في رسم الخرائط [ويُمْكِنُ التَّكَهّنُ]، بحالتين اثنتين: إمَّا أن يمكن التمييز بين محور الكرة من جهة ومحور دوران السطح من جهة ثانية؛ وإمّا ألاَّ يمكن التمييز بين المحورين، فبالنسبة إلى الحالة الأولى حيث لا يمكن التمييز، يعرض «ابن سَهْل»، مُقْتَفِياً أَثَرَ القوهيّ، المفاهيمَ التاليةَ:

١- مفهوم المسقط الإسطواني الذي يكون في اتجاه موازٍ لمحور الكرة، وَأَوَدُّ أنْ أُذَكّرَ هنا بأنّه إذا كان سطحُ المَسْقَطِ سطحاً مستوياً، فإنّنا نحصل عندئذ على مسقط عمودي أو مسقط متعامد، أي المسقط الذي ابتكره الكِنْديّ أو المَرْوَرُوذيّ حَسْبَ مَا ذَكَرَ الفرغانيّ فَلَكِيُّ القرنِ التاسعِ الميلادي.

٢- مفهوم المسقط الاسطواني الذي يكون في اتجاه غير مُوَازٍ لمحور الكرة.

٣- مفهوم المسقط المخروطيّ الذي ينطلق من نقطة واقعةٍ على محور الكرة.

٤- مفهوم المسقط المخروطي الذي ينطلق من نقطة واقعةٍ في الكرة خارجَ المحور.

ثُمَّ يَدَرُسُ ابنُ سَهْل الحالة الثانية حيث لا يمكن التمييز بين محور الكرة ومحور دوران مُسَطّح الإسقاط.

ومن بين النتائج التي توصل إليها القوهي وابن سَهْل أقتصر على ذكر اثنين فحسب:

(١) لقد أثبت القوهيّ خاصِيَّةً أساسيّةً في الإسقاط المجسم أو التسطيح المجسم وهي أن الدوائر التي لا تمر عبر القطب تتحول إلى دوائر، أمّا التي تمرّ عبر القطب فتتحول إلى خطوطٍ مستقيمة.

(٢) أمّا ابن سَهْل، فقد بيّن أنّ الإسقاط الإسطواني لدائرة ما من دوائر كرة على مُسْتَوٍ غَيْرِ متعامدٍ مَعَ محور الكُرَة هو قطع ناقص.

لقد طوّر رياضيون فلكيّون كثيرون أمثال الصاغاني وابن عراق هذه البحوثَ ولكن أكبر الفضل في تطويرها يعود إلى البَيْرُوني، لاسيّما في كتابه الاستيعاب. وَفي خِضَمّ هَذِهِ الكِتَابَاتِ التأسيسيّة الثّريَّةِ يبرزُ من بين الفصول الأكثر أصالة والمتعلقة بالهندسة عِنْدَ العَرَبِ فَصْلٌ لافِتٌ لِلنَّظَرِ. يَتَعلَّقُ بالبحث في الهندسة الإسقاطيّة. فقد نُسِبَتِ النتائج التّي تَحَصَّلَ عليها القوهيّ وابن سَهْل والبَيْرُونيّ تَعَسُّفا إلى رياضييّ القرن السابع

عشر الميلادي والمُلاَحَظُ أَنَّ المخطوطات التي حُقّقت من بين هذه الدراسات المُهمّةِ تُعَدّ على أصابع اليد الواحدة، وليست الدراسات التاريخية الجَيّدة بأوفر عَدَداً من ذلك مع الأسف.

إنّ علم إسقاط الكرة سيصبح في وقت لاحق جُزْءاً لاَ يَتَجَّزأ من الهندسة الاسقاطية، ولقد تَصَوّرَ رياضيّو الإسلام هذا العلم وطَوَّرُوه إلى حدّ الالتقاء بالهندسة المَحْضَة، وكذلك إلى حَدِّ صناعَةِ الاسطرلابات وتحديدِ نِقَاط الأرض البارزة، وهذا يعني أنهم طَوَّرُوا هذَا العِلْمَ إلى حدّ الاستجابة إلى ما تحتاج إليه الخرائطُ الجغرافيَّةُ، فها هو إِذَنْ عِلمٌ رِيَاضِيٌّ يتَوَلَّدُ مِن آلتقاء العِلْمِ بالعَمَل.

بيْدَ أَنَهُ يَتَعَيَّنُ على ساكن الأرض أن يَحَدّدَ أيضا مَوْقِعَهُ في مُسْتَوَيَيْ الزمان والمكان، وفعلاً فقد شُرِعَ في دراسة الآلات الظلية منذ زمن مُبَكّرٍ، حتّى أنّ «أ . نوجوبور O.Neugebouer» ذهب إلى الظنّ بأنّ هذه الدراسة قد تكون وراء آكتِشَافِ نظرية المخروطات، وفي هذه الحالة أيضًا يُحَوّلُ رياضيّو الإسلام التقليديّ فنّاً إلى فَنٍّ عِلمْيٍّ أي أنهم يجهّزون هذا الفن بأسس هندسيّة متينة، ولقد التصقت بهذه المهمّة أسماءُ شهيرةٌ مثلُ ثابت ابن قُرَّة وحفيده إبراهيم بن سنان وابن الهيثم وغيرهم. ولنأخذ مثالا كتابَ «ابن سنان» حيث يتجاوز فيه جَدَّهُ ثابتَ بنَ قُرَّةٍ قبل أن يتجاوزه - هو نفسه - ابنُ الهيثم. ففي هذا الكتاب يدرس ابن سنان رياضياً

خصَائص السّاعات الشمسيّة[٩] قصد توضيح طريقة اشتغالها وتَجْوِيدِ نَتَائِجِهَا، فلقد كان يسعى إذَنْ إلى إنجاز تطبيقيّ، وبالفعل فانّه يمكن القول إنّه استخلص من هذه الدراسة الرياضيّة «دَليلاً لِصِنَاعَةِ السَّاعَةِ الشَّمْسِيَّةِ» فهو يقول إنه يدرس طريقة رسم خطوط الساعات لا على السطوح المُسَطَّحَةِ فَحَسْبُ، بَلْ وَعَلَى السطوح المُقَعَّرَةِ والسطوح المُحَدَّبَةِ أيضاً. ولقد واصل الدراسةَ مشيرا إلى أنّه تناول نفسَ النتائج التي حَقّقَها مِنَ قَبْلُ لكن بلغةٍ أُخْرَى، أَيْ أَنّهُ بَسَطَهَا وَقدَّمَهَا في كتاب آخر مُوَجَّهٍ إلىَ الحِرَفِيّ صَانِع السَّاعَةِ الشَّمْسِيَّةِ.

إنّ المسارَ الذي قاد ابن سنان من البحث الرياضيّ التطبيقيّ إلى علم الفلك ثم إلى إعداد «دليل صناعة السّاعات الشمسيّة» مسارٌ طويلٌ، بدأ بإنشاء نَظَرِيَّةِ السّاعات الشمسيّة المُسَطَّحَةِ. فَفِي الفَصلِ الأوّل مِن الكتاب يدرس ابن سنان الخطوط التي يرسمها ظِلُّ نِهَايَةِ عَمُودٍ قَائِمٍ على السَّطْح الأفقي للساعة، وهي دراسة عَامَّةٌ حَدَّدَ فيها ابنُ سنان المقاييسَ المُتَحكّمَةَ في شكل الخَطِّ أيْ عُلُوَّ المَكَانِ وَانْحِدَارَ الشّمس في النَّهَارِ المَقْصُودِ. وفي الفصل الثاني درس طول ظِلّ المِزْوَلِ[١٠] على سطح السّاعة الأفقيّ كما درس فيه أيضا التَّغَيّرَاتِ التي تطرأ

[٩] الساعة الشمسية أو المزولة: Cadran solaire.

[١٠] المزول: Gnomon (المترجم).

على طول الظلّ تَبَعًا لِعُلُوّ الشّمس فوق الأفق، وابن سنان بهذه الطريقة يعتمد منهجاً في التفكير ذا طَبِيعَةٍ دَالِيَّةٍ[11] ولاَ نِهَائِيَّةِ التَّصَاغُرِ[12] في الوقت نفسه. وفي الفصل الثالث اهتمّ بالسّاعات الشمسيّة ذاتِ السَّطْحِ المُوَازِي لخطّ الاستواء، أمّا في الفصل اللاّحق فَيُحَدّدُ إحْدَاثِيّاتِ الشّمس الأفقيّةَ بالنّسبة إلى عُلُوٍّ مُحَدَّدٍ ثم يعتني بتحديدِ آخِرِ نُقْطَةٍ فِي ظِلّ المِزْوَلِ وتَحْدِيدِ المُسْتَوَيَات التي نُقِيمُ حَسْبَهَا السَّاعَةَ الشَّمْسِيّةَ وبطريقة إقامتها إلى آخر ذلك.

فدراسة ابن سنان هي من الدّراسات ذات المستوى الرياضيّ الرفيع، التي شغل بال مؤلفها دائماً التطبيق التقني وهي من الدراسات التي لم يُسبق إليها تاريخياً.

وإذا كان كتاب ثابت بن قُرَّة جَدّ ابْنِ سنان قد حَقَّقَهُ وَتَرجَمَهُ م. ريجيس موريلون M. Régis Morelon فإنّ كتاب ابن سنان الذي وصل إلينا في نسخة وَحِيدَةٍ وَمَنْقُوصَةٍ مَعَ الأسف، وكَذَلِكَ رِسَالَةَ ابن الهيثم الهَامَّةَ، قَدْ تَمَّ تَحقِيقُهُمَا وتَرْجَمَتُهُمَا للمرّة الأولى في الأيّام الأخيرة وَهُمَا الآن تحت الطبع.

---

[11] دالية: Fonctionnelle (المترجم).

[12] لا نهائية التصاغر: Infinite' small (المترجم).

وتنتمي إلى علم الحيل[١٣] (علم الطرق الابداعية والميكانيكية) مَوادّ علميّةُ أُخرى ضَرُورِيةٌ هِي أيضا لمعرفة كوكب الأرض، يَكْفِي أن نذكر منها، بِسَبَبِ ضِيقِ الوَقْتِ ولِلتَّذْكيرِ فَحَسْبُ، عِلْمَ «الجيوديزيا» Géodésie وَعِلْمٍ «رَسْمِ الخرائط». فمنذ القرن الحادي عشر الميلادي شَهِدَتْ كُلٌّ مِنْ هاتين المادّتين العلميتين تجديداً حقيقياً بفضل إنشاء علاقاتٍ جديدةٍ بين علم الفلك القائم على الملاحظة من ناحية، وعلم الفلك الرِيّاضيّ من ناحية أخرى. إنّ هذاَ التمازجَ المتينَ بين هاتين المادّتَيْنْ هو الذي منح علم الفلك العربي أصالته وَمَيّزَهُ عَنْ عِلْمِ الفلك الإغريقيّ رغم أنه وَرِيثُهُ الشَّرْعِيّ.

لقد طَوَّر فَلَكِيّو المأمون عِلْمَ «الجيوديزيا» في اتّجاهين أساسيّين، ظَلَّ يَسْلُكُهُمَا حتى القرن الثامن عشر الميلادي. فقد تطوّر علم «الجيوديزيا» في اتجاه أوّل يَتَعَلّقُ بشكل الأرض وقياسها إنْ كُلّيّاً أوَ جُزْئيّا وَبَحَسبِ قِيَاسِ خَطّ نصف النّهار أيضاً. وتحقيقاً لهذا الغرض انتظمت في عهد المأمون رَحَلاَتٌ إلى صحارى بلاد الشَّام للوقوف على بعض الملاحظات وَرَفْعِ بَعْضِ القِيَاسَاتِ. فهو اتجاه يقيم علاقاتٍ مَتِينَةً مَع عِلم الفلك. أمّا الاتجاه الثاني الذي شهد فيه عِلّمُ «الجيوديزيا» تَطَوّرًا فيتعلّق بتحديد مواقِعِ النِقّاطِ المتميّزَةِ على سطح الأرض. وَلَعلَّ العَدَدَ

---

[١٣] علم الحيل، أو علم الطرق الإبداعية والميكانيكية Science des procédés ingénieux

الـوَفِيرَ للزّيجـات Zîjs وكـذلك عـدَدَ الكُتُـبِ حَيْـثُ تُبسْـطُ الإحْـداثِيّاتُ[١٤] الجغرافيّـة لمختلـف النـواحي يقـوم شـاهدا علـى ضخامة مـا أُنْجِـزَ مـن عمـل. فمـن الـزّيج الممتحَن و زيَـج الألخـاني مُرُورًا بزيج السنجاري ووصولاً إلى الزيج الشامل. وأُذَكِّـر بأنّـه لم يَتُمَّ تَحْقِيقُ أيّ زِيجٍ منْ هَذِهِ الزِّيَجِ جَمِيعاً بل حتّى فهرستها فهرسة علميّة. وكـذلك الشـأن فِـي كُـلِّ الكِتَابَـاتِ الأخـرى الـتي اعتنـت وَلَوْ جُزْئيّاً على الأقل بتحديد الإحداثِيّاتِ الجغرافيّة.

أمـا المـادّة العلميّـة الأخيرة الـتي أوَدُّ أنْ أشُيرَ إليهـا وَتعْتَبُـرِ هـي أيضـا مـادّةً أسَاسِيَّةٌ لمعرفة الأرض، فهـي عِلْمُ رَسْمِ الخَـرَائِط، وهي مادّة لها علاقة بعلِمِ إسقاط الكـرة. وَمَـرَّةً أخـرى يمكـن أن نقول إنّ تاريخ هذه المادة في المدّة المُمْتَدَّةِ مِنَ التاسـع إلى السـادس عشر الميلاديين مازال لَمْ يُكْتَبْ بَعْدُ، وذلـك دون اعتبـار الأجـزاء الـخَمْـسَـة Monumenta cartographica Africa et Aegypti «ليوسـف كمال» ونحن لا نقصد هنـا التَّغَافُلَ عَنْ هـذا النقْصِ، ولـكننـا نريـد الإشـارة إلى مرحلـة حاسمـة مـن مراحـل تَطَـوُّرِ هَـذِهِ المـادَّة مـع «أبـي الريحـان البَيْرُونـيّ». فـالبَيْرُونيّ في كتابـه «تسـطيح الصـور» يُـذَكِّـرُ بجغرافيـة بطلميـوس «وكـذلك بطريقـة» مـارينوس دوتـير Marinus de Tyr (القـرن الأول المـيلادي) في رسـم الخـرائط كَمَـا نَقَلَهَـا «بطلميوس». وَيَنْقُدُ البَيْرُونـيّ هـذه الطـرق كمـا يَنْقُدُ طُـرُقَ تطبيقهـا

---

[١٤] الإحداثيات: Coordonnées.

مِنْ قِبَلِ فَلَكِيِيّ الإسْلام، مِثْلِ البتّاني، والبَيْرُونيّ يَعْرِفُ جَيّدًا أنّ هذه الطُّرُقَ تُؤَدّي إلى رسم خرائط تحترم فعلا المسافات في كل خطوطّ الطول، لكنها لا تحترم المسافات في كلّ الخطوط الموازية لخط الاستواء، ففي خريطة مارينوس تضيق هذه المسافات جنوب «(جزيرة) رودس» Rhodes، وتَتَّسِعُ في شمالها. ثُمَّ يُذَكِرُ البَيْرُونيّ باسهامات سابقية وبالانتقادات التي وَجَّهُوهَا إلىَ هذه الطرق لاسيما انتقادات البتّاني. والعلماء المذكورون ليسوا أقلّ قِيمَةٍ من السِّجْزيّ وابن عراق والخجنديّ وكثير مِمَّنْ يَنْضَافُ إليهم، وآنطلاقا من أعمال هؤلاء يُحَدّدُ البَيْرُونيّ هدفًا جديدًا فهو يقول إنّه قَرَّرَ: «تَأسِيسَ المبادِئ التي بها نَتَوَصَّلُ إلى رسم خارطة تُمَثّلُ مَا يَحْويهِ كَوْكَبُ السَّمّاءِ مِن نجوم وَصُوَر، وَمَا يَحْويهِ كَوْكَبُ الأرضِ مِنْ بَلْدَانٍ وَجبَال وَبِحَار وأنْهَارٍ وَغَيْرِ ذَلكَ، حتىّ يَسْتَطِيعَ المُهْتَمُّ بِهَذا الموضوعِ أن يَعْتَمِدَ عَلَيهْا فلا يلتفت إلى شيء غيرها».

لَقَدَ عبّر البَيْرُونيّ عن مشروعه بغاية الوضوح، إنّه يَقْصُدُ إلىَ تأسْيسِ عِلْمِ رَسْمِ الخرائط على أسس متينة كَانَتْ تَنْقُصُهُ مِن قَبْلُ وَهَكَذاَ يَتَبَيَّنُ أن البَيْرُونيّ إنّما يريد أن يَدْخُلَ في طَوْرِ جَدِيدٍ من أطوار علم رسم الخرائط، وبالفعل، فهو يدرس في كتابه الصغير مَا لاَ يَقِلُّ عن ثمانية تَصَوَّرَاتٍ لرسم الخرائط، ولن أتوَقَّفَ عِنْدَهَا ولكنّي سأتحدّث عن مشكل رسم الخرائط كَمَا بَسَطَهُ البَيْرُونيّ.

إن التسطيح المجسمي كما استعمله «بطلميوس» وَجَوّدَهُ بصَرَامَة أكبرَ أسلافُ البَيروني مثلُ القوهيّ والصاغانيّ وابن عراق يَكْمُنُ فِيه عيبٌ يَتَمَثّل في تقليص المسافات الواقعة على مركز الخارطة تقليصاً كبيراً، مِمَّا يَنْتُجُ عَنْهُ تَصْغيرٌ في المساحات، في حين أنّ الأجزاء المحاذية لجوانب الخارطة تحتفظ تقريبا بمَقَاسَاتِهَا الحِقيقيّةِ. وعلى العكس من ذلك فإنّ الاسقاط المتعامد الذي تَصَوّره الكنديّ أو المَرْوَرُوذيّ فلكيُّ الخليفة المأمون يحترم تقريبا المسافات في مركز الخارطة لكنه يُقَلّصُ بصفة خاصة الأجزاء المحاذية لجوانب الخارطة. إنّ مشكل علم رسم الخرائط الذي يبسطه البَيْرُونيّ يتمثّل في استنباط طريقة تضمن أن تكون اسقاطات نُقَطِ كَوْكَبِ الأرض المتساوية الأبعاد متساوية الأبعاد. لقد فَكّر «البَيْرُونيّ» في إسقاط نصف كرة على دائرة يُمَثّلُ أَحَدُ أقْطَارِهَا (ج قطر الدائرة) العَمُودِيّةِ خَطَّ الطُول المركزيَّ ويُمَثّلِ قُطْرٌ آخَرُ خَطَّ الاسْتِوَاءِ. وَيُمَثّل بَعْدَ ذَلِكَ خُطُوُط الطُّول مُتَسَاوِيَةُ التباعد بأقواس تَمُرُّ بالقطبين مَعًا، وكذلك تَمُرّ بنقاط تُقَسّمُ خَطّ الاسْتِوَاءِ إلى أجزاءَ متساويةٍ، وأمّا المتوازيات فَسَتُمَثّلُ بأقواس دائريةٍ أخرى تَمُرُّ بنقاط تُقَسّمُ خَطَّ الطول المتوسط إلى أجزاء متساوية، كما تَمُرَّ بالمتوازيات المتطرفة. وبالفعل فإنّ هذا الإسقاط يقود إلى الحصول على خرائط أفَضْلَ، بما أنّ الانحراف في الجزء

المركزي للخارطة يُصْبِحُ ضَعِيفاً مَعَ الاحْتِفَاظِ بِنَفْسِ المَسَافَاتِ الواقعة حوله، وأمَّا المناطق الأكثر تمدّدا فتقع على الأطراف.

إنّ هذا الإسقاط الذي تَصَوَّره البَيْرُونِيّ والذي سمّي فيما بعد «بالإسقاط الكروي» سينسب إلى ج. ب نيكولوسي الصقلي (١٦٦٠) J.B. Nicolosi سَيُنْقَلُ ثَانِيَةً إلى فرنسا ثم يتبناه الإنجليزي أروسميث (١٧٩٤) Arrowsmith الذي وسمه بأسمه. أمّا الرياضي الفرنسي لاهير La Hire[3] (١٧٠١) فإنه يقدم رواية تختلف عن هذه اختلافاً ضئيلاً.

ما انفك الإنسان من أجل أن يعمّق مَعِرْفَتَهُ بكوكب الأرض وَيُحَسّنَ إقامته عليه، وكذلك من أجل أن يسيطر على طرق أسفاره يَخْتَرِعُ الوسائلَ الضّروريّة لذلك، وما الأدواتُ الرياضيّةُ إلاّ واحدةٌ مِنْها، وإنّ الأمثلة السابقة لَتُبرهن على أن تحسين الأدواتِ الرياضيّةِ عرف منطلقا جديداً وحاسماً منذ القرن التاسع الميلادي ويعود هذا الانطلاق الأساسي حسب رأيي- ولو جزئيّا- إلى قيام مفهومٍ جديد لعلاقات العلم بالعمل وعلاقات العلم بالفن. وليس من باب الصدفة أن تَعُودَ هَذِه الموادُّ العلميّةُ كلّها إلى صنف «علم الحيل»، بل لعلنا نعثر في ذلك على أحد الأسباب التي تُفَسّرُ عَدَمَ انتباه مؤلفي الفهارس جَميعًا بِمَنْ فِيهم مِنْ مؤلفي الفهارس المُعَاصِرين أيضاً إلى هذه المواد العلميّة مُنْفَرِدَةً. ويبدو لي أنّ سببا ثانياً وراء عدم الانتباه ذاك،

وهو- حسب رأيي- التَّرفُّعُ عن إيلاءِ المَفَاهِيم النظريّة العناية الكافية، لذلك بَقِيَت هي نَفْسُها غَيْرُ محدّدة بالدّقة اللازمة. وبالفعل فقد لاحظنا أن لكل مادّة من هذه المواد العلميّة تقاليدَ في البحث أَصِيلةً يُمْكِنُ التَعُّرّفُ عليها بأعلامها وعناوينها وإشكاليّاتها، فابن الهيثم مثلا هو آخر حَلْقةٍ في سلسلة من العلماء الرياضيين الذين أسهموا بنصيبهم في فن «المساحة» والقوهيّ هو وريث تقاليدَ بَحْثِية أوقفت جهدها على علم الاسقاطات وعلى الاسطرلابات، و«إبراهيم ابن سنان» وَاصَلَ مَا طَوَّرَهُ جَدّه من أَشْغَالٍ على السّاعات الشمسيّة، أمّا البَيْرُونيّ فَيَذْكُرُ هُوَ نَفْسُهُ سابقيه ويُعَدّدُ كُتُبَهُم التي منها تَعَلَّمَ. ويمكن القول بأننا لَنْ نَعِيَ التَّطَوّرَ الذي حققته كلّ مادّة من هذه الموادّ العلميّة مَا لَمْ نَجْمَعِ المفاهيم النظريّة التي تعطيها معنى، ويتعيّن علينا، حتى نُدْرِكَ الفروق بين هذه المفاهيم النظريّة، أن نبدأ بجمع النصوص المتعلقة بها، ويجب أيضا أن نُعَمّقَ البحث في تاريخ هذه النصوص وفي صِحّةِ نِسْبَتِهَا وفِي نَسْخِهَا إلى آخر ذلك. أمّا إذا ما بقي تاريخُ المفاهيم معزولاً عن تاريخ النصوص فإنّ هذا الأخيرَ يبقى غامضاً ما لم يُوَضّحْهُ تَارِيخُ المَفَاهِيم، وهكذا يَتَعَيَّنَ عَلَيْنَا إذَنْ أَنْ نُعِدَّ مُسْتَقْبلاً «مفهرسي تراث» العلوم في الإسلام ومؤرّخي العلوم إعْدَادًا مِنْ نَوعٍ آخَرَ، مُخَالِفاً تَمَام المخالفة لما هو عليه الآن.

إنّ الأمثلة السابقةَ الذّكْرِ تُوقِفُنَا بصفة ملموسة على مدى قِلّةِ العِنَايَةِ المُخَصَّصَةِ للمخطوطات العربية ولتحقيق النصوص وكذلك لتاريخ العلوم في الإسلام، ونحن في هذا المجال بالذات مازلنا على الشاطئ، وأمّا المحيط فَيَبقَيَ عَلَيْنَاَ اكْتِشَافُهُ. هَذِه الحالة لا تَضُرُّ بمعرفة الثقافة الإسلامية التي تمثّل فيها العلوم بُعْدًا أَسَاسِيًّا فَحَسْبُ، وإنّما تؤثر بطريقة غير مباشرة في تاريخ الثقافة العلمية في عمومها، وإنّ مسؤولية سَدّ هذه الثغرةِ تقع علينا جميعاً وبالأخصّ على البلدان الناطقة باللغة العربية وباللّغة الفارسية، وهذه الملاحظة التي أريدها متفائلة هي استنتاجي الأخير.

نظرات في تحقيق النصوص الجغرافية العربية

عبد الله يوسف الغنيم

يشكل التراث الجغرافي العربي ركنًا أساسيًا من مكتبتنا العربية، ومن تراث الإسلام الحضاري، ومازال وسيظل مجال العمل في دراسة ذلك التراث مفتوحًا أمام الباحثين والدارسين، فعلى الرغم مما نشر من كتب الجغرافيا العربية قديمًا وحديثًا، هناك العديد من الملاحظات التي ينبغي أن تؤخذ في الاعتبار عند التقويم السليم لذلك التراث الغزير الذي أسهم إسهامًا كبيرًا في تطوير الفكر الجغرافي، وفي تقديم مناهج وأفكار جديدة ما زالت محل تقدير الأوساط العلمية.

وهذه الورقة محاولة من مختص، عايش ذلك التراث نحو ثلاثين عامًا قضاها في التحقيق والدراسة والبحث، للتعرف على أوجه القصور التي يعانيها المشتغل بذلك التراث، وبيان أسلوب التعامل مع النصوص الجغرافية والخرائط والمصطلحات، بما يحقق الفائدة المأمولة من تحقيق تلك النصوص ونشرها، وسنقتصر على أمثلة ونماذج محدودة نقدر أنها ستكون وافية بالغرض الذي نهدف إليه من هذا البحث.

وفي تقديري أن تغطية الموضوع على النحو المنشود تتحقق من خلال جوانب خمسة، هي:

١- الحاجة إلى إعادة نشر الكتب التي سبق تحقيقها في القرن الماضي
٢- إعادة النظر في بعض الكتب التي تم تحقيقها في العقدين الأخيرين
٣- بيان ضرورة مشاركة الجغرافي المختص في تحقيق النصوص وتحليلها والإفادة من مصطلحاتها
٤- العمل على دراسة الخرائط والمصورات الجغرافية القديمة العربية دراسة نقدية
٥- وأخيرًا التوصيات التي نراها مناسبة في هذا المجال.

أولاً- تحقيق التراث الجغرافي الذي تم إصداره في القرن التاسع عشر ونشره:

مضى نحو قرن من الزمان أو أكثر على تحقيق جانب هام من تراثنا الجغرافي ونشره على أيدي "رينو" و"دي سلان" و"فستنفلد" و"دي خويه" وغيرهم، ومع ذلك فإن أغلبية الدراسات والكتب الجغرافية العربية التي تم نشرها حديثًا تعتمد بشكل أساسي على تلك الأعمال التي قام بها أولئك المستعربون الكبار، فالمكتبة الجغرافية العربية التي نشرها دي

خويه بين عامي ١٨٧٠و١٨٩٤م، والتي تضم تسعة من كتب البلدان العربية الأساسية تم تصويرها ونشرها في البلاد العربية بعد نحو قرن من نشرها في أوروبا، ولم يتم النظر في إعادة تحقيق سوى أربعة كتب من الكتب التسعة المذكورة، ويصدق ذلك أيضًا على عديد من كتب الجغرافيا الإقليمية والمعجمات الجغرافية وكتب الرحلات والعجائب، ومثال على ذلك كتاب تقويم البلدان لأبي الفداء، الذي نال حظًا كبيرًا من النشر والتحقيق والترجمة في أوروبا، لا نجد له حتى الآن طبعة اضطلع بها محقق عربي، وما زالت الطبعة التي نشرها "رينو" و"دي سلان" عام ١٨٤٠ في باريس هي المعتمد الأساسي لذلك الكتاب رغم اكتشاف عشرات النسخ من مخطوطات ذلك الكتاب القيم، والتي يمكن أن يضيف الاطلاع عليها واستخدامها في التحقيق فوائد كبيرة، فضلاً عن الدراسات والبحوث النقدية المهمة التي كتبت عن ذلك الكتاب، والتي تضيف بعدًا آخرًا ييسر عمل التحقيق والبحث في مضمون الكتاب ونصوصه المختلفة. والأمر نفسه يمكن أن يقال عن كتابي«معجم ما استعجم» للبكري و «معجم البلدان» لياقوت الحموي. فالكتاب الأول - على سبيل المثال - أصدره "فستنفلد" بجوتنجن بألمانيا عامي ١٨٧٠و ١٨٧٧م معتمدًا على عدة نسخ مخطوطة محفوظة في مكتبات كامبردج ولندن ولايدن وميلانو، ثم نشره الأستاذ مصطفى السقا في أربعة مجلدات بالقاهرة بين عامي

١٩٤٥و١٩٥١م معتمدًا على طبعة فستنفلد إضافة إلى النسخ التي عثر عليها في مكتبات مصر.

وما تزال هناك نسخ كثيرة من مخطوطات المعجم في مكتبات العالم لم يرجع إليها فستنفلد والسقا، ومنها النسخ التي عُثر عليها أخيرًا في المغرب، وقد تؤدي دراسة تلك النسخ وتحقيقها إلى طبع نسخة أفضل للمعجم.

وقد أشار فستنفلد إلى اختلاف النسخ المخطوطة للمعجم فيما بينها، وعلل ذلك بأن البكري كتب المعجم أولاً، ثم أذاعه وتهاداه الناس والرؤساء، ثم أعاد النظر فيه - متصفحًا ومنقحًا - فبدت له أشياء لم يفطن لها أول الأمر فأصلحها على هامش بعض النسخ أو كما يقول فستنفلد، في أوراق وجذاذات وألحقها بمواضعها في الكتاب، فبعضهم عثر على نسخة منه منقحة، فنقلها كاملة، وبعضهم نقل الجذاذات كلها، وبعضهم نقلها ناقصة، فاختلفت نسخ الكتاب في أيدي الناس.

ومن أقدم النسخ التي وصلتنا من كتاب البكري النسخة المخطوطة في المكتبة الأزهرية بالقاهرة (مخطوطة رقم ٢٦٢) وهي نسخة غير كاملة، ويرجع تاريخ نسخها إلى سنة ٥٩٦هجرية، وتقع في جزأين: الجزء الأول مبتور من أوله ويبتدئ مع بداية صفحة ١٣٢ من طبعة السقا، وينتهي بآخر الجزء الأول.

أما الجزء الثاني فهو موافق للجزء الثاني المطبوع. والنسخة بخط أندلسي جميل.

وقد أشار مصطفى السقا إلى هذه النسخ وذكر أنها :«في الغاية من الصحة والضبط والوضوح، ولو كانت كاملة لفاقت جميع الأصول الموجودة من هذا الكتاب، وأن على هامشها ما يفيد أنها قوبلت على أصل بخط المؤلف».

وتكلم السقا عن التعليقات التي تحفل بها هوامش هذه النسخة، ولكنه - مع الأسف- لم يستفد من هذه التعليقات والهوامش فأغفلها تمامًا في نشرته مع أنها تحتوي زيادات وتصويبات كثيرة أهمها تلك التعليقات المنقولة عن كتاب «النوادر» لأبي علي الهجري، وهناك تعليقات أخرى أقل أهمية عن أبي حاتم وابن دريد وابن هشام وأبي الفرج الأصبهاني وغيرهم.

وبدراسة الحواشي المنقولة عن أبي علي الهجري، وهي أكثر من ثمانين تعليقاً وجدت أن معظم تلك التعليقات عبارة عن مواضع جديدة مضافة إلى الكتاب، وقد كتبت في الهامش أمام موضعها من الترتيب المعجمي، ومن أمثلة تلك الزيادات:

١- التَّغاليل: قال الهجري: سألت سليمان يزيد العمري عن قوله: « ليبدو لي الأعْلام من شقٍّ تغْلل»، قال: تغلل، معجمة الغين، هضبة من منحنى بيشة، ويجمع التغاليل. وقال في موضع

آخر: تغاليل عُقَد بين غمرة وبين القشاش رياض تصب في الحرة نحو غمرة وهي « تغاليلات».

٢- جَرْبان: قال الهجري: وجربان سائلة إلى قرب «ذهبي»، ومَلْك الوادي: الذي يملأ سيله، قالت الأنعمية- وتزوجت بالعراق:

ألا حبَّذا من مَلْك جريان نظرة وجَرَبْان من أهل العراق بعيدُ

٣- الحلوة: قال الهجري: وسألته: يعني الخلصي- عن الحلوة بئر مزينة، لبني صخر من مزينة، فقال: هي بالمنصرف، تدفع في غيقة، وليست بالجي، وللنبي صلى الله عليه وسلم مسجدًا بالحلوة ومسجد بالبضة، وهي تلعة بيضاء أسفل من «ركوبة» بميل ونصف، والبضة بالجي، والجي ما بين ركوبة إلى الرُّويثة: قال الهجري: عين ضبعة: بئر يقال له البضة.

ولا يتسع المجال لذكر جميع الزيادات، قد كان على محقق الكتاب أن يضيفها في أماكنها في المعجم ولا يغفلها ذلك الإغفال، وخصوصًا أن الظن قائم أنها من إضافات البكري نفسه، فإذا أضفنا ما وُجد حديثًا من نسخ معجم البكري إلى إغفال مصطفى السقا للمادة القيمة التي توافرت في النسخة الأزهرية من الكتاب، فإن الحاجة الماسة إلى نشرة جديدة دقيقة لكتاب المعجم توضح بعض الجوانب التي لا يزال يكتنفها الغموض حوله.

أما معجم البلدان لياقوت الحموي فقد تيسر في الوقت الراهن أمر الحصول على عشرات النسخ القديمة الموثقة التي لم يكن في مقدور فستنفلد الاطلاع عليها وقت نشره للمعجم في القرن الماضي. ولا بد أن بعضها يتضمن إضافات وتصحيحات لطبعاته المتعددة المتمثلة في نشرة فستنفلد في ليبزج ١٨٦٦م، ونشرة أمين الخانجي في القاهرة ١٣٢٣هـ ونشرة دار صادر في بيروت، وبجانب النسخ المخطوطة، فقد صدرت خلال العقود الأخيرة عشرات من كتب التراث العربي في مجالات الأدب والشعر والتاريخ والتراجم والجغرافيا، وكثير منها يعتبر من المصادر التي اعتمد عليها ياقوت وتعتبر سندًا مهمًا للمشتغل بتحقيق الكتاب.

ويدرك الحاجة إلى طبعة جديدة لكل من معجم ما استعجم للبكري ومعجم البلدان لياقوت الحموي كل مطلع- عن قرب- على الحواشي والتعليقات القيمة التي على نسخة أستاذنا محمود محمد شاكر- رحمه الله- من المعجمين المذكورين. وكذلك الاستدراكات التاريخية والجغرافية المهمة التي كتبها أستاذنا الشيخ حمد الجاسر- رحمه الله- على مدى ما يزيد على نصف قرن من الزمان، سواء فيما كتبه من بحوث وتعليقات في المجلات العلمية المختلفة وعلى رأسها مجلته القيمة «العرب»، أو فيما حققه من كتب تتصل بجغرافية الجزيرة العربية وتاريخها وآدابها. وقد عزز كل ذلك بدراسات

ميدانية واسعة لغرض تحديد الأماكن المذكورة في المعجمين والتحقق من مواضعها.

ثانيًا- إعادة النظر في الكتب التي تم تحقيقها خلال العقدين الأخيرين:

راجت في العقدين الأخيرين سوق التراث العربي رواجًا كبيرًا، وكثر المحققون الذين لا يمتلكون من أدوات التحقيق وفنونه شيئًا، فعبثوا بالتراث العربي، وأساؤوا إلى نصوصه إساءة بالغة. وساعدهم على ذلك تساهل بعض أساتذة الجامعات الذين لم يقدروا المسؤولية في إشرافهم على الرسائل التي تتضمن تحقيق النصوص القديمة وسطا البعض على أعمال الآخرين فانتحلوها ونسبوها إلى أنفسهم دون وجه حق.

ولم يكن ذلك مقصورًا على البلاد العربية، بل تعداه إلى عديد من الرسائل العلمية التي نوقشت في بعض الجامعات الأوروبية. ونال الجغرافيا جانب من ذلك العبث، فكانت النصوص المنشورة لا يراعى فيها الاهتمام بتصحيح أسماء المواضع وبيان أماكنها، والإبقاء على النص كما هو دون تعليق أو تصحيح أو تحليل أو ربط مع النصوص السابقة أو اللاحقة عليه لاستجلاء قيمته وبيان مكانة الكاتب ودرجته. وسنضرب مثالاً واحدًا على ذلك وهو رسالة نال عنها صاحبها درجة

الدكتوراه من كلية الآداب والعلوم الإنسانية من جامعة باريس- الثالثة (السربون الجديدة) في عام ١٩٧٥ تحت إشراف الدكتور أندريه ميكيل وهو أستاذ معروف ومشهود له بالخبرة في مجال تحقيق ونشر التراث الجغرافي العربي وترجمته إلى اللغة الفرنسية. وصاحب العمل هو أدريان فان ليوفن (A.P. Van Leewen) الذي أعد لرسالته المذكورة نص كتاب «المسالك والممالك» لأبي عبيد البكري، وأنجزه في ثلاثة مجلدات تتضمن النص باللغة العربية وفهارس تفصيلية مع مقدمة باللغة الفرنسية عن حياة الرجل وعصره ومصادره، ثم طبعت هذه الرسالة بحذافيرها بتوصية من وزارة الثقافة التونسية في عام ١٩٩٢، ونشرتها المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات «بيت الحكمة» بالتعاون مع الدار العربية للكتاب. والغريب أن أدريان ليوفن قد أدخل معه شخصًا آخر أشركه في أعمال التحقيق والفهرسة رغم أن ما نشر لا يختلف عن أصل الرسالة التي قدمها - بطبيعة الحال، منفردًا- ولم أجد تفسيرًا لذلك.

وقد ارتكب ليوفن أخطاء فاحشة في تحقيق نص كتاب البكري، **أولها:** أنه لم يرجع إلى ثلاث نسخ مخطوطة مهمة من الكتاب، هي نسخة مكتبة محمد المنوني بالرباط التي يرجع تاريخ نسخها إلى القرن السادس الهجري، فهي من أقدم النسخ وأوثقها. كما لم يرجع إلى نسخة الخزانة العامة بالرباط رقم

(٧٨٧د)، ولا إلى نسخة المكتبة الناصرية بلكهنو بالهند رقم ٥٩.

وثانيها: أن أسماء المواضع جاءت مصفحة دون تنبيه أو إشارة أو تعليق لبيان وجه الصواب في النص، وهذه أقل خدمة يمكن أن يقوم بها محقق نص من النصوص. وقد اكتفى ليوفن بالإشارة إلى فروق النسخ دون استقصاء.

ونضرب فيما يلي مثالاً واحدًا على ذلك الإهمال نأخذه من بيان «الطريق من البصرة إلى مكة» الوارد في ص ٣٨١ من الجزء الأول من كتاب المسالك والممالك المطبوع في تونس. وسنورد الفقرة بين قوسين ثم نورد تعليقنا عليها.

- (من البصرة إلى السحابية ثمانية أميال)

والصواب «المنجشانية» بدلاً من السحابية. قال ياقوت (٦٥٨/٤): «وهو منزل وماء لمن خرج من البصرة يريد مكة. وفي كتاب البصرة للتاجي: المنجشانية حد كان بين العرب والعجم بظاهر البصرة قبل أن تخط البصرة»، وانظر أيضًا المسالك والممالك لابن خرداذبة (ص١٤٦) والأعلاق النفيسة لابن رستة (ص١٨٠)، وكتاب المناسك المنسوب للحربي (ص ٥٧٥).

- (إلى الحفيرة عشرة أميال)

الصواب «الحفير» و هكذا وردت في إحدى النسخ التي لم يشر إليها المحقق. قال ياقوت (٣٩٧/٢): « والحفير أيضًا ماء لباهلة بينه وبين البصرة أربعة أميال يبرز للحاج من البصرة، بينه وبين المنجشانية ثلاثون ميلاً. وقال الحفصي: إذا خرجت من البصرة تريد مكة فتأخذ بطن فلج، فأول ماء ترد الحفير». ويلاحظ أن ياقوتًا قد جعل ما بين البصرة والحفير أربعة أميال، وهذا خطأ، ولعله أراد أربعة فراسخ، فيكون بعد ما بينهما ستة عشر ميلاً، وهو قريب من الرقم الذي ذكره كل من ابن رسته والمقدسي وهو ثمانية عشر ميلاً.

- (إلى الرُّحيل ثمانية وعشرون ميلاً، إلى السنجك ستة وعشرون ميلاً)

والسنجك هو «الشجيّ»، ذكره ياقوت وابن خرداذبة وابن رسته وغيرهم.

- (إلى الروحا ثلاثة وثلاثون ميلاً)

والصواب «الخرجاء»، ذكر ياقوت أنها ماءة احتفرها جعفر ابن سليمان قريبًا من الشجي بين البصرة وحفر أبي موسى في طريق الحاج.

- (إلى حفر أبي موسى ستة وعشرون ميلاً، إلى ماوية اثنان وثلاثون ميلاً)

وجاء بعد هذه العبارة في إحدى مخطوطات المسالك «إلى ذات العشر» وهي إحدى مراحل الطريق على بعد تسعة وعشرين ميلاً من ماوية ولم يذكرها المحقق.

- (إلى السرعة ثلاثة وعشرون ميلاً)

الصواب « الينسوعة» وهو موضع معروف على طريق الحاج البصري.

- (إلى السمية تسعة وعشرون ميلاً)

والصواب السمينة. وهو ماء لبني الهجيم فيه آبار عذبة وآبار ملحة، ذكر ياقوت (١٥٣/٢) أنه منزل قبل النباج.

- (إلى الساج ثلاثة وعشرون ميلاً)

والصواب «النِّباج» موضع معروف في طريق الحاج البصري.

- (إلى العوسجة سبعة وعشرون ميلاً، إلى القريتين اثنان وعشرون ميلاً)

وقد سقط من مطبوعة ليوفن بعد هذه العبارة أربعة منازل وردت في أحد أصول كتاب المسالك المخطوطة ، كما وردت في معظم كتب الجغرافيا العربية التي تكلمت عن الطريق من البصرة إلى مكة، وهذه المنازل هي رامة وامّرة وطخفة وضرية.

- (إلى حويلة اثنان وثلاثون ميلاً)

الصواب «جديلة» ذكرها ابن خرداذبة (ص١٤٦) وياقوت (٤٢/٢).

- (إلى ملحَة خمسة وثلاثون ميلاً)

الصواب «فلجة» بالفاء، ذكرها ابن خرداذبة (ص١٤٦) وياقوت (٩١١/٣).

- (إلى وجرة أربعون ميلاً، إلى أوطاس أربعة وعشرون ميلاً، إلى السكة، ومن السكة ..)

الصواب «مرَّانش» وفق ما ورد في معظم المصادر.

ومما تقدم يتضح أنه من بين ٢٤ منزلاً من منازل طريق البصرة إلى مكة لم يقم المحقق بالإشارة إلى أي تصحيف من التصحيفات الواردة في أسماء نحو أحد عشر منزلاً منها. ولم يتنبه أيضًا إلى المنازل الأربعة التي سقطت من نصه والتي هي موجودة في أحد أصول الكتاب فضلاً عن المصادر الأخرى. ولو كلف المحقق نفسه عناء النظر في أي كتاب من المسالك والممالك، وهي متاحة ومبذولة، لاستطاع أن يتحقق من سلامة النص.

وإذا كان هذا حالنا مع نحو عشرة أسطر من كتاب واحد فكيف يمكن أن نثق في بقيته؟ وأين لنا بالوقت الذي

نتتبع فيه أعمال المحققين ونستدرك عليهم أخطاءهم وما ارتكبوه من جرم بحق نصوص التراث العربي؟

ومع الأسف الشديد فقد حدثت مثل هذه الأخطاء في الطبعة الجديدة من نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للشريف الإدريسي التي أعدها المعهد الإيطالي للشرق الأدنى والأقصى بروما، والتي قام بإعدادها نفر من العلماء من مختلف أنحاء العالم، وصدرت بين عامي ١٩٧٠، ١٩٨٤، ثم أعيد طبعها في بيروت عام ١٩٨٩.

ففي (ص ١٦٠) من طبعة روما ذكر للطريق من اليمامة إلى مكة وهو طريق يتصل بطريق البصرة إلى مكة الذي ذكرناه قبل قليل عند منزل القريتين قبل أن يتجه إلى مكة، وقد وردت في أسماء منازل هذا الجزء من الطريق التصحيفات التالية:

«طقجة» والصواب (طخفة)، و«صربه» والصواب (ضرية) و«قلجة» والصواب (فلجة) و «الرقيبة» والصواب (الدثينة) .

ثالثاً- مشاركة الجغرافي المختص في تحقيق النصوص الجغرافية وتحليلها:

إن معظم الكتب الجغرافية العربية التي نشرت حتى الآن، سواء في أوروبا أو في البلاد العربية، قام بتحقيقها ونشرها

علماء غير جغرافيين من لغويين ومؤرخين وغيرهم، وهؤلاء قد يسروا السبيل أمام الجغرافي، ووفروا عليه بعض الجهود التي كان عليه أن يبذلها في جمع ذلك التراث وتحقيقه، إلا أن أعمالهم تفتقر إلى ثقافة الجغرافي ومنهجه في البحث والتحليل، ولهذا وقع عدد من المحققين في بعض الهفوات سواء في قراءة النصوص أو في التعليق عليها، وسنعرض لمثالين على ذلك:

(١) جاء في الطبعة التي أصدرها كل من إبراهيم أحمد العدوي وعلي محمد عمر من كتاب «فضائل مصر» لعمر بن محمد ابن يوسف الكندي (القاهرة ١٩٧١، ص٦٠) :« ... وسد الترع، وقطع القضب والخَلْفاء، وكل نبت مضر بالأرض» وجاء في حواشي التحقيق:« القضب كل شجرة طالت وبسطت أغصانها». ومع أن ما ذكر هو صفة القضب في كتب النبات، إلا أن الصواب القصب بالصاد المهملة والحلفاء بالحاء المهملة أيضًا، وهما من النباتات المضرة التي تسد الترع والمصارف.

(٢) وفي رحلة أحمد بن فضلان جاء ذكر شجر في بلاد الصقالبة « مفرط الطول وساقه أجرد من الورق، ورؤوسه كرؤوس النخل له خوص دقاق، إلا أنه مجتمع، يجيئون إلى موضع يعرفونه من ساقه، فيثقبونه ويجعلون تحته إناء فيجري إليه من ذلك الثقب ماء أطيب من العسل إن أكثر الإنسان منه أسكره كما يسكر الخمر».

وفي حواشي التحقيق يقول المحقق الدكتور سامي الدهان، وهو عالم فاضل: « لعله- أي ابن فضلان- يعني بهذا الشجر قصب السكر». وهذا وهم من المحقق، فقصب السكر - كما هو معروف- لا ينمو في المناطق الباردة التي وصلها ابن فضلان، كما أن صفة الشجر المذكور تختلف عن صفة قصب السكر الذي لا يفرز ماءه عند يقبه بل يحتاج إلى عصر شديد ليَخْرُج ماؤُه (رسالة ابن فضلان تحقيق سامي الدهان، دمشق ١٩٥٩، ص ١٢٩).

وبجانب الثقافة العامة التي يقدمها الجغرافي المختص، فله منهجه في فحص النصوص وتحليلها والتأكد منها، ومن وسائله في ذلك الدراسة الميدانية التي تتيح له التعرف عن قرب على الإقليم أو المنطقة التي يتحدث عنها المؤلف، والتوصل إلى مواضع العمران القديم عن طريق البحث في معطيات المكان الجغرافية ، والربط بين الطرق وطبوغرافية المنطقة محل البحث. والخروج من كل ذلك بخرائط تفصيلية تثري النص المحقق وتضفي عليه مزيدًا من الوضوح.

وفي اعتقادي أن النجاح الذي حققه بعض المحققين الذين لم يكونوا مؤهلين بدرجة علمية جغرافية، يعود إلى استخدامهم هذه الوسائل في الكتب التي حققوها أو في البحوث المعتمدة على النصوص الجغرافية القديمة .. ولنا في ذلك أمثلة واضحة.

فأستاذنا الشيخ حمد الجاسر أمدته دراساته الميدانية بفيض من المعلومات التي أعانته - بجانب ثقافته الموسوعية- على تحقيق النصوص. واقترن عمله باستخدام الخرائط كوسيلة لا غنى عنها من وسائل البحث أو التوضيح. وقد أصبح الشيخ حمد بذلك رائدًا في توظيف المعرفة الجغرافية في أعمال التحقيق.

ومن ناحية أخرى لم يكن في مقدور الإنجليزي لي سترانج (G. Le Strange) أن يصل إلى النتيجة الرائعة التي توافرت في كتابه «بلدان الخلافة الشرقية» لولا اتباعه المنهج الجغرافي في البحث، ويقال ذلك أيضًا على العمل الكبير الذي بذله المؤرخ الروسي بارتولد (V.V. Bartold) في كتاب « تاريخ تركستان من الفتح الإسلامي إلى الغزو المغولي»، والكتابان المذكوران يعتمدان بشكل أساسي على المصادر العربية القديمة، ويقدمان صورة رائعة للجغرافيا التاريخية لمشرق العالم الإسلامي بالاعتماد على البحث الميداني وتحليل المصورات والخرائط الجغرافية.

رابعًا- النصوص الجغرافية القديمة ومشكلة المصطلح:

وأمر آخر يستفاد من مشاركة الجغرافي المختص، في تحقيق النصوص الجغرافية وتحليلها، وهو القدرة على اقتناص المصطلح الجغرافي المستعمل في الكتابات القديمة، والعمل على

استخدامه في الدراسات المعاصرة. فالمشكلة التي يواجهها كل من يقدم على البحث أو التعريب في العلوم الحديثة، والمتمثلة في صعوبة العثور على المقابل العربي للمصطلح الأجنبي، ليست دائمًا مشكلة اللغة، بل هي أيضًا مشكلة الباحث العربي الذي انبتت صلته بتراثه القديم الثري بالمصطلحات، فأصبح يكتب اللفظ الأجنبي بحرفيته، أو يقوم بتعريب المعنى بأكثر من كلمة، غافلاً عن ذلك الفيض من المصطلحات التي تعج بها المصادر الجغرافية القديمة، في ميدان الجغرافية المناخية وأشكال سطح الأرض والجغرافية البشرية وغيرها.

ونورد بعض الأمثلة على ذلك :

(١) النقل الحرفي للمصطلح

أجاز مجمع اللغة العربية في القاهرة الالتجاء إلى هذه الطريقة إذا دعت الحاجة إلى ذلك، بألا يوجد لفظ متداول في اللغة أو مهجور يؤدي بدقة المعنى المصطلح عليه (محمد سويسي: ص١٣). وعلى ذلك فقد ضم كل من المعجمين الجغرافي والجيولوجي اللذين أعدهما المجمع عشرات الكلمات الدخيلة مثل «كويستا Cuesta » و «كلدرة Caldera» و «دلتا Delta» و«كارست Karst» وتقديري أن هذه الكلمات، وعددًا آخر من أمثالها مما شاع في كتابات الجغرافيين العرب المحدثين وترجماتهم وأقر منها مجمع اللغة العربية ما أقر، لم تخضع

لدراسة مكتبية أو ميدانية وافية أو استشارات على نطاق الوطن العربي للتأكد من عدم وجود لفظ متداول يؤدي المعاني المطلوبة. وعلى سبيل المثال فإن لفظ «كويستا» ما كان له أن يشيع في كتابات الجغرافيين العرب المعاصرين لو كان إقرار هذا اللفظ الدخيل جاء مبنيًا على دراسة علمية ميدانية يسندها ما جاء في التراث العربي. فهذه الظاهرة الجغرافية تنتشر بشكل لافت للنظر في وسط الجزيرة العربية عند النطاق الرسوبي المتاخم لكتلة الدرع العربي، ويطلق عليها السكان هناك اسم الجالات، مفردها «جال» وتمتد في شكل محاور يصل عددها في بعض المواضع إلى نحو ثمانية جالات، تواجه الغرب منها جروف وعرة شبه قائمة، ومنحدرة انحدارًا لطيفًا نحو الشرق وفقًا للانحدار الطبوغرافي العام لشبه الجزيرة العربية. وأكبر هذه الجالات مرتفعات العارض أو جبل الطويق التي تمتد من الشمال إلى الجنوب نحو ٨٠٠ كيلومتر وترتفع قممها نحو ١٠٠٠ متر فوق مستوى سطح البحر. وفي الكويت توجد أيضًا مجموعة من الجالات أهمها جال اللياح وهي مرتفعات تمتد شمال الكويت ولها خصائص «الكويستا» وهو وجود جرف شديد الانحدار يقابله في الجانب الآخر انحدار لطيف .

ولفظ «جال» الذي استخدمه السكان هناك منذ مئات السنين هو لفظ ذو جرس عربي سهل في النطق وفي التصريف، وهو أيضًا مشتق من البناء اللغوي العربي. فقد أطلق العرب على

جدار البئر وجانبي الوادي وشاطىء البحر اسم «الجال» بمعنى الحافة. ومن هنا جاء استخدام أهل الجزيرة لهذا المصطلح. فأهم ما يميز «الكويستا» هو جانبها الوعر الذي هو أشبه بالحافة، فكان لفظ «الجال» الذي غلب في شيوعه على المعاني المعجمية الأخرى.

وهذا المثال الذي ضربناه يقودنا إلى أمر آخر له أهميته، فمصطلح «جال» لا نجده في كتب الجغرافية العربية القديمة بل نجده في كتب اللغة. ونحن نعتقد أن التراث العربي تراث مترابط فقد تجد مادة جغرافية مهمة في كتاب من كتب اللغة أو التاريخ أو النبات لا تتوافر في كتب الجغرافية. والأمر الذي أردت الوصول إليه أن جزءًا من التأهيل الذي ينبغي للمحقق أن يتسلح به هو أن يكون على صلة ومعرفة بجوانب التراث المختلفة، وهو ما تعلمناه من أساتذتنا وأشياخنا.

(٢) التعبير عن المصطلح بعدة كلمات

مصطلح Water Divide أو Water Parting جاءت ترجمته في المعجم الجغرافي الذي أعده مجمع اللغة العربية بالقاهرة بكلمتين هما «مقسم المياه» ووصف بأنه «أعلى جزء في المرتفعات تنحدر منه المياه في اتجاهين مختلفين» (الصياد: ٩٧) وترجمه يوسف توني في معجم المصطلحات الجغرافية في ثلاث

كلمات هي «خط تقسيم المياه»، وقال في وصفه: خط وهيم يمر بالمنطقة المرتفعة من الأرض التي تفصل بين المجاري العليا لروافد الأنظمة النهرية أو الأحواض النهرية المختلفة (توني:ص٢١٠).

وتخلو المعجمات اللغوية من مقابل لهذا المصطلح، إلا أنني وجدت مقابلاً له في مادة (سلع) في معجم البلدان لياقوت الحموي:« يقول أبو زياد: الأسلاع طرق في الجبال يسمى الواحد سلعًا، وهو أن يصعد الإنسان في الشِّعب، وهو بين الجبلين حتى يبلغ أعلى الوادي، ثم يمضي فيسند في الجبل حتى يطلع فيشرف على واد آخر، يفصل بينهما هذا المسند الذي سند فيه، ثم ينحدر في الوادي الآخر حتى يخرج من الجبل منحدرًا في فضاء من الأرض، فذلك الرأس الذي أشرف من الواديين: السلع، ولا يعلوه إلا راجل» (ياقوت ١١٧/٣).

وهذا الوصف الذي نقله ياقوت عن أبي زياد الكلابي غني عن التعليق لوضوحه وشموله للمقصود بمصطلح المقسم المائي أو خط تقسيم المياه. كما أن ذلك الوصف يحمل في طياته مصطلحًا آخر قد استخدم في تعريبه أكثر من كلمة، فمصطلح «المسند»، بتصريفاته اللغوية المختلفة هو نفس المصطلح الإنجليزي Upstream الذي يقابله في الكتابات الجغرافية العربية الحديثة وفي معجم المصطلحات الجغرافية مصطلح «مصعد النهر» (توني: ص ٤٧٤).

(٣) الدراسة الميدانية للتأكد من المصطلح

تعتبر الدراسة الميدانية بعدًا مهمًا من الأبعاد الدراسية التي تحكم اختيار المصطلح الجغرافي، فالتأكد من الظاهرة على الطبيعة يفيد كثيرًا في وضع المصطلح المناسب إذا وجدت مرادفات أخرى للمصطلح، كما تفيد الدراسة الميدانية في تصحيح بعض الأخطاء الموجودة في بعض الكتب الجغرافية التي اعتمد فيها أصحابها على الدراسة المكتبية فقط. وعلى سبيل المثال ذكر عمر الحكيم في كتابه «تمهيد في علم الجغرافيا» (ص:٣٠٥): «أن تعمّق الجوبات أو الحفر الناتجة عن الإذابة في الصخور الكلسية يؤدي إلى تعميقها، وتعرضها نتيجة ارتخاء قعرها، إلى تقاطع أطرافها مع أطراف الجوبات المجاورة، فينشأ عن ذلك حفرة واسعة يبلغ قطرها عدة كيلومترات، ويقال لها «دارة» في بلاد العرب و«بوليه» في يوغسلافيا ... إلخ».

ويبدو مما ذكره الدكتور الحكيم أنه اعتقد أن الدارة هي صورة من صور الإذابة التي توجد في نطاقات الصخور الجيرية، فالوصف المعجمي قد أدى به إلى ذلك الاعتقاد، فقد جاء في لسان العرب «الدارة: الجوبة الواسعة تحفها الجبال» (ابن منظور ٣٨٢/٥)، وقد بنى الحكيم على هذا الوصف كل ما ذكره فيما يتعلق بالحفر والبالوعات الناشئة عن الإذابة في المناطق الجيرية.

والدراسة الميدانية تبين لنا أن مصطلح الدارة يخالف ما ذكر، بل إن هذه الظاهرة لا توجد في المناطق الجيرية بل في مناطق الدرع العربي من شبه الجزيرة العربية. وقد اهتم الجغرافيون العرب بوصفها وتوزيعها في جزيرة العرب، فخصص الأصمعي رسالة عن الدارات، وذكر البكري اثنتين وعشرين دارة، وذكر ياقوت الحموي ثمانيًا وستين دارة ولاقت اهتمامًا خاصًا من الشعراء وأصحاب المعاجم اللغوية فاستطردوا في وصفها واستقصاء المعروف منها، وتفاخر المتأخرون على المتقدمين في معرفة العدد الأكبر من تلك الدارات.

وتعطي الدراسة الميدانية مصطلحًا عربيًا آخر يوافق ما أراده عمر الحكيم وهو لفظ «الدحل» وجمعه دحال ودحلان وهو حفر ومغارات تتعمق في جوف الأرض نتيجة لعملية الإذابة في مناطق الصخور الجيرية. وهذا المصطلح من المصطلحات التي أوردتها معاجم اللغة وكتب الجغرافية العربية على حد سواء: يقول الأزهري:« وقد رأيت بالخلصاء ونواحي الدهناء دحلانًا كثيرة، وقد دخلت غير دخل منها، وهي خلائق (أي حفر) خلقها الله تحت الأرض، يذهب الدحل سكًا في الأرض قامة أو قامتين أو أكثر من ذلك، ثم يتلجف يمينًا أو شمالاً، فمرة يضيق ومرة يتسع في صفاة ملساء لا تحيك فيها المعاول المحددة لصلابتها. وقد دخلت منها دحلاً، فلما انتهيت إلى الماء، إذا جو من الماء الراكد فيه لم أقف على سعته وعمقه وكثرته لإظلام الدحل

تحت الأرض، فاستقيت أنا وأصحابي من مائه، لأنه من ماء السماء يسيل إليه من فوق ويجتمع فيه (تهذيب اللغة: ٤/ ٤١٩).

وأشار الهمداني إلى عدد من أسماء الدحلان في منطقة الصمادن وذكر أنها من موارد المياه هناك، وهي شقوق عميقة مخرّقة في جلَد الأرض يكون فيها الماء (صفة جزيرة العرب، ص ٢٨١).

ومع الأسف الشديد فإن مثل هذه الأخطاء ترد في كتب جامعية متداولة بين الأساتذة والطلاب مما يؤدي إلى انتشارها وشيوعها. والجدير بالذكر أن لفظ «دارة» وفق ما أشار إليه عمر الحكيم قد نقله يوسف توني عنه، وأورده في معجمه بخطئه (معجم المصطلحات الجغرافية : ص٢١٩).

خامسًا- تحقيق الخرائط العربية:

يبخس كثيرًا من الباحثين الخرائط العربية باعتبارها فنًا لم يحرز فيه العرب نجاحًا كبيرًا. ورغم الجهود الطيبة التي بذلها نفر من الباحثين مثل كونراد ميللر ويوسف كمال، حتى يجعلوا في إمكاننا الوصول إلى تقدير سليم لفن الخرائط عند العرب، فإن عددًا قليلاً فقط من الأصول التي خلّفها صناع الخرائط العربية ومن الصور المنقولة عن تلك الأصول قد وصلت إلى متناول أيدينا.

وقد كان تقدم الخرائط العربية متوافقًا مع تطور الجغرافيا الإقليمية عند العرب. وقد كان هناك منهجان واضحان في هذا الميدان، أولهما المنهج الإقليمي الفلكي المتأثر باليونان، وثانيهما المنهج الإقليمي الوصفي وهو منهج عربي خالص. وفي كل منهج من هذين المنهجين ساد صنف من الخرائط له ميزاته وسماته الخاصة.

(١) المنهج الإقليمي الفلكي (المدرسة اليونانية):

وجدت أفكار الجغرافيين الإغريق والرومان السبيل إلى الكتابات العربية بعد أن وضعت أكثر من ترجمة لكتابي بطلميوس «الجغرافيا» و«المجسطي». وكان اليونان والرومان يقسمون المعمور من الأرض إلى سبعة أقاليم في صورة نطاقات تمتد من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب بدءًا من خط عرض ١٦ جنوبًا وهو بداية الإقليم الأول إلى حوالي خط عرض ٦٣ شمالاً وهو ما وراء الإقليم السابع.

ويعتبر محمد بن موسى الخوارزمي أول من تأثر بهذا المنهج، وكان عنوان كتابه (صورة الأرض) هو الترجمة الشائعة لكلمة «الجغرافيا» ومع ذلك فلم يكن كتابه ترجمة لكتاب بطلميوس ولكنه ترتيب لمادة بطلميوس مع إضافات واسعة في ميدان الجغرافية العربية .

وقد كان كتاب الخوارزمي هذا جزءًا من عمل كبير تم في عهد المأمون الذي جند العديد من العلماء والحكماء الذين نظروا في كتب اليونان وبحوثهم وامتحنوا تقديرهم لدرجات العرض، ثم وضعوا الجداول المعروفة بالزيج المأموني الممتحن، الذي وضعت في ضوئه الصورة المأمونية أو «الخريطة المأمونية»، وهي أول خريطة عربية صوّر فيها العالم بأفلاكه ونجومه، وبره وبحره، وعامره وغامره، ومساكن الأمم والمدن وغير ذلك. وفضل المسعودي هذه الخريطة على الخرائط السابقة بقوله «وهي أحسن مما تقدمها من جغرافية بطلميوس وجغرافية مارينوس وغيرهما ».

وقد اختفت خريطة المأمون منذ عدة قرون، وآخر إشارة إليها هي إشارة أبي عبد الله الزهري المتوفى في منتصف القرن السادس الهجري في كتابه الجغرافيا- بالغين المهملة. ويبدو من نصوص كتاب الزهري أن الخريطة التي تكلم عنها هي خريطة مستديرة ملونة، يحيط بها طوقان، طوق أزرق يمثل البحر الموصوف ببحر الظلمات، يتصل به من داخل الدائرة طوق آخر أخضر اللون، وهو صفة البحر المحيط بالأرض وأجزائها المباشر للتراب في جميع دورانها، وهو الذي يتشعب منه جميع الأبحر.

ومع أن الصورة المذكورة لم تعد موجودة، فقد استمر ذلك الأساس العلمي وتطور في صورة مجموعة من الجداول الفلكية تبين المواقع الجغرافية المختلفة، منها الزيج الصابي للبتاني الذي أمضى حياته يرصد الأجرام السماوية بالرقة وزيج ابن يونس في مصر والزرقالي في الأندلس وغيرهم. وهذه الجداول، وإن لم يصاحبها خرائط تبين المواقع المذكورة فيها، يمكن تحويلها إلى خرائط، إذا ما تم الاعتماد على نسخ موثوقة.

وأهم جهد عربي ضمن المنهج الإقليمي الفلكي الذي يتبع المدرسة اليونانية هو كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» للشريف الإدريسي الذي وضعه بناءً على طلب الملك روجار، وهو يقسم فيه الأرض إلى سبعة أقاليم عرضية، ويقسم كل إقليم إلى عشرة أجزاء، كل جزء له خريطة مستقلة، يلحقها ثلاث خرائط: واحدة تضم صورة العالم وواحدة تشتمل على ما وراء الإقليم الأول وأخرى تشتمل على ما وراء الإقليم السابع. فالمجموع ثلاث وسبعون خريطة.

وقد كرر الإدريسي هذا العمل في كتابه الصغير «أنس المهج وروض الفرج» الذي ألفه للملك غليوم الثاني.

ويبدو من ملاحظة هذه الخرائط أن الإدريسي قد التزم - إلى حد ما- بمقياس رسم محدد التزمه في الأجزاء المختلفة التي تتألف منها الأقاليم، ولولا ذلك لما استطاع كونراد ميللر أن

يجمع هذه الأجزاء ويؤلف منها خريطة واحدة. كما أن الإدريسي قام باستخدام الألوان للدلالة على ظاهرات بعينها، فاستخدام اللون البني للجبال واللون الأزرق للبحار وجعل الأنهار باللون الأخضر وهكذا. يضاف إلى ذلك أنه قام بتتبع تعاريج الساحل وتقديم صورة طبق الأصل لكل جزء من أجزاء الأقاليم التي أوردها.

(٢) المنهج الإقليمي الوصفي (المدرسة العربية):

ويتمثل هذا المنهج في أعمال مجموعة من أعلام الجغرافيين العرب اعتبارًا من القرن الثالث الهجري أبرزهم الاصطخري وابن حوقل والمقدسي، واختلف تقسيم هؤلاء للمعمور عن أتباع المنهج اليوناني، فالإقليم عندهم منطقة متجانسة لها خصائصها الطبيعية والبشرية. وقد احتوت كتب هذه المدرسة على إحدى وعشرين خارطة تمثل الأقاليم المذكورة، تتتابع على النحو التالي: أولها خارطة العالم المستديرة، تليها خارطات جزيرة العرب وبحر فارس والمغرب ومصر والشام وبحر الروم، ثم أربع عشرة خارطة تمثل الأجزاء الوسطى والشرقية للعالم الإسلامي (الجزيرة والعراق وخوزستان وفارس وكرمان والسند وأرمينيا ومعها الران وأزربيجان أيضًا، والجبال وجيلان ومعها طبرستان، وبحر الخرز وصحراء فارس وسجستان وخراسان وما وراء النهر).

ومن الواضح أن نظام توزيع الخارطات وأشكالها لا يشير إلى أية علامة بينها وبين المنهج اليوناني في الدراسة الإقليمية. فلفظ الإقليم هنا مرتبط بالمنطقة الجغرافية التي تصورها الخارطة. والخارطات هنا مستقلة كل واحدة عن الأخرى ولا يمكن وصل بعضها ببعض لتكوين خارطة شاملة للعالم، وهي خرائط توضيحية (كروكية) استخدمت الخطوط المستقيمة والهندسية في رسم سواحل البحار والأنهار. فنحن هنا أمام منهج مختلف تمامًا عن المنهج السابق. وهذا الأسلوب لا يعد قصورًا في فن رسم الخرائط بل هو وسيلة توضيحية متبعة إلى وقتنا الحاضر تتبع أحياناً في التدريس وأحيانًا أخرى للتركيز على ظاهرات بعينها دون النظر إلى التفصيلات غير المرغوبة.

وبالإضافة إلى ماسبق ذكره هناك خرائط أخرى وردت في عدد من كتب الجغرافية العربية التي لا تنتمي إلى المدرستين المذكورتين، مثل خريطة العالم الواردة في كتاب خريدة العجائب وفريدة الغرائب لابن الوردي، وخارطتي تنيس وقزوين في كتاب آثار البلاد وأخبار العباد للقزويني، وخارطة النيل في كتابَيْ نيل الرائد في النيل الزائد لأحمد بن محمد الحجازي ومبدأ النيل لجلال الدين السيوطي، وغير ذلك مما تحفل به كتب الجغرافية العربية.

وإذا ما أردنا أن نقيم تلك الجهود فلابد من الإشارة إلى أن معظم أصول تلك الخرائط لم تصل إلينا، فلم نعثر على أثر لأصول خرائط الخوارزمي الذي شارك في وضع خريطة المأمون، ولا توجد الأصول الأولى لكتب الإصطخري وابن حوقل والمقدسي، كما أن خرائط الإدريسي الموجودة بين أيدينا لا يسبق تاريخها القرن التاسع الهجري، أي أنها رسمت بعد ما يزيد على قرنين من وضع الإدريسي لكتابه.

وكان موقف النساخ من المادة المرسومة يتراوح بين إغفال رسم الخرائط في المتون الجغرافية أو ترك مكانها خاليًا وبين النقل غير الدقيق للخرائط، والذي يأخذ في الابتعاد عن الأصل الصحيح مع كل نسخة جديدة، ولهذا وجدنا ذلك التفاوت والواضح في الخرائط بين نسخ الكتاب الواحد، كما هو الأمر بالنسبة إلى خرائط كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق أو أنس المهج وروض الفرج للشريف الإدريسي. كما أن النساخ مسؤولون أيضًا عن اختلاف خرائط الإصطخري، من حيث الشكل، في نسخ الكتاب التي بين أيدينا في الوقت الحاضر، فالبحر المتوسط أو بحر الروم يظهر تارة في شكل كروي، وأخرى بيضاوي، وثالثة في شكل مستدير، وهكذا.

ولم يكن موقف النساخ بأشد سوء من موقف المحققين المعاصرين، فأغلبهم أغفل قيمة الخرائط، باعتبارها جزءًا

مكملاً للنص الجغرافي، فلم يكلف نفسه عناء قراءة الخريطة، والربط بينها وبين النصوص المرتبطة بها، والتحقق من أسماء المواضع والأنهار والجبال والبحار التي تتضمنها، والعمل على وضع صور الخرائط الموجودة في النسخ الأخرى من الكتاب، لأن إيرادها يحقق بيان فروق النسخ التي يفترض في المحقق أن يثبتها كجزء من عملية التحقيق. كما أن معظم كتب الجغرافيا قد أوردت الخرائط باللونين الأبيض والأسود، نجد هذا في تحقيق كتاب المسالك والممالك للإصطخري (القاهرة ١٩٦١) وكتاب صورة الأرض لابن حوقل (طبعة أوربا وبيروت). وكتاب أنس المهج وروض الفرج في نسختيه اللتين نشرهما بالتصوير معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية في فرانكفورت (١٩٨٤م). ولا حاجة بنا إلى القول بأن الألوان لها معانيها في الخرائط المذكورة وإغفالها يعد إغفالاً لجزء من مادة تلك الخرائط. وأخيرًا فإن المحققين لا ينشرون الخرائط بحجمها الذي وردت عليه في المخطوط، فيتركون أمر وضعها في الكتاب المحقق وفقًا لأهواء المخرج، فيكبر الصغير منها ويصغر الكبير وفقًا لحجم الصفحة ومتطلبات الطباعة وهو أمر ينبغي الاحتراس فيه، لأن الحجم له دلالته ومقاصده.

وهذه الهفوات في نشر الخرائط في نصوص التراث الجغرافي من الممكن أن تقل كثيرًا إذا ما شارك الجغرافي في

عملية نشر ذلك التراث وأسهم في تحليل تلك المادة التي تدخل في صلب اختصاصه.

الخاتمة والتوصيات:

يخلص هذا البحث إلى أن الوضع العام لتحقيق التراث الجغرافي العربي يتحدد في ثلاثة أمور:

أولها: كتب حققت قديمًا ، وتحتاج إلى إعادة نشر وتحقيق لندرتها ولتوافر مخطوطات جديدة يمكن أن تثري نصوصها وتصلح ما أشكل منها.

ثانيها: كتب حققت حديثًا لم يتم الاهتمام فيها بتصحيح أسماء المواضع وبيان أماكنها ، ولم تستقص المخطوطات الخاصة بالكتاب محل التحقيق، فجاءت أعمالاً لا فائدة ترجى من ورائها.

وثالثهما: كتب ورسائل جامعية لم يتم تحقيقها ،وتحفل مكتبات الشرق والغرب بمثل هذه الكتب التي نأمل أن ترى طريقها للنشر. وهذا الأمر الأخير، وإن كنا لم نعالجه في هذا البحث ، إلا أن المشتغل بالمخطوطات الجغرافية يعرفه ويدرك القصور الذي يشكو منه مجال تحقيق النصوص الجغرافية.

وبناء على ما تقدم يمكن أن تخرج هذه الورقة بالتوصيات التالية:

١- تحديد كتب التراث الجغرافي التي طبعت قديمًا ، ولم تتوافر لها طبعات جديدة موثقة ، وبيان المخطوطات التي

اعتمدت عليها تلك الطبعات والمخطوطات التي استجدت معرفتها، مع بيان قيمتها وأهميتها في إصدار طبعة جديدة. ودراسة الوضع العام للكتب التي صدرت خلال العقود الأخيرة من القرن الماضي، وتحديد ما يحتاج منها إلى إعادة تحقيق.

٢- تكوين لجان علمية مؤلفة من مجموعة من المختصين يعهد إليها بتحقيق تلك الكتب وفق ضوابط محددة يراعى فيها مراجعة كافة النسخ المتوافرة من المخطوطات، والنصوص المنقولة عنها في الكتب التراثية الأخرى. والاستفادة من الدراسات النقدية، التي كتبت بشأنها عند صدور طبعاتها الأولى. ويكون من مهام تلك اللجان أيضًا مسألة التدقيق والمراجعة اللغوية وبيان فروق النسخ والتحرير العلمي.

٣- إعداد مجموعة من الدراسات حول مخطوطات التراث الجغرافي العربي وعلاقة السابق منها باللاحق، وبيان الإضافات العلمية التي يتضمنها ذلك التراث، وتشجيع الدارسات النقدية التي تتناول الكتب المحققة، حتى يتم الالتزام بالضوابط والمعايير العلمية لتحقيق التراث.

٤- إعداد معجم للمصطلحات الجغرافية المستخدمة في كتب التراث الجغرافي، وبصورة خاصة ما جاء في معاجم البلدان، والاستفادة من مسميات المواضع والأماكن العربية التي تمثل في الأغلب وصفًا للأرض وما تتضمنه من ظاهرات، ومن

المؤكد أن هذا العمل سيمثل رافدًا لجهود المجامع اللغوية في الوقت الحاضر.

٥- تقويم الدراسات والبحوث التي كتبت من قبل حول التراث الجغرافي العربي، وعلى الأخص ما كتبه المستشرقون في هذا المجال والعمل على ترجمة المفيد منها إلى اللغة العربية.

٦- توجيه بعض البحوث المعاصرة والرسائل المتخصصة إلى تحقيق التراث الجغرافي، وبيان مواطن التصحيف الذي لحق بالمصطلحات الجغرافية، وأسماء الأماكن، وإفساح المجال لذلك في الدوريات والمجلات المتخصصة.

٧- الاهتمام بموضوع الخرائط العربية، وإعادة إحياء جهود كل من الأمير يوسف كمال وكونراد ميللر في مجال الخرائط العربية مع إضافة الخرائط التي لم تشتمل عليها أعمال ودراسات الاثنين المذكورين. على أن يتم النشر بالألوان وبنفس المقاييس الواردة في المخطوطات.

المصادر والمراجع:

الإدريسي (محمد بن محمد):

- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، روما ١٩٧٧، عالم الكتب بيروت ١٩٨٩.

الأزهري (محمد بن أحمد):

- تهذيب اللغة، القاهرة ١٩٩٤.

الإصطخري (إبراهيم بن محمد):

- المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر الحيني، القاهرة ١٩٦١.

بارتولد:

- تاريخ تركستان من الفتح الإسلامي إلى الغزو المغولي، الكويت ١٩٨١.

البكري (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز):

- جزيرة العرب من كتاب المسالك والممالك، تحقيق عبد الله الغنيم، الكويت ١٩٧٧.
- المسالك والممالك، تحقيق أدريان ليوفن وأندري فيري، تونس١٩٩٢.
- معجم ما استعجم من أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق مصطفى السقا، القاهرة (١٩٤٥- ١٩٥١) ومخطوطة المعجم بالمكتبة الأزهرية رقم ٢٦٢.

الحكيم (عمر):

- تمهيد في علم الجغرافيا « التضاريس»، دمشق ١٩٦٥.

ابن خرداذبة (عبيد الله بن عبد الله):

- المسالك والممالك، تحقيق دي خويه، المكتبة الجغرافية العربية، لايدن ١٨٨٩.

ابن رستة (أحمد بن عمر):

- الأعلاق النفيسة، تحقيق دي خويه، المكتبة الجغرافية العربية، لايدن ١٨٩٢.

الزهري (محمد بن أبي بكر):

- كتاب الجغرافية، تحقيق محمد الحاج صادق، بيروت ١٩٦٥.

سويسي (محمد):

- « مشكلة وضع المصطلح»، مجلة اللسان العربي، الرباط مجلد ١٢ج (١) ص ص ٩- ١٥.

الصياد (محمد محمود):

- المعجم الجغرافي، مجمع اللغة العربية، القاهرة ١٩٧٤.

الغنيم (عبد الله يوسف):

- مصادر البكري ومنهجه الجغرافي، الطبعة الثالثة، الكويت ١٩٩٨.

- المخطوطات الجغرافية العربية في المكتبة البريطانية ومكتبة جامعة كامبردج، الكويت ١٩٩٩.

- «استنباط المصطلحات العربية للأشكال الأرضية» المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، المجلد ٣، العدد ١٢، ١٩٨٣، ص ص ١٣- ٣٦.

أبو الفداء (عماد الدين إسماعيل):

- تقويم البلدان ، تحقيق رينو ودي سلان، باريس ١٨٤٨.

ابن فضلان (أحمد بن فضلان بن العباس) :

- رسالة ابن فضلان، تحقيق سامي الدهان، دمشق ١٩٥٩.

كرانشكوفسكي (أغناطيوس):

- تاريخ الأدب الجغرافي العربي، تعريب صلاح الدين عثمان هاشم، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٧.

الكندي (عمر بن محمد بن يوسف):

- فضائل مصر، تحقيق إبراهيم أحمد العدوي، وعلي محمد عمر، القاهرة ١٩٧١.

لي سترنج:

- بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، بغداد ١٩٥٤.

المقدسي (محمد بن أحمد):

- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق دي خويه، المكتبة الجغرافية العربية، لايدن ١٩٠٦.

الهمداني (الحسن بن أحمد):

- صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع، بيروت ١٩٧٤.

ياقوت الحموي:

- معجم البلدان، تحقيق فستنفيلد، ليبزج ١٨٦٦

يوسف توني:

- معجم المصطلحات الجغرافية، القاهرة ١٩٦٤.

أنظارٌ في بعض مشكلات النصّ الجغرافيّ التراثيّ

إبراهيم شبّوح

تمثّل نصوصُ الجغرافيا التراثية قاعدةً مهمّة للدراسات والبحوث التاريخية الحضارية والبشرية في ثقافتنا العربيّة الإسلامية، وكثيرًا ما تكون المنطلق الممكنَ لاستعادة تركيب صورة تلك المجتمعات في ظل بيئتها وحيويتها وإمكاناتها وإنتاجها وتعاملها وعلاقاتها، ومراكز استقرارها ومسالك الاتصال الرابطة بين مدنها وقراها وما حولها.

إنّ المادة البِكْر التي توفّرها تلك النّصوص على إيجازها في الغالب، وإشاراتها الغامضة أحيانًا أخرى، لا تسمح بها مصادر التاريخ المباشِرة والعامة في أكثر ما وصلنا.

ومثلما صنعت هذه النّصوص الجغرافية في عصرها مادّة التعريف بصورة الأرض وما عليها، فإنّ البحوث المعاصرة تعتمدها بدرجات مختلفة ومتفاوتة حسبما اتفق لكاتبيها من الإفادة والشهادات الموثّقة.

وقد انقطع في البلاد العربيّة والإسلامية البحث الاستكشافي الجغرافي البحت، ولم تتح للمسلمين إضافة

نصوص جديدة مهمّة طيلة القرون الأخيرة، ويمكن القول إن هذا العلم توقف منذ القرن ٨هـ، ولم تتطور الجهود الرائدة بعد ذلك التاريخ، وقد تبنّى الاستعراب منذ القرن السادس عشر تلك المبادىء الجغرافية الراسخة يوم نشرت في روما سنة ١٥٩٢م نسخة مختصرة من كتاب الإدريسيّ نزهة المشتاق، في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق، وطبعت في باريس سنة ١٦١٩م ترجمته إلى اللاتينية التي تولاها المارونيان جبرائيل صهيوني وحنا الحصروني[1]؛ ومنذئذ وهذا الفرع المهمّ من وثائق المعرفة الإنسانية يتقدّم بثبات إلى مجالات البحث والدرس والتحقيق الاستشراقي المستعرب، الذّي أولاه عناية قُصوى، فأخرج الأصول والترجمات والدراسات إخراجًا التزم فيه مناهج نشر النّصوص الكلاسيكية، مع ما تسرب إليه - رغم الدقة المتناهية - من أخطاء في القراءة والضبط، نتيجة ارتباك الأصول الخطيّة وقلّة عددها.

وشهد القرن التاسع عشر الميلادي ظهور المجموعات الكبرى من هذا التراث الجغرافي، وربّما كان ذلك مقترنًا بحركة التمدّد الاستعماري والتعرّف على العالم العربي والإسلامي بصورة أعمق. ففي باريس ظهرت جغرافية أبي الفدا «تقويم البلدان»

---

(1) سركيس: معجم المطبوعات العربية ١/ ٤١٥.

بعناية م. رينو M. Renaud والبارون دوسلان Le Baron de Slane (١٨٤٠م). وظهرت جهود المستعرب الفرنسي سلفستر دي ساسي Silvestre de Sacy الذّي أبرز وصف مصر لعبد اللطيف البغدادي.

ونشر فستنفلد Westenfeld في لايبزج ١٨٦٦م أوسع المجموعات الجغرافية وأكثرها استيعابًا وتنظيمًا، كتاب معجم البلدان لياقوت الحمويّ، ثم كتاب معجم ما استعجم لأبي عبيد البكري (غوتا ١٨٧٦م).

وفي هولندا والت مكتبة أ.ج. بريل دعم جهد المستشرق الكبير مايكل جان دي خويه، فنشرت له سنة ١٨٦٦م، وصف إفريقية والأندلس، مستخرجة من كتاب نزهة المشتاق للإدريسي، وقد تعاون في تحقيقها مع ر. دوزي R. Dozy، ثم استمرت في جهد موصول بإقامة مكتبة الجغرافيين العرب بفضل عناية دي خويه الذي كان في عمله نموذجًا للدقة والأمانة والالتزام بالمنهج في التنبيه على كل فروق النسخ وإن دقت، فأخرج مسالك الممالك للاصطخري (١٨٧٠م) والمسالك والممالك لابن حوقل (١٨٧٣م) وأحسن التقاسيم للمقدسي (١٨٧٧م) وكتاب البلدان لابن الفقيه الهمذاني (١٨٨٥م) والمسالك والممالك لابن خرداذبة، ومقتطفات من خراج قدامة بن جعفر (١٨٨٩م) والأعلاق النفيسة لابن رسته وكتاب البلدان لليعقوبي (١٨٩٢م)، والتنبيه والإشراف للمسعودي (١٨٩٤م).

ولم تنقطع تقاليد هذه العناية في القرن العشرين، فقد أعاد المستشرقون تحقيق ونشر وتصوير ما ظهر في القرن الماضي، مثل المكتبة الجغرافية، وأحسن التقاسيم، للمقدسيّ البشاريّ (١٩٠٦م) وجزء من كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار لابن دُقْماق (القاهرة ١٣١٤هـ ق١٩م) وصورة الأرض، لابن حوقل (١٩٣٩م). وتوّجت هذه الجهود بتحقيقٍ ونشر جماعي اشترك فيه بعض العرب للمرّة الأولى إلى جانب مختصين من مدارس الاستشراق، ورعاه المعهد الإيطالي للشرق الأدنى والأقصى في روما، حيث حُقق كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، للشريف الإدريسيّ (القرن ٦هـ)، فظهر في تسعة أقسام صغيرة بين سنتي ١٩٧٠- ١٩٨٤. واكتملت حلقة نشر المصادر الجغرافية المهمّة، بنشر النصّ الأوفى لكتاب المسالك والممالك، لأبي عُبيد عبد الله بن عبد العزيز البكريّ (- ٤٨٧هـ)، وكان قد طُبع منه قسم المغرب بتحقيق البارون دوسلان سنة ١٨٥٧م، ثم أُعيد نشر هذا القسم مقابلاً على مخطوطات جديدة سنة ١٩١١م. وهذه النشرة الوافية للكتاب تولاها أدريان فان ليوفن A.Van Leewen وأندري فيري André Vyre وصدرت بجزأيها في تونس سنة ١٩٩٢م.

وبالقدر الذّي كانت هذه المصادر المعتمدة تدرس وتُستَمدّ في البحوث والدراسات الاستشراقية في أوسع الحدود، وتكوّن رصيداً

معرفيًا ضخمًا صدر مجمّعًا في السنوات الأخيرة، وظهر أثرها واضحًا في كتابات الموسوعة الإسلامية L'Encyclopédie de I'Islam في طبعتها الأولى في النصف الأول من القرن العشرين الدابر، فإنّ استعمالها لدى الباحثين العرب كان محدودًا، لنُدرة تلك الأصول وانقطاعها التام تقريبًا عن سوق الكتاب العربي.

وعندما تيسّرت تلك المصادر النادرة في الستينيات من القرن العشرين بإعادة تصويرها وترويجها في أسواق المعرفة في البلاد العربية - بفضل مكتبة المثنى ببغداد- وأقبل عليها الناس، لوحظ تفاوت العلاقة العامة مع تلك النّصوص بحسب يُسر محتواها ومباشرتها الواضحة في الإفادة، فلا نكاد نجد فيما كُتب من الأبحاث العربيّة المعاصرة استعمالاً أساسيّاً للجغرافيا الرياضية المتصلة بالتراث اليوناني، أو بجداول الأزياج الفلكية، على أهميتها القُصوى؛ فلا يتردد في تلك الأبحاث اسم الخوارزميّ، واسم مُقتفي خطاه سهراب في الأقاليم السبعة (ق٩- ١٠م) رغم ما اشتمل عليه كتابه من إضافات وافية، لا سيّما ما يتصل بقنوات بغداد ووصف أرض السواد، ودلتا النيل[٢]، ولا نجد أثرًا لأعمال البتّانيّ وأضرابه، وربّما كان ذلك للصلة الوثيقة بين هذا الفرع من الجغرافيا الرياضية وبين الفلك، مع ما في هذا اللون المعرفيّ من براعات باهرة في الرصد والتحليل

---

[٢] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي ١/ ١٠٤.

والاستخلاص والجهد المقدّر لعلماء المسلمين الذين كتبوا بلغة العلم العالمية في تلك العصور، لغة القرآن؛ ومن المتميزين منهم أبو الريحان البيرونيّ (٣٦٢- ٤٤٠هـ/٩٧٣- ١٠٤٨م) الذّي أُجْمِعَ على أنّه أحد أكابر العلماء في التاريخ[٣]. بل إننا نجد الجغرافيا الرياضية قد توقفت قديمًا عند الجيل المتأخر من الجغرافيين، مثل ابن سعيد المغربيّ في بسط الأرض، وأبي الفدا الذّي التزم في تعريفاته ذكر أطوال البلدان وعرضها.

وإلى جانب احتجاب الجغرافيا الرياضية في أبحاث الدارسين، فإن جانب جغرافية المسالك على أهميتها في فهم الاتصال والترابط الإنساني والاقتصادي داخل الممالك وخارجها، وفهم أمن البلاد وطرقها، كانت مغيّبة أيضًا في الأبحاث الجديدة، ربّما كان ذلك لغموض بعض الأسماء، واندراس مواقع بعضها الآخر، وتحوّلها المستمر بالأعراض الطارئة من رياح وسيول وحروب، وربّما لما تتطلبه من جهد كبير وإعنات في المطابقة على الخرائط الحديثة الصحيحة وغير المتيسّرة أحيانًا، فلم يجهد الباحثون في دراسة هذه المادة المتوفّرة لهم والمهمّة، باعتبارها تمثل الشرايين والعروق التي تحرّك الحياةَ وتتخلل جسم العالم الإسلامي الكبير وما يتصل به.

---

[٣] نفيسي أحمد: جهود المسلمين في الجغرافيا ٦٤ (الألف كتاب ٢٧٢).

ولقد كانت المسالك أكثر أقسام الجغرافيا توثيقًا، وقد أقيم لها في العصر العباسي ديوان عرف «بديوان البريد والسّكك والطرق إلى نواحي المشرق والمغرب»، وهو مَرْفَق ترعاه الدولة وتضمن تأمينه[٤]، وقد حددته بالأميال تطمينًا وإيناسًا لسالكيه، وكانت هذه الأميال كما يصفها ياقوت[٥]:« مبنيّة في ارتفاع عشرة أذرع أو قريبًا من ذلك، وغلظها مناسب لطولها»، وعُثر على أميال أموية قديمة، عليها نصّ كتب بالخط الكوفي، به اسم الخليفة عبد الملك بن مروان الذي أمر بعملها، وُجدت في الدَّرب الرابط بين دمشق ومكة[٦].

---

(٤) قدامة بن جعفر: الخراج وصناعة الكتابة ص ٧٧- ١٢٩، تعليق محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد للنشر، بغداد ١٩٨١.

(٥) معجم البلدان ١/ ٦.

(٦) صورتها منشورة في كتاب كريسول: العمارة الإسلامية المبكرة، Creswell, *Early Muslim Architecture* fig35، وقد استمرت الصُّوَى أو علامات الطريق شائعة الاستعمال إلى عصور متأخرة، يذكر الرحالة عبد الله العياشي (ماء الموائد ١/ ١٦٢ ،طبعة حجرية - فاس) في طريقه من عجرود قاصدًا النّابغة، وعدل عن طريق الحاجّ التي فيها المصانع يمينًا :« بأن المصانع سواري مبنيّة في سبخة لا يظهر فيها أثر الطريق، فجعلوا تلك الأعلام المبنية ليستدلّ بها على الطريق، وجعلوا في رؤوس الأبنية حجرًا مستطيلاً خارجًا إلى ناحية الطريق ليستدل بها الماشي ليلاً، وربما علّقوا على بعض الأعلام مصابيحَ بليل، وبين كل عَلَم وعَلَم نحوٌ من فرسخ أو أقل، حتى انتَهَوا بها إلى رأس وادي الرمل. وعلى هذا الطريق يسلك الحاجّ المصري دائمًا، وكذا المغربي، إلا في أوان الحرّ وخوف العَطش، فيعدلون إلى النابغة على طريق المصانع حتى يظهر لنا البحر، وتقترب منّا مدينة السّويس جدًا، حتى يكاد الإنسان أن يتبين من هو بخارجها».

إنّ المدى الإيجابي الواسع الذّي يسمح به النصّ الجغرافي أمرٌ لا مِرْية فيه، سواء كان ذلك في النّصوص الجغرافية ذات الطابع الكوني الشامل لصورة الأرض، أو الخاص برقعة عالم الإسلام القديم، أو الجغرافية البلدانية؛ لأن هذه النّصوص تظل على وَفْرتها أحيانًا ذات إفادات محدودة لا تجيب على كل تساؤلات البحث. ففي الجغرافية البلدانيّة نجد أن مقدمة الخطيب البغدادي عن مدينة بغداد، هي مرتكز معرفتنا بخارطة العاصمة العباسيّة وخططها، ولكن الخطيب كان أكثر انجذابًا للجانب الثقافي المعرفي الذّي خصّص له تسعة أعشار الكتاب، ليفسح فيه لترجمة من ترجم لهم من الذّوات العلميّة التي عرفَتْها المدينة في عصورها المزدهرة. وعلى نهجه سلك ابنُ عساكر الذّي كان أقلّ مادةً وأكثر غموضًا وأسطوريّة، بحيث لم يُحصّل - لتأخّر عصره - على ما يصوّر مدينة دمشق في عصر بني أميّة ويصنع صورتها القديمة وتحوّلات عمرانها، ويصف مؤسساتها الدينيّة والعلميّة والاجتماعية كما صنع بعد ذلك موثّق عمران مصر الفذّ أحمد المقريزيّ في خططه «المواعظ والاعتبار».

إنّ هذه الفجوات الحادّة التي تشترك فيها أكثر النّصوص قدمًا ورواجًا ووثاقةً، أدركها القدماءُ أنفسهم، وأبرزوا خلل نتائجها بوضوح، فقد كتب ياقوت الحموي في مقدمة معجمه

الشامل المنَّظم للبلدان، بعد أن بسط عذرَهُ بأدب علماء المسلمين في التواضع وإنكار الذات، والاستعاذة من مزالق الغرور، فذكر جهد من تقدّم من جغرافيي اليونان الذين كتبوا في جغرافية العمران، مثل فيثاغورس وبطلميوس، وأنّه وقف لهم منها على تصانيف عدّة، جُهِل أكثر الأماكن التي ذُكرت فيها وأَبْهَمَ عليه أمرُها وعُدم، لتطاول الزمان، فأصبحت لا تعرف.

وأن طبقة أخرى من علماء المسلمين، سلكوا قريبًا من طريقة أولئك من ذكر البلاد والممالك، وعينوا مسافة الطرق والمسالك، وعدّدهم واحدًا واحدًا ثم عقب فقال[٧]: «وأمّا هذه الطبقة فإنّها وإن وُجدت لها أصولٌ مضبوطة، وبخطوط العلماء منوطة مربوطة، فإنّها غير مرتّبة، ولشفاء الغليل غير مسبّبة، لشدّة الاختصار، وعدم الانتشار، لأن قصدَهم منها تصحيحُ الألفاظ، لا الإبانةَ عمّا عدا ذلك من الأغراض، والبحثَ عمّا يعترضُ فيها من الأعراض».

وعلى هذا فقد كان من المآخذ عليهم، اختلالُ الترتيب، وشدّةُ الاختصار، وعدمُ الضبط للحقائق، والتقصير في التمدّد على مختلف الجوانب التي تتصل بالأرض وما عليها من حياة. وهذه مآخذ مدركة لفهم معنى الجغرافيا وما ينبغي أن تكتب عليه تصانيفُها، لذلك حدّد ياقوت منهج عمله بما يتصور فيه

---

[٧] معجم البلدان ١/ ١١.

التماسك والترتيبَ والإفادة، وبحسب ما تتيحه له المصادر المتوفرة التي لا يتخطاها إلا بمشاهداته المتبصّرة المهمّة.

وعليّ قبل المضيّ فيما أنا بسبيل عرضه من أنظار، أن أنبّه على حقيقة، هي أن أكثر كتب التراث الجغرافي وصلتنا في نسخة واحدة أو نسخ قليلة، ولم تصلنا من المدونات الكبرى نسخة تامة مترابطة الأجزاء، مثل كتاب معجم البلدان لياقوت، ونزهة المشتاق للإدريسيّ، وإنّما سَلِمت منها قطعٌ متفرقة، أزمنَةُ نَسْخها متباعدة، ووثاقتُها مُتفاوتَة، جُمع من بينها النصّ المنشور؛ وإذا كان الإدريسيّ محظوظًا بأن بقيَ نصُّه على عِلاته كاملاً، فإنّ مسالك البكريّ وصل مبتور الرأس فنُشر بغير مقدّمة مؤلّفه. وهذا يعني أنّ العناية بهذا الفنّ الجليل توقّفت عند العرب من أزمنة بعيدة، فلم تُنْتسخ هذه الكتب ولم تُتداول، وأوشكت على الانقراض، وذلك لانصراف الناس عنها، وفتور همّة العلم والبحث والمغامرة الواعية في الأمّة.

وأعود لأذكر على وجه الإيجاز بعضَ الأنظار التي رأيت تسجيلها على النصّ الجغرافي التّراثي، وأستمدّ الشواهدَ من أقرب الموضوعات التي ألِفتُها واندمجتُ في تفاصيلها، وأعني بذلك ما يتصل منها بإفريقية الإسلامية،

وأُسمّي النظر الأول:

طبقات النصّ، ذلك أن في نصوص الجغرافيا التاريخية عامة وجغرافية البلدان الوصفية بوجه أخصّ، كما في الحفريات الأثرية، أثرُ فعل الزمن وما يضيفه من طبقات تتراكب فوق بعضها، ومن مخلفات تُحفَظ في رُكامها، وتدلُّ على عصرها المغاير لما تقدّمه. وهذا النمط من الجغرافية الوصفية البشرية في الأصل تقرير ضابط للمكان، يتجه للمدينة أو القرية أو المَعْلَم التاريخي، فيتحدث عن العُمران والناس، ويشير إلى الازدهار والرخاء والأسعار والموارد الذاتية والمتدفقة من الأطراف، وينتزع النماذج الحيّة التي شاهدها أو حُدِّث بها، ويذكر المسالك الرابطة بين المكان وما حولَه، ومن هذا التقديم الوصفي تتكوّن صورةُ الموقع الثابت وحياتُه متصلةً بالزمان الذي كُتب فيه النصّ. على أننا عند تدقيق التأمل في بعض النّصوص السائرة المألوفة في ضوء نقد داخلي صارم، نقف على الإضافات التي طرأت في عصور لاحقة، واندرجت في صلب النصّ على أنّها منه. نَذْكر للتمثيل على هذا نَصّـًا للرحالة الجغرافيّ أبي القاسم بن حَوْقل النّصيبيّ، الذّي أدرك فيما اطلع عليه من تراث من تقدمَه من الجغرافيين، «تباينَهم في المذاهب والطرائق، وكميّة وقوع ذلك في الهمم والرسوم، والمعارف والعلوم، والخصوص والعموم»، ولم يجد فيما قرأ في المسالك «كتابًا مقنعًا، وما رأى فيها رسمًا متّبعًا»[8].

---

[8] صورة الأرض ٣ .

وأوردُ هذا النصّ الممثّل للطبقات النصيّة، ما تضمنت «صورة الأرض» المنشورة من حديث عن مدينة المهدية الفاطمية، التي زارها ابن حوقل سنة ٣٣٦هـ، يذكر[٩]:

(أ)

«أدركتُها سنة ستّ وثلاثين، وملوكُها
كُماة، وجيوشها حُماة، وتجّارها طُراة».

(ب)

«وقد اختلّت أحوالُها، والتاثتْ أعمالُها،
وانتقل عنها رجالُها بانتقال ملوكها عنها
وبعدهم منها. وكان أولَ نحس أظلَّها
أبو يزيد مِخلد بن كَيداد وخروجُه بالمغرب
على أهلها؛ وانثالت المناحس عليها إلى
الآن، وقد بقي بها بعض رمق».

(أ)

«وانتقل عنها رجالُها بانتقال المنصور
عليه السلام عنها، وبُعْده عنها، وسكناه
بالمنصورية من ظَهْر القيروان، وذلك لما
دهمه من أبي يزيد مِخْلَد بن كَيداد وقصْده....»

---

[٩] المصدر نفسه ٧١ .

إنّ هذه الفقرة الناشزة «ب» أُدرجت إضافة بين سطور النصّ الأصلي بعد القرن الخامس الهجري، أي بعد حوالي قرنين من كتابة نصّ ابن حوقل، فقد كان ابن حوقل الفاطميّ الشيعيّ فيما يذكر، يتحدث بانبْهار عن خلفاء المهديّة وعن جيوشها وتجّارها عندما أدركها سنة ٣٣٦هـ؛ ثم يتحوّل النصّ فجأة إلى اتجاه مغاير، ليذكر « أن المناحس انثالت عليها إلى الآن وقد بقي بها بعض رمق » وهذه الصورة البائسة للمدينة وُصفت بها فعلاً آخر أيام دولة صنهاجة في القرن السادس الهجري، عندما أصبحت مهدّدة بنُرْمان صقليّة الذين حاصروها مَرات، أشهرُها وَقعة حصارِ الدّيماس التي استفادت في استراتيجيتها ممّا سجله الإدريسي[١٠] لتحصينات وقصور المرابطة على سواحل المنطقة؛ ووصف المعركة الرحالة التِّجاني[١١] بدقّة مراحلها يومًا بيوم؛ وسجّلها الشاعر الصقلّي ابنُ حمديس في قصيدة رائية فذّة.

إنّ هذا النّص المُقْحم هو - فيما أرى- تعليقٌ كتبه أحدهم ممّن عاصر ما صارت إليه عاصمةُ الفواطم بعد عزّها ومنعتها، وقرأ

---

[١٠] نزهة المشتاق ١/ ٣٠٣.

[١١] انظر تفصيل بيان معركة الديماس سنة ٥١٧هـ بين أسطول روجر الصقلي والحسن بن علي بن يحيى الصنهاجي في رحلة التجاني ٣٣٥- (تونس ١٩٥٨م)، ووصف الشاعر عبد الجبار بن حمديس للمعركة في قصيدته التي مدح بها الأمير الحسن بن علي. الديوان ٢٥٢ ، نشر إحسان عباس، دار صادر ± بيروت ١٩٦٠.

ما كتبه ابن حوقل فسجّل تعليقه في الحاشية للاعتبار، ثم جاء من نَسَخ عن تلك النسخة، فظنّ فقرة التعليق مُخرجًا متّصلاً بالمَتْن فأدرجه فيه، ولم يلحظ أن النصّ يُنَوّه بالمدينة وكاتبَه معاصرٌ لازدهارها، وأن اسم أبي يزيد جاء تفصيل خبره فيما يلي من النصّ، في سياق يشير إلى خطورة موقع المهديّة الذّي عزَل عاصمة الدولة أثناء الحصار، ففقدت المدَد، لولا نجدةٌ بحريّة أدركتها؛ وكأنّما كان الخليفة الفاطمي الثاني القائم بن المهدي ينظر إلى انقطاع العاصمة الجديدة في ظروف الحصار، فقاس مواضع كثيرة أراد البناء بها واتخاذها قصبة للدولة[١٢]. ولذلك بنى ابنه الخليفة المنصور صبرة المنصورية وانتقل إليها، ولكن المهدية بقيت في أيامهم مقرّ خزائن الدّولة التي يقوم عليها الأستاذ جوذر[١٣]، واستمرّ عمرانُها بعدهم إلى أن انتقل إليها من صَبْرة والقيروان أمراءُ صنْهاجة، عندما هدّدت الزّحفة الهلاليّة استقرارَ إفريقيّة.

وقد وصف المهديّة بعدَ ابن حوقل بنحو قَرْن محمّد بن أحمد المَقْدسيّ البشاريّ[١٤]، وهي لا تزال على وَضْعها الذّي أسّست عليه، فذكر «أنّها خزانة القَيْروان، ومطرح صقلّية

---

[١٢] القاضي النعمان بن محمد: المجالس والمسايرات ٣٢٣ (تحقيق إ. شبّوح وآخرين)، تونس ١٩٧٨.

[١٣] منصور العزيزي: سيرة الأستاذ جوذر ٣٩، ٥٢، ٥٣- تحقيق محمد كامل حسين، عبد الهادي شعيرة، مصر ١٩٥٤ .

[١٤] أحسن التقاسيم ٢٢٦.

ومصر، عامرة آهلة، ومن أحبّ أن ينظر إلى القسطنطينية فلْينظر إليها ولا يتعنّى إلى بلد الروم».

ومن هذا النمط من التّداخل والتراكب، ما نجده في متن كتاب ابن حوقل نفسه، وتنبّه إليه النّاشر فعزله بحروف أَصْغر، حديثه عن مدينة تفْليس التي أجاد وصفها على إيجاز نصّه، إذ يذكر إضافة مطوّلة تقول في سياق النصّ: «والآن فهي بيد الكرج، أخذوها في العشر الآخر من سنتيْ خمسمائة، وملك الكرج مع كُفره يراعي أهلها»، فهذه كتلك، وابن حوقل مات حوالي سنة ٣٦٧هـ.

ومن النماذج أيضًا ما جاء في مَتْن نزهة الإدريسيّ[(١٥)] يحدّد «من قرطاجنّة إلى مدينة مجّانة مرحلتان حقيقيتان» وإلى جانبها: «بل هي مرحلة كبيرة»، ولم يشر محققو الكتاب إلى هذا التدخّل وانفصاله عن النصّ.

وإذا كان من بين هذه النّصوص المُقْحمة ما هو متضّح ومفتضِحٌ بفضل ذكر التواريخ، أو ما هو مقترح للتصحيح بفضل أدوات الاستدراك، فإنّ المندسّ والمعمّى منها يحتاج إلى قراءة واعية متأنية وتمييز.

٢- ونظرٌ آخرٌ عن أوهام قديمة حول الأماكنية الخاصة بأسماء المدن وأصولها، يحتاج دارس النصّ الجغرافيّ إلى

---

(١٥) المصدر المتقدم ١/ ٢٩٣.

تفكيكه على صعوبته، هو أن هذه النّصوص شاع فيها قديمًا أخطاء في التّسميات نتيجة التّصحيف في قراءة النّسخ المعتمدة ونتيجة فعل النسّاخ، فترسّخت تلك الأسماء المصحّفة والمحرّفة، واعتمدها الناس ثقة بمصدرها الموثوق به في المعرفة البلدانية.

ومعيار نقد أسماء المواقع هو معرفة أصل التسميات السابقة عن الإسلام إن وُجدت. وقد غطّت دراساتها الحديثة مساحات شاسعة من ممالك العالم القديم، ونعرف أن المسلمين كانوا أهل إنصاف في كتاباتهم، فلم يدّعوا تأسيس موقع لم يؤسّسوه، وكثيرًا ما نجد في التعريفات البلدانية جملة «أنّها مدينة للأوَل» أو «أنّها مدينة جاهلية» أو «قديمة أزليّة»[١٦].

ومن الأمثلة على التّحريف القديم المعتمد والمنتشر والمتوافر في كتب الجغرافيا والتاريخ، أن مدينة تونس تسمّى «ترشيش»، ثم أصبحت بعد عمرانها الإسلامي تُدعى «تونس»[١٧] اشتقاقًا من الأنس.

ومثل هذا اللّون من التّصحيف والتّحريف، ما يذكر البكري عندما يعدّد أبواب مدينة تونس «باب أرطه»[١٨] ولا وجه

(١٦) المقدسي ٢٢٨؛ الإدريسي ١/ ٢٨٥.

(١٧) البكري ٢/ ٦٩٣، ٦٩٥، ٦٩٨؛ الإدريسي ١/ ٢٨٥ .

(١٨) البكري ٢/ ٦٩٧ .

له، فالأبواب تسمّى بوجهتها من المدن العامرة غالبًا، وقد بقي هذا الاسم منقفلاً لا تُعرف دلالته.

والوجه عندي في هاتين التسميتين المهمّتين، أنّهما نتيجة خطأ قديم منذ بدايات التصنيف الجغرافي البلداني، فمدينة تونس كانت قرية عامرة تقوم في قعر البحيرة في الجنوب الشرقي من قرطاجنّة، وكان اسمها في العهد البيزنطي تونيس، ولا شك أنّ المصادر القديمة كتبتها كذلك مهملة بلا نقط، كما نلاحظ في مخطوط الاصطخريّ المصوّر المطبوع، وعندما نقلها الناسخ اشتبهت عليه الواو بعد التاء بالراء، ثم قَسَّم أسنان الحروف التالية المهملة وعدّل فيها بالزيادة قصد الإصلاح والتقويم، وربّما كان هذا القارىء من نَصارى عرب المشرق، فقرأها من مخزونه «ترشيش»، وهو من الأسماء التوراتية المتردّدة في نصوص العهد القديم، فانتشر الاسم وتركز وأصبح كالحقيقة.

أمّا باب أرطة فأمره و«ترشيش» واحد، فهذا الاسم في الأصل بعد تعديله اسم لمدينة رومانية في الاتجاه الجنوبي الغربي نحو جبل زغوان، تعرف باسم «أذنة» فصحفت الذال إلى راء، وصحفت النون إلى تاء، ثم فخّمت إلى طاء لتصبح « أرطة» بدل أذنة. ومثله ممّا تقلب فيه الراء واوًا والعكس ذكْرُ البكري لمحرس بُطريّة حول صفاقس باسم محرس بطويّة.

وعلى هذا السياق نفسه من التصحيف والتّحريف الشائعين قراءةُ M.J.De Goeje لنصّ ابن خُرْداذبة[١٩] من أنّ «القيروان مدينة المخالي» «وهي مدينة إفريقية» هكذا قرأها بأمانة، ولو نظر في التصانيف المشابهة للجغرافيين الذين نشرت أعمالهم لوجد اليعقوبيّ يذكر «أن شرب أهل القيروان من ماء المطر، فإذا كان الشتاء ووقعت الأمطار والسّيول دخلَ ماء المطر في الأَوْدية إلى بِرَكٍ عظام يقال لها المواجل»[٢٠]؛ وفَصّل البكريّ والإدريسيّ وصف الماجل الكبير وأن شرب أهلها منه[٢١]؛ فالتحريف إذن في نصّ ابن خُرداذبة إلى «المخالى»، بدأ من جمع خاطئ لكلمة ماجِل إلى مجالي بدل مواجل، ثم صُحّفت إلى مخالي.

ومن التّصحيف والتّحريف المبعد عن القصد، ما ورد في نشرة « نزهة المشتاق»[٢٢] معتمدًا في المتن: ومن جلولة «إلى أحرى مرحلة».

وجاءت عند البكريّ[٢٣] صحيحه في كل نشراته «ومن القيروان إلى جلولة، ومنها إلى أَجَّر موضع وَعْر.مأسَدَة لا يكاد

---

(١٩) المسالك والممالك ٨٧ .

(٢٠) كتاب البلدان ٣٤٨ .

(٢١) نزهة المشتاق ١/ ٢٨٤؛ المسالك والممالك ٢/ ٦٧٧ "١١٣٣".

(٢٢) الإدريسي ١/ ١٩٥ وأثبتتْ هكذا في فهارس الكتاب.

(٢٣) المسالك ٢/ ٧١٦ .

يخلو من أسد، دائم الريح العاصفة، ولذلك يقولون: إذا جئت أجَّر فعجّر، فإنّ فيه أسدًا يَفْري، وحجرًا يبري، وريحًا تذري» واسمها اللاتيني Aggar .

ومن هذه التحريفات الأماكينية المُرْبكة أنّ موقع دار الإمارة بالقيروان اتُّخِذَ بعد رَدْمه رَحْبَة لطَمْر الحبوب في مطامير كبيرة، وقد قمْت بالكَشْف عن أَكْثرها في حفريّة في الموقع (موقع دار الإمارة) سنة ١٩٧٥م، وعُرف الموقع بعد ذلك برحبة الطّمر، مِنْ طمَر الشيءَ إذا دَفَنه أو خَبَّأه، وفي نصّ المؤرخ إبراهيم الرقيّق القيروانيّ[٢٤] صُحِّفَ المكان إلى رَحْبَة التَّمْر، وفي النشرة الحديثة لجغرافية البكريّ[٢٥] سمّيت برحبة الثمر. والإفادة التاريخية المستمدّة من هذه المغايرة كما نرى تختلف من تسمية إلى أخرى. وقائمة هذا النّمط من المآخذ لا تنتهي.

٣- ونَظرٌ آخر يستوقف الدارس ويعدّل من أحكامه فيُطلقها أو يقيّدهَا، عندما يُفَصّل بين أولئك الجغرافيين الذين غامروا وساروا في الأرض على بصيرة ﴿يتَفَكَّرونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [آل عمران، الآية ١٩١].

وينظرون في جوامع ما فصّلته الآية، فيكتبون عن معاينة ومشاهدة وتمحيص، ويقدّمون تصوّرهم على الطريقة التي

---

[٢٤] تاريخ إفريقية والمغرب، نشر المنجي الكعبي، تونس ١٩٦٨ .

[٢٥] المسالك ٢/ ٢٧٤ .

يذكرها ياقوت[٢٦] عند الرؤية المؤكدة، فيقول عن البلد: «رأيت أطرافها وعاينتُ جبالها، ولا بدَّ من احتمالك لفصل فيه تطويلٌ بالفائدة الباردة، فهذا من عندنا ممّا استفدناه بالمشاهدة والمشافهة» ويكتبون عن تأمل وتركيب لحصيلة المعلومات المتبصّرة، كما يذكر أبو الريحان البيرونيّ[٢٧] عندما يلاحظ «أنّ البحر ينتقل إلى البرّ، والبرّ إلى البحر في أزمنة إن كانت قبل كون الناس في العالم فغير معلومة، وإن كانت بعده فغير محفوظة، لأنّ الأخبار تنقطع إذا طال عليها الأمد، وخاصة في الأجزاء الكائنة جزءًا أبعد من جزء، وبحيث لا يفطن لها إلا الخواص. فهذه بادية العرب وقد كانت بحرًا فانكبس، حتّى إنّ آثار ذلك ظاهرةٌ عند حفر الآبار والحِياض بها، فإنّها تبدي أطباقًا من تراب ورمال رَضْراضٍ، ثم يوجد فيها من الخزف والزجاج والعظام ما يمتنع أن يحمل على دفن قاصدٍ إياها هناك، بل يخرج منها أحجار إن كسرت كانت مُشتملة على أصداف وودع وما يسمّى آذان السمك، إمّا باقية فيها على حالها، وإمّا بالية قد تلاشت وبقي مكانها خلاءً متشكلاً بشكلها؛ كما

---

[٢٦] معجم البلدان ٤/ ١٣ .

[٢٧] تحديد نهاية الأماكن، لتصحيح مسافات المساكن ٢٤- ٢٥، تحقيق ب. يولجاكوف، مراجعة إبراهيم أحمد، مجلة معهد المخطوطات العربيّة، المجلد الثامن بجزأيه، مايو- نوفمبر ١٩٦٢).

يوجد مثله بباب الأبواب على ساحل بحر الخزَر، ثم لا يُذكر لذلك وقت معلوم ولا تاريخ البتّة». وهذا من أبي الريحان البيروني فكرٌ بصير متقدّم غير مستغرب عليه وعلى غيره من أصحاب الجغرافيا الرياضية والرصد الفلكي المتصل بها.

وبين تلك الطبقة الأخرى من منتحلي الجغرافيا الذين واتروا النقل عن بعضهم، ولم يبرحوا ديارَهم، فلم تسندهم مشاهدة وتصريفُ فكر ونَفْس، وإنّما كتبوا بالنقول عن بعضهم مع التغيير والزيادة والاختصار، فجاءت بياناتهم قاصرة لا تغني ولا تضيف للمعرفة جديدًا ؛ ففيما عدا قلّة من جغرافيي الجانب الغربي من الأندلس وصقلّية والقيروان، إضافة إلى اليعقوبيّ وابن حوقل والمقدسيّ، فإنّ جغرافية الغرب الإسلامي جاءت باهتة مرتبكة عند المشارقة في أعمالهم، فهذا ابن خُرْداذبة[٢٨] يقفز هذا القفز العجيب عندما يقول: « وبين تونس وبين برّ الأندلس عرض البحر، وهو هناك ستّة فراسخ؛ ثم إلى قرطبة مدينة الأندلس مسيرة خمسة أيام»؛ وبعد مدّة قصيرة قد لا تزيد عن الثلاثين عامًا، نقل ابنُ الفقيه[٢٩] هذا النصّ نفسَه بتعديل بسيط، تجاوز فيه البحر كأن لم يكن، فقال: « ومن مدينة تونس إلى الأندلس ستةّ فراسخ، وإلى قرطبة مدينة

---

[٢٨] المسالك ٨٧.

[٢٩] مختصر كتاب البلدان ٧٩.

الأندلس مسيرة خمسة أيام». وإذا أخذنا بتعريف ياقوت للفرس بأنّه ثلاثة أميال، بمعنى أن عرض البحر المتوسط ١٨ مي (٦x٣)، فأين تجدنا ؟!.

والحقيقة أن مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه، مث سابقه، تنكمش فيه أوصاف بلدان المغرب. وأكثر معلوما مبتورة وضعيفة، بل ومضلّلة، وقد انتقده المقدسيّ[٣٠] « بأن أدخل في كتابه ما لا يليق به من العلوم» واعتبره كتابَ أخب وحكايات وليس مصنّفًا جغرافيًا[٣١]، وأنّه مفتقر إلى خطة يس عليها.

٤- ونظر آخر يحتاج إلى وقفة مع أكثر الجغرافيين فقد اعتمدوا حساب المسافات «بالمرحلة»، والمرحلةُ مسيرةُ ي إلى وقت الظهيرة، حيث ينبغي الحطّ عن الراحلة. وقد جاءت أكثر التصانيف معمّاةً غير واضحة، فابنُ خُرْداذبة[٣٢] يذكر «بين تونس وإفريقية مرحلتين على البغال»؛ وينقلها عنه اب الفقيه[٣٣]؛ ويذكر الإدريسيّ[٣٤] المراحل الخفيفة والمراح

---

[٣٠] أحسن التقاسيم.

[٣١] كراتشكوفسكي: المرجع السابق ١٦٣.

[٣٢] المسالك ٨٧ .

[٣٣] المصدر السابق ٧٩ .

[٣٤] المصدر السابق ١/ ٢٩٣ .

الكبيرة، وتصوّر كتب الرّحلة المراحلَ بأكْثر وضوح مقرونة بذكر ما يُسْلك، ممّا يحدّد الإحداثيات إن عُرفت، كما فعل التجاني"[٣٥]. وقد قام أحد زملائنا الأثريّين[٣٦] بدراسة معنى المرحلة على ضوء حساب المسافات من خلال النّصوص، فاتضح له أن المرحلةَ ليست مسافةً ثابتة، وإنّما هي إمكانٌ واستطاعة بحسب طبيعة الموقع والوسيلة إليه، فقد تَعْني العشرين ميلاً، وقد تعني الميل الواحد من الصّعاب والشّعاب والشّعْراء.

ويشير قدامة بن جعفر[٣٧] إلى الطريق العادل والعادلة؛ فهل هي على معنى: عدَل الطريق إلى مكان كذا إذا مال، فإن أرادوا الاعوجاج، قالوا: انعدَل في مكان كذا[٣٨]. وكلّها مصطلحات لم تؤخذ بعد في الاعتبار فيما أعلم.

٥- ونظرٌ آخر نتبيّنه كلّما نَزَّلنا الثوابت التاريخية الباقية على النصّ الجغرافي للمقارنة؛ فعندما يصف النصّ الجغرافي- وهو يتحدث عن التجمعات البشريّة في مدنها وقراها- معلمًا تاريخيًا ثابتًا باقيًا إلى اليوم، ونتابع معه تطابق البيانات مع الموصوف بعد استبعاد الطوارىء التي حدثت فيه

---

(٣٥) الرحلة، نشرها ح. ح. عبد الوهاب - وزارة الثقافة- تونس١٩٥٨.

(٣٦) A.Gragueb *Notes sur le voyage de Tijani dans le sud Tunisien,* Cahiers de de Tunisie TXXiV pp. 25-44, 1976.

(٣٧) نبذة من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ٢٢٧- ٢٢٩.

(٣٨) ابن سيده: المخصص ١٢/ ٤٦.

وأضيفت إليه خلال التّاريخ الفاصل بيننا وبين عصر النصّ، نتأكّد في الغالب من:

قصورُ البيان الفنيّ الوصفي في أكثر النّصوص، ووقوفها عند التعميمات المنبهرة التي لا تَصنع تصورًا دقيقًا للموصوف، يمكّن من استعادة صورته من خلال ذلك النصّ، مع اقتضاب الكلام وخلوّه من التفاصيل المهمّة.

ونتأكد أيضًا من ارتباك النصّ الوصفي في المطابقة، إمّا لاختلال ذاكرة السّامع وهو يتلقّى الوصف من غيره، فتتداخل عنده الحقائق وتشتبه، ويسجّلها كما استقرت في ذهنه، أو جاء ذلك لإسقاط الناسخ فقرة أو جملة تفوته، ثم يستدركها في غير موضعها في الحاشية. من أمثلة ذلك ما يذكره الإدريسي[٣٩] - رغم دِقّتِهِ ووضوح بيانه - من أنّ «شرب أَهْل القيروان من الماجل الكبير الذي بها. وهذا الماجل من عجيب البناء لأنه مبني على تربيع، وفي وسطه بناء قائم كالصومعة، ذرع كلّ وجه منه مائتا ذراع». والمطابقة مع الأصل واضحة في أن الماجل مبني على تدوير وليس على تربيع، وأن مقاسات الصومعة ووصفها غير صحيح، فقد يكون سجّل هذا الوصفَ مشافهة من أحدهم ممن لم يُعر التفاصيل الوصفية اهتمامًا مناسبًا؛ ولولا بقاء هذا المعلم

---

[٣٩] ابن سيده: المخصص ١/ ٢٨٤.

التاريخي الفريد «الماجل الكبير» إلى اليوم، لأصبح نصّ الإدريسي هو الوثيقة الباقية!

وأهم من هذا ما جاء في نَشْرة مسالك البكريّ(٤٠) من أنّ مدينة سوسة « قد أحاط بها البحر من ثلاث نواحٍ، الشمالِ والجنوبِ والشرقِ».« وسورها صخر منيع .. يضرب فيه البحر». ونقل الوطواط(٤١) عنه هذا التعريف. وصوابه: أنّ سوسة قائمة في خليج يطلّ على البحر من الجانب الشرقي فحسب، وأنّ الوصف الذّي ذكره هو وصف المهديّة القريبة منها في الجنوب، والمنفتحة على البحر من جهاتها الثلاث، ويتصل سورها بالماء(٤٢). وقد يكون ممّا يُفترض لنشأة هذا الخبر، أنّ الوصف المنطبق على المهديّة قَدْ سَهَا عنه الناسخ ثم أُقْحِمَ في الحاشية، وعندما انتُسخت نسخة جديدة أخطأ الناسخ في ربط الفقرة بمدينة سوسة فالتصقت بها.

وفي وصف محمد بن أبي بكر الزّهريّ(٤٣) لجامع الزيتونة بتونس، يذكر أن « فيه صحن عظيم أبيض، من شرقيه صحن

---

(٤٠) المسالك ٢/ ٦٨٨.

(٤١) مناهج الفِكَر ومباهج العِبر ١:٣٧١ مخطوط مصوّر، نشره د. فؤاد سزكين، معهد تاريخ العلوم فرانكفورت ١٩٩٠.

(٤٢) البكري ٢/ ٦٨٢.

(٤٣) كتاب الجغرافيا ١٠٨ تحقيق محمد حاج صادق، دمشق ١٩٦٨.

آخر فيه ثلاث جباب من الرّخام المجزع برسم ماء المطر، وفي شرقيّ الجامع الصحن المفروش بالرّخام الأبيض» .

وهذا الوصف على صورته هذه مُغايرٌ لواقع الحال، ويستقيم بغير إضافة، ولكن بإعادة ترتيب كلماته، ليصبح: «وفيه صحن عظيم أبيض [من الرّخام المجزّع] فيه ثلاث جباب [برسم ماء المطر] وفي شرقي الجامع الصحن المفروش بالرّخام الأبيض». وربما انْجرَّ هذا من ذهول الناسخ أثناء الكتابة وشرود ذهنه، فتنقّل بصره في السطور، والتقط كلمات بدون وعي ولم يقابل ولم يتنبّه.

٦- ومن الأنظار أن نشير إلى أن البيانات الجغرافية من تراثنا ليست وحدها المادة التي نستعيد من خلالها صورة العمران والمدن والمسالك وحياة الناس، فالجغرافية الطبيعية والبشرية والبلْدانية ممتدّة خاصة في كتب الرحلة المغاربيّة والأندلسيّة أيّ امتداد. لقد اهتمت هذه المصادر بالجانب الثّقافي فترجمت للعلماء وما أُخذ عنهم من المعرفة، وصوّرتهم تصويرًا حيّاً في حدود الثقافة التي اصطبغوا بها؛ ولكن ما عنيَ منها بالمسالك والمراحل ووصف المدن وربطها بحياة الناس جاء بإفادات ثمينة ومفيدة لدراسة الحياة الإنسانية وعلاقتها بالمحيط. وقد قدّمت كتب الرحلة ودعّمت جغرافيةَ المشاهدة والتوثيق المباشر للمسالك والمراحل، والزمنَ الحقيقيّ لقطعها حطًّا وإقلاعًا، وصفَةَ الأرض

ومياهها وعلاقتها بالعمران، على قاعدة البيرونيّ[٤٤] الذي يذكر« أن العمارة متنقّلة بسبب انتقال الماء لأنها تابعة له». وصوَّر هؤلاء الرحالة المدنَ خير تصوير بحياة ناسها ومواردهم وصفة بُنيانهم، مثل ابن جُبير وابن بَطّوطة والعَبْدريّ. وقدم بعضُها ما كشف الغوامضَ التي طرحتها كتب الجغرافيا، أو وضّح ما أجملتْه، واستكمل ما أهملته؛ نشير خاصة إلى رحلة التّجيبيّ[٤٥]، التي يصفُ فيها بتفصيلٍ دقيق مُدُنًا وقُرىً مصريّة زارها في الصعيد الأعْلى، مثل منية ابن خصيب، وأَسْيوط، وإخْميم، وقوص، وفي هذه الرّحلة نجد أدقّ وصفٍ في التراث الجغرافي عن الطّريق الوعرة الرابطة بين قوص وعَيْذاب - وهذا أحد دَرْبَي الحجّ المغربي- ويذكر ما فيها من مراحل بأسماء مواقعها، وما يوجد بها من مرافق. ومن بين ما يُفيدنا به التّجيبيّ حلّ اللّغز الذي كَثُر فيه الجدل حول ما عُرِف في التّاريخ بتجارة الكارِم، التي تردد ذكرُها في المصادر اليمنيّة كتاريخ زبيد وكتاب المستبصر لابن المجاور الذي اهتم بالحديث عن الخفارة البحرية التي تحمي سفن هذه التجارة المقلعة من ميناء عَدن إلى عَيْذاب، وجاءت أخبارهم في وثائق الجّنيزة التي تحدّثت عن اتجارِهم ببضائع الهند والشرق

---

[٤٤] البيروني: المصدر المتقدم ٥.

[٤٥] القاسم بن يوسف التجيبي (- ٧٣٠هـ/١٣٢٩م): مستفاد الرحلة والاغتراب، جزء مخطوط بدار الكتب التونسية رقمه ١٠٥٠٣، انظر عنه: إبراهيم شبّوح: المخطوط ص٥٦، تونس، ١٩٨٩، وقد نُشِر.

الأقصى، وقد سمّاهم التّجيبي الأكارم جمع كَريم، صفة تمجيديّة لطبقة من أهل اليمن والهند المشتغلين بالتجارة البعيدة، نشأت في العصر الفاطمي واستمرّت، ولا زال اليمنيون يُطلقون إلى اليوم اسم المكارمة على إسماعيلية حَراز.

وقد ذكر التّجيبيّ[٤٦] عن مدينة عَيْذاب على البحر الأحمر «أنَّ بها دورًا مجصّصة ابتناها التّجار المدعوون بالأكارم، لينزلوا بها إذا وصلوا من عدن إليها أو من قوص أو من غيرها من البلاد» وعندما وصل التّجيبيّ[٤٧] إلى قوص، ذكر أن نزول الرّكب «كان بالخان الكبير المعروف بالفندق المكرّم، وبه ينزل التّجار المدعوون بالأكارم... وما رأينا قطّ خانًا أكبر منه، وهو نوع حصن، وكل نوع من مساكنه مُستقلّ بنفسه غير محتاج إلى غيره».

❖ ❖ ❖

هذه أنظار متفرقة أو ملاحظات، أردت بعرضها أن أشير أولاً إلى أن الاستشراق الأوربي قدّر منذ البداية مَيْزات الأدب الجغرافي العربيّ الإسلاميّ، وأقبل عليه محققًا ودارسًا، فنشر مجتهدًا نصوصَه بحسب ما أسعفت به المخطوطات النّادرة

---

[٤٦] مخطوط الرحلة ٨٩ ب.

[٤٧] المصدر نفسه ٧٥ ب.

المحدودة العدد، ودرسها بجهد كبير موصول أثمر مكتبةً كبيرة من النّصوص والأبحاث. وقد جمَع هذه المادَّة من نصوص ودراسات صدرت بلغات مختلفة معهدُ تاريخ العلوم العربية الإسلامية في فرانكفورت، بعناية العلاّمة المجدّ د. فؤاد سزكين، وطبعها في مئات الأجزاء التي تؤكّد عناية الاستشراق البالغة ومَدى اهتمامه بهذا المجال المعرفيّ، الذي أصبح موفّرًا للباحثين بكلّ نوادره.

ولكن النّصوص المحقّقة المنشورة على أهميتها الجغرافية والأثنوغرافية والأماكنيّة والأدبيّة، أشاعت أخطاء التّحريف الكامنة في نسخها، وكرّرت نَفْسها إلا عند المرتادين كما أشرت، وأصبحتْ بعد تطاول العهد على نَشْرها المبكّر بحاجة إلى إعادة نظر في ضوء أدوات البحث الحديث وما كُشف عنه من مخطوطات جديدة، وما نشر من خرائط دقيقة مفصلة تساعد على حلّ المشكلات.

ولنا أن نتساءل: هل توجد في البلاد العربية جهودٌ بحثيّة لتحرير المواقع والأسماء التاريخية الواردة في مصادرنا الجغرافية وتحديدها، والإفادة من كل ما كُتب عنها بالقدر الذي يسمح بوضع أطلس تاريخي شامل دقيق لمحصّلة هذه الجغرافيا وما تكشف عنه من موارد واراها النّسيان، مع تمييز النّصوص الأصيلة من تلك المعادة بالنّقل الأصمّ، وذلك ممّا يسمح أيضًا

بتقديم نَشرات جديدة تخطو متقدمةً بالنّص، موضّحةً إبهامه الذي توقّف عليه.

إنّ هذا الاتجاه في مَجال البحث الجغرافي التاريخي لم يتقدم كثيرًا ومتوازيًا إلاّ في مناطق محدودة وغير متوازية في البلاد العربية، لعل من أبرزها جهد الأمير الرحّالة يوسف كمال في نُصوص جغرافية مصر التي جمعها بدءًا من أقدم العهود إلى أَحْدثها، ورتَّبها على المُدن، وأبرز الأسماء باللون الأحمر، وهو عمل كبير فخم أنيق بَقي معزولاً لطبقيّة نوعه النّادر بين الكتب المنشورة، فلم يؤثّر الأثر المطلوب في الدراسات اللاّحقة رغم خطّته المتميزة، وذلك لنُدرة نُسخه المتداولة. ثم ننوّهُ بما حظيت به جزيرة العرب بفَضْل جهد صديقي وأستاذي العلاّمة حمَد الجاسر في كتبه ومجلّته العرب، التي أسّس بها مدرسةً لجغرافية الجزيرة وأَنْسابها وتاريخها، وفيما نشره من النّصوص المتميزة الأصيلة، وما صنعه من معاجم جغرافية قامت على الجمع والتمييز والمشاهدة وتدقيق النّصوص الصعبة من شعر ونثر، وتحويلها إلى إفادات مضبوطة، وهو عمل لا يتاح لغيره بيسْر.

وأشير إلى ما بذله أخي الدارس العالم الأستاذ الدكتور عبد الله الغنيم، الذي ركّز في جامعة الكويت ومجلة كلية آدابها نواةً حيةً وقاعدة صلبة للجغرافيا التاريخية.

ثم ما أسهم به اليمن من نشر نصوص جغرافية إقليمية مهمّة ظهرت محققة بعناية المرحوم محمد علي الأكوع، وأخرى بعناية أخيه العالم الفاضل صديقي القاضي إسماعيل بن علي الأكوع. ثم صدور بعض النّصوص البلدانيّة من كتاب مسالك الأبصار، وإخراج كتاب المواعظ والاعتبار في الخطط والآثار للمقريزي، المنشور نشرًا محققًا جيّداً بعناية الدكتور أيمن فؤاد سيّد الذي أبدى فيه معرفة واسعة بمدينة القاهرة وخططها، مكنته من عرض هذا النصّ المهم على خير وجه. ثم صدور معجم الروض المعطار الذي نشره أستاذنا الدكتور إحسان عبّاس، وهو مفيد رغم ما أبداه من ملاحظات عليه.

وهذه البدايات الفرديّة الموفّقة تدل على إمكان العمل في حقل الجغرافيا التاريخية والتخطيط لها ضمن فرق عمل متعاونة من عرب ومستعربين في اختصاصات متكاملة، تضبط مناهج عملها، وتهيّء المواد والوثائق، وتستخلص النتائج، مستعينةً بكل تقنيات البحث، من خرائط قديمة حافظت على الأسماء، ومستعينة بالأماكنية Toponymie القديمة التي حددتها الكتابات الأثرية السابقة عن الإسلام، وبالصور الجويّة كما نقلتها أقدم بعثات التّصوير، حيث لم يطمس العمرانُ الحديث خطوطَ الأرض وأثر الإنسان عليها.

إن قيام تعاون بينَ فريق جادّ ينتمي إلى مؤسستَيْ بحثٍ أو أكثر، كفيلٌ بأن يدفع النموذج، ويصحّح مسار العلم نحو المناهج الناجعة، ويستمرّ في خطة عمله مدعومًا بالإمكانات التي تستطيع المؤسسات العلمية والهيئات الدّولية أن توفّرها له.

تاريخ الأدبيات الجغرافية في العهد العثماني*

أكمل الدين إحسان أوغلي

تعكس الأدبيات الجغرافية العثمانية الخصائص الرئيسية للعلم العثماني، وهي بذلك تتصف بجوانب مشتركة مع فروع المعرفة الأخرى لنفس الحقبة. وعن هذه الملامح المشتركة، فإن بالإمكان القول إن الأدبيات الجغرافية العثمانية أخذت تتطور مرتكزة على التراث العلمي والثقافي الذي سبق العثمانيين، وإن أدبيات جديدة ازدهرت من خلال إسهامات الأوساط العلمية في المراكز الثقافية الجديدة داخل حدود الإمارة العثمانية الآخذة في التوسع، والتي نمت لتتحول إلى إمبراطورية مترامية الأطراف.

---

* يمكن اعتبار هذا البحث خلاصة لدراسة استطلاعية قام بها الكاتب في كتاب أ. إحسان أوغلي و ر. ششن وآخرون وعنوانه: تاريخ الأدبيات الجغرافية في العهد العثماني، (مجلدان، تحرير أ. إحسان أوغلي، إستانبول ٢٠٠٠). ورغبة في عدم استخدام قوائم طويلة من الهوامش في هذه الدراسة، فقد رؤي ذكر المراجع التي استقر الرأي على كونها ضرورية. ومن أجل الاطلاع على دراسة مجملة للعلوم العثمانية، انظر أ. إحسان أوغلي: تاريخ الدولة العثمانية ومجتمعها وحضارتها History of the Ottoman State, Society and Civilization، مجلد ٢، نشر IRCICA، إستانبول ٢٠٠٢، وعن المؤسسات العلمية انظر ص ٥١٥- ٥٣٧، وعن الأدبيات العلمية انظر ص ٥١٧- ٦٠٣ . وانظر الطبعة العربية لهذا الكتاب (الدولة العثمانية تاريخ وحضارة) من ترجمة صالح سعداوي، طبعة ١٩٩٩ إستانبول.

وعلى العكس من الفروع العلمية الأخرى التي تطورت خلال الفترة ذاتها، فإن الأدبيات الجغرافية العثمانية تدل على أنها أقامت مع الجغرافيا الحديثة الآخذة في التطور في أوربا، اتصالات مبكرة أكثر وثاقة على الصعيدين العملي والنظري.

وكما حاولنا تبيانه في الدراسات السابقة، فإن الموروث التقليدي أو الكلاسيكي والموروث الحديث وُجدا جنباً إلى جنب في فروع المعرفة المتعلقة بعلوم الفلك والرياضيات والطب العثمانية، التي اتخذت منهجاً مشابهاً في تطورها. بيد أن النهج الحديث في مجال الجغرافيا أصبح أكثر بروزاً من النهج التقليدي أو الكلاسيكي، وذلك منذ وقت مبكر يعود إلى القرن السادس عشر الميلادي. وإن أسباب هذا التطور على الأرجح نجمت عن الحقيقة التي مؤداها أن الحاجة إلى المعلومات الحديثة في الجغرافية ورسم الخرائط كانت قد بدأت منذ وقت أبكر وأما فيما يتعلق بالخلفية المؤسسية، وعلى النقيض من فروع المعرفة الأخرى، فإنه لم يكن يتم تعليم الجغرافيا في المعاهد العلمية العثمانية التي تعرف باسم المدارس. وعلى الرغم من أن العلماء الذين تلقوا تعليمهم في المدارس كتبوا مؤلفات تدخل في نطاق تراث الجغرافيا التقليدية، ومع أن أغلب ضروب النشاطات الفكرية والعلمية الأخرى كانت تجري في المدارس، فإن الجغرافيا لم تكن جزءاً من مناهج تلك المدارس. ولعل هذا

يفسر غياب الآلية التي يمكن بها استمرار الأدبيات القديمة وإعادة إنتاجها.

وفي القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين أنشأ العثمانيون أثناء توسع الإمبراطورية العثمانية، قوة بحرية عظيمة في البحر الأبيض المتوسط. وانتشروا في البحر الأسود والبحر الأحمر والخليج الفارسي والمحيط الهندي، وحاربوا الأساطيل الأوربية، وتمكنوا من اكتساب معلومات وطرائق جديدة، من منافسيهم الأوربيين حول الملاحة، في أوائل عهد إمبراطوريتهم.

ومن الصعب التمييز بوضوح بين النهجين الكلاسيكي التقليدي والحديث في الأمثلة الأولى من الأدبيات الجغرافية العثمانية. ومثلما هو الحال في المظاهر الأخرى للثقافة العثمانية، فإن هناك تواجداً للشرق والغرب والقديم والجديد، قد وجد جنباً إلى جنب دائماً بطريقة دقيقة في تعقيدها، وأن الانفصال كان يحدث بين الفينة والفينة في مُددٍ طويلة. وفي حالة الجغرافيا، فإن سيطرة الجغرافيا الأوربية حدثت قبل ذلك، وأصبحت الأدبيات الجغرافية الأوربية الحديثة أكثر تأثيراً ابتداءً من القرن السابع عشر الميلادي فصاعداً.

وقد ساد في الحقبة الكلاسيكية أو التقليدية نوعان من الأدبيات الجغرافية: النوع الأول هو الأدبيات التي كانت جزءاً من التراث الجغرافي الإسلامي الذي تطور ضمن البيئة الثقافية

للمدرسة التقليدية. والنوع الثاني هو الأدبيات التي أنتجها الملاحون والعلماء الذين لم يكونوا مرتبطين بالمدرسة مباشرة، وارتكز في أغلبه على الجغرافيا ورسم الخرائط الأوربية.

ويمكن دراسة الأدب الذي تطور في أوساط المدرسة ضمن فئتين رئيستين: تحتوي الأولى على أعمال حول الجغرافيا العلمية الإسلامية، بينما تتألف الثانية من أعمال تمحورت حول ما يمكن تسميته بالجغرافيا الشعبية.

التراث الهليني الإسلامي:

ورث العثمانيون تراثاً جغرافياً علمياً إسلامياً، خضع بدوره لتأثير من الموروث العلمي الهليني. ويُظْهر الأمر الذي وجهه السلطان محمد الثاني (الفاتح) إلى أميرتُزَس الطرابيزوني (ت٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م) وولده محمد بترجمة كتاب بطلميوس في الجغرافيا إلى العربية اهتمام ذلك السلطان العثماني بالجغرافيا. وهناك نسختان من هذا المؤلف في مكتبة أياصوفيا تحملان رقمي ٢٥٩٦ و ٢٦١٠[1]، ويرد اسم السلطان محمد الثاني في مقدمة

---

[1] قام الأمير المصري يوسف كمال بطبع صورة طبق الأصل لهذه المخطوطة في طبعة محدودة (١٠٠ نسخة) عام ١٩٢٩ ضمن سلسلة Monumenta Cartographica Africae et Aegypti وقام الأستاذ فؤاد سزكين بإعادة طبع نفس النسخة طبق الأصل في عام ١٩٨٧ ضمن سلسلة مطبوعات معهد المخطوطات الإسلامية في فرانكفورت Institut für Geschichte der Arabisch-Islamischen =

النسخة الأولى، غير أن خرائطها مفقودة. أما النسخة الثانية فتحتوي على الخرائط، إلا أن اسم السلطان غير موجود[٢]. وكان كتاب بطلميوس في الجغرافيا قد تُرجم في عدد من المناسبات في بدايات العصر العباسي على وجه التقريب. لكن نسخ هذه الترجمات ضاعت ولا توجد الآن سوى النسخ التي أمر محمد الفاتح بترجمتها[٣].

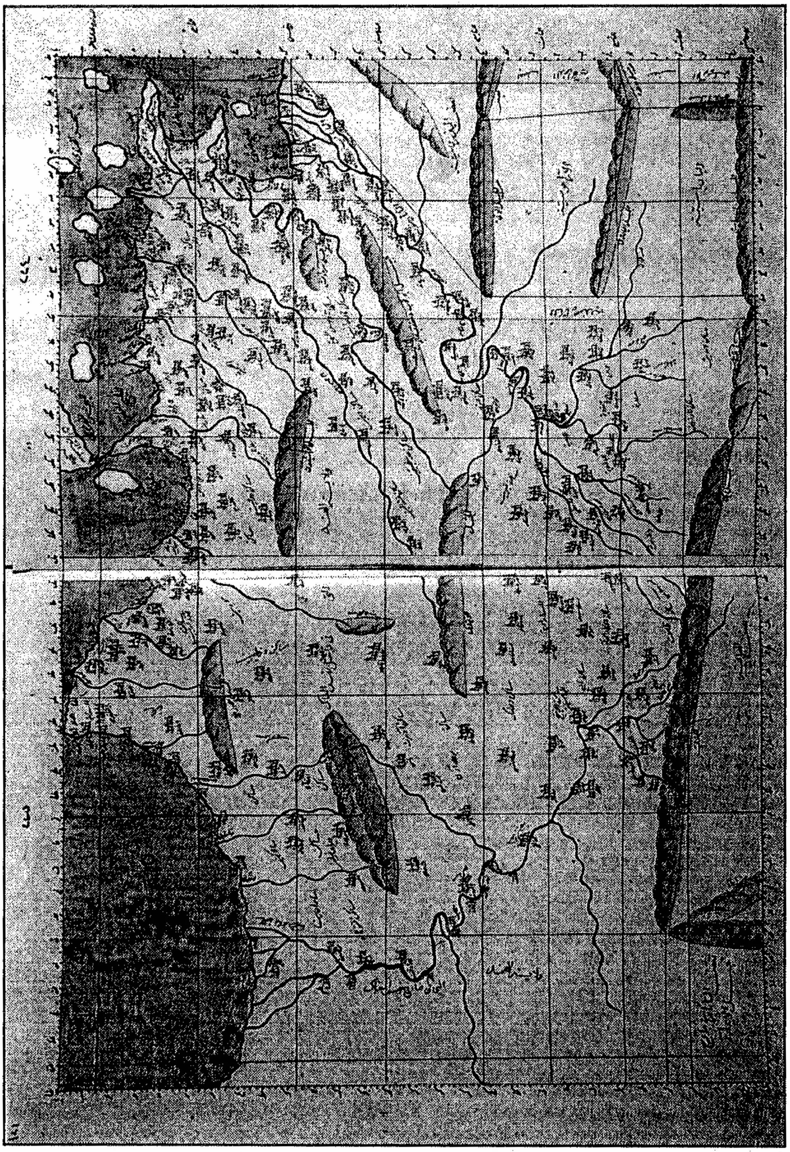
وعلاوة على ترجمة كتاب بطلميوس، قام علماء عثمانيون بتأليف كتب تنحو نحو موروث الجغرافيين المسلمين التقليديين، مثل «أوضح المسالك» الذي وضعه سباهي زاده (ت ٩٩٧هـ/ ١٥٨٩م)[٤]، و«مناظر العوالم» الذي ألفه عاشق محمد

= Wissenschaften، وذلك مع دراسة باللغتين العربية والانجليزية تحت عنوان: Klaudios Ptolemaios Geography, Arabic Translation (1465 A.D).

(٢) انظر: Osmanli Cographya Literaturu Tarihi, (2cilt) ed: E. Ihsanoğlu, IRCICA, Istanbul, 2000، وسوف نذكره بالعربية تحت اسم: تاريخ الأدبيات الجغرافية في العهد العثماني، المجلد ١، ص١٢- ١٣.

(٣) توجد بدار الكتب الوطنية بتونس نسخة عربية نادرة نقلها من اليونانية إلى العربية إسحاق بن حنين بن إسحاق (٢٩٨هـ/٩١٠م) وأصلحها وصححها ثابت بن قرة الحراني (٢٨٨هـ/٩٠١م)، خطها أندلسي، كتبت سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م، موضحة بالرسوم والدوائر والزوايا والجداول الفلكية، وقد نقلت من أصل عورض بنسخة أبي القاسم المنجم المصححة عن نسخة الشيخ أبي الحسن الصوفي، رقمها ٧٨١٦ رضوان - (إ. شبوح: المخطوط ٧٦ (١١٧) [المحرر].

(٤) تاريخ الأدبيات الجغرافية في العهد العثماني، ص ٦٤ - ٦٨، ١٤٠.



خريطة الهند، أميرتُزس، ترجمة جغرافية بطلميوس، أياصوفيا، رقم ٢٦١٠، صفحات من القطع الكبيرة، (٢٢٤ ب - ٢٢٥ أ).

ابن عمر (كان حياً عام ١٠٢٢هـ/ ١٦١٣م)[٥]. وقد استدرك المؤلفون الذين صنّفوا هذا النوع من الأعمال على معارفهم بالمادة التي أخذوها من كتب جغرافيين مسلمين تقليديين. ولهذه الكتب أهمية فيما يتعلق بالجغرافيا العثمانية. ولا بد من أن نلاحظ أيضاً أن العلماء العثمانيين أفادوا من المصادر العربية التقليدية. ولم تكن ثمة حاجة ماسّة لترجمة هذه الكتب إلى التركية لأنهم جميعاً كانوا يتقنون العربية إتقاناً تاماً. ولذا فإنهم لم يترجموا أياً من الكتب المؤلفة ضمن هذا النهج ترجمة كاملة. غير أن لدينا بعض المصادر التي تدل على أنه قد جرت ترجمة كتاب الاصطخري.

وإضافة إلى ذلك، فإن المؤلفين الذي تعلموا في المدارس التقليدية، وضعوا كتباً في جغرافية أماكن مثل مكة والمدينة ودمشق ومصر والنيل والقدس وفضائلها. أما الملاحظات الجغرافية التي أضافها هؤلاء العلماء الذين نشأوا في دوائر العلم الكلاسيكي في المدارس فقد زادت من أهمية تلك المؤلفات. وتحوي هذه الكتب معلومات عن بعض الأماكن والمدن الواقعة ضمن الحدود الجغرافية للإمبراطورية العثمانية.

وتشكل كتب المنازل (منازل نامه) لوناً هاماً من ألوان الأدبيات الجغرافية العثمانية، ويمكن للمرء دراسة هذه المؤلفات في

---

[٥] المصدر نفسه، ص٨٠ - ٨٣.

مجموعتين رئيستين، حيث نرى في المجموعة الأولى كتباً يطلق عليها «منازل الحج». ويعثر المرء على عدد كبير من هذه المؤلفات في الأدبيات الجغرافية العثمانية. وتذكر هذه المؤلفات مسافات الطرق الموصلة من إستانبول والقاهرة ودمشق إلى مكة المكرمة، بناءً على حساب الأميال أو الساعات. كما أنها تصف خصائص الأماكن المسكونة الواقعة بجوار تلك الطرق. وقد كُتِب بعضُ هذه المؤلفات نثراً، بينما وُضع بعضها الآخر نظماً. ومن أهمها: كتاب منازل الحرمين (ت)[٦] بقلم شمس الدين محمد (القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي)[٧] وهو أقدم مؤلف أمكن العثور عليه حول هذا الموضوع. وبعد هذا الكتاب مباشرة يأتي كتاب «منازل الحج» (ت) بقلم قيت الداوودي (كان حياً عام ٩٤١هـ/ ١٥٣٤م)[٨]. وتجئ أهمية هذا المؤلف من أنه - على النقيض من عديد من المؤلفات الأخرى - يورد المسافات بين المحطات أو المنازل على أساس الأميال بدلاً من الساعات. وثمة كتاب آخر لا مندوحة عن ذكره، وعنوانه «بهجة المنازل» (ت) لمؤلفه محمد أديب بن محمد درويش (كان حياً عام ١١٩٣هـ/ ١٧٧٩م)[٩]. وهذا الكتاب الذي

---

[٦] يعني حرف التاء (ت) أن الكتاب باللغة التركية.

[٧] تاريخ الأدبيات الجغرافية في العهد العثماني، ص ٧٣ - ٧٤ .

[٨] نفسه، ص ١٨- ١٩ .

[٩] تاريخ الأدبيات الجغرافية في العهد العثماني، ص ١٥٠- ١٥٢ .

نشر في إستانبول عام ١٢٣٢هـ/ ١٨١٧م جدير بالتنويه من حيث أسلوبه الأدبي. وقد قام المستشرق م. بيانكي Bianchi بترجمته إلى الفرنسية تحت عنوان «الرحلة من القسطنطينية إلى مكة: كتاب مناسك الحج *Itinéraire de Constantinople à la Mècque traduction de l'Ouvrage Turc: Kitab Menasik el-Haj*، ونشر عام ١٨٢٦م في باريس.

ومن الأمثلة المهمة على كتب المنازل التي وضعت نظماً كتابٌ عنوانه «وصف المنازل من مصر إلى مكة، ومن الشام إلى مكة، ومن دمشق إلى مكة ومن القدس» (ت) الذي نظمه فتحي أفندي (القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي)[١٠]. وأبرز خصائص هذه الأعمال أنها جاءت جرياً على نهج الجغرافيا التقليدية، وأهم من هذا وذاك أنها احتوت على معلومات تتعلق بوصف منطقة بعينها.

أما المؤلفات من المجموعة الثانية، فتتألف من «كتب منازل» جرى تأليفها لأغراض عسكرية. والمؤلف الأكثر قيمة من بينها، هو Beyan-i- Menázil Sefer-i Irakeyn مطرقجي نصوح (ت٩٧١هـ/ ١٥٦٤م)[١١]. وهو يحتوي بالإضافة إلى الشروح الضافية، على صور مفصلة [منمنمات] لعديد من المدن والقلاع.

---

[١٠] نفسه، ص ١٦٣- ١٦٥ .

[١١] تاريخ الأدبيات الجغرافية في العهد العثماني، ص ٤٢ - ٤٥ .

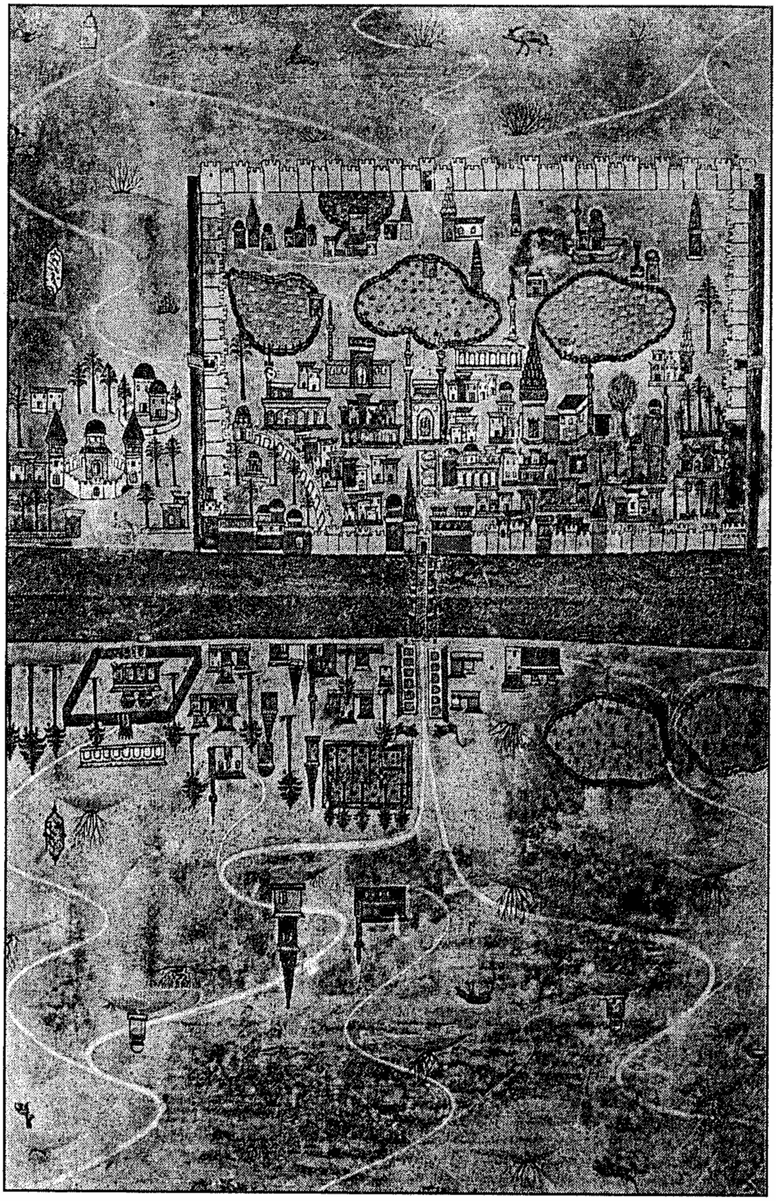
وقد نشر حسين يورد ايدين هذا المؤلف الذي يتميز أيضاً بقيمة فنية رفيعة في عام ١٩٧٦م، في أنقرة؛ وظهر بالفاكسميلي بين منشورات الجمعية التاريخية التركية.

عجائب المخلوقات:

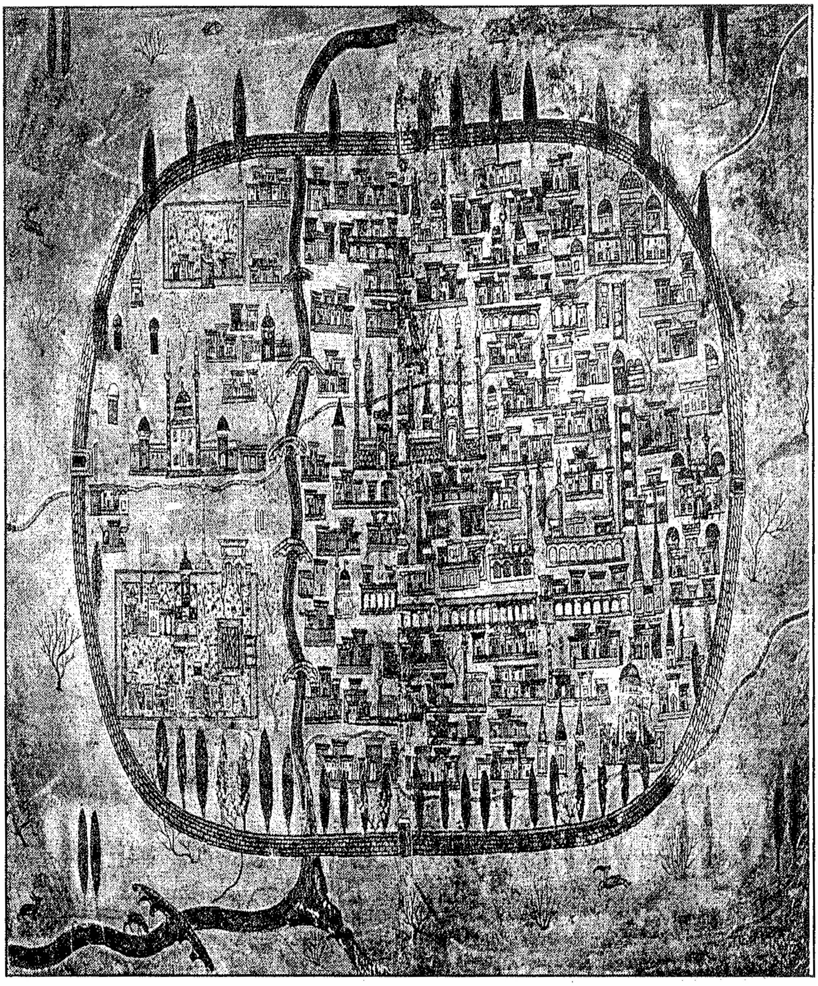
ثمة لون آخر من ألوان الأدبيات الجغرافية العثمانية جدير بالملاحظة، يحتوي على ترجمات وتصانيف اقتفت أثر كتاب «عجائب المخلوقات»، أو سلكت مسلك كتب من هذا النوع مؤلفة باللغة التركية. وأغلب مصنفي هذه الكتب ممن حصلوا على تعليمهم في المدارس التقليدية. وقد بدأت هذه المجموعة من المؤلفات بترجمات حرة ذات طابع أدبي. وتشمل هذه الكتب التي دونت بأسلوب مسلّ شبه خرافي، مزيجاً من المواضيع، مثل علم الكوزمغرافيا، والجغرافيا والنبات والحيوان. وكانت تقوم في صيغتها التركية على ترجمات حرّة لكتاب زكريا القزويني (ت٦٨١هـ/١٢٨٣م) الموسوم بـ « عجائب المخلوقات»[١٢]، وكتاب ابن الوردي الذي عنوانه« خريدة العجائب». ويلاحظ أن مصنفي الكتب التركية قد أضافوا عبارات ونصوصاً من مؤلفات شتّى

---

[١٢] تاريخ الأدبيات الجغرافية في العهد العثماني، ص ٣، ٥، ٣٢، ٣٨، ٣٩، ٤١، ٤٨، ٨٤، ٦٠٥، ٦٠٦.



بغداد (مطرقجي نصوح «منازل سفر العراقين»، مكتبة جامعة استانبول رقم TY 5964، صفحات من القطع الكبير ٤٧ ب - ٤٨ أ).



تبريز (مطرقجي نصوح «منازل سفر العراقين»، مكتبة جامعة استانبول رقم TY 5964، صفحات من القطع الكبير ٢٧ ب ٢٨ أ).

في الجغرافيا وغيرها من المعلومات التي توفرت لهم. وهناك اثنتا عشرة ترجمة تركية لهذا النوع من المؤلفات؛ يأتي في طليعتها كتب حملت عنوان «ترجمة عجائب المخلوقات» بقلم علي ابن عبد الرحمن (كان حياً عام ٨٠٠هـ/١٣٩٨م)[١٣] وأحمد بيجان (كان حياً عام ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م)[١٤]. كذلك صدرت مصنفات عديدة من هذا القبيل في القرون التالية، ويعود آخر مثال على هذه المؤلفات إلى أواسط القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي. وهي «تكميل ترجمة عجائب المخلوقات» بقلم رودوسي زاده (ت ١١١٣هـ/ ١٧٠١م)[١٥] ، و«مرآة عجائب المخلوقات» لحسين بن محمد (كان حياً عام ١١١٥هـ/١٧٠٣م)[١٦]. ومن بين هذه الترجمات التركية الاثنتَيْ عَشْرة لعجائب المخلوقات، تأتي ترجمات حظيت بشهرة كبيرة هي ترجمات لأحمد بيجان وسروري (ت ٩٦٩هـ/١٥٦٢م)[١٧]، ومحمود بن أحمد الخطيب الرومي (كان حياً عام ٩٧٠هـ/١٥٦٣م)[١٨]. وبإمكاننا إضافة الكتب التالية ضمن

---

(١٣) المصدر نفسه، ص ٣.

(١٤) المصدر نفسه، ص ٤ - ١١.

(١٥) المصدر نفسه، ص ١١٦.

(١٦) المصدر نفسه، ص ١١٧ - ١١٨.

(١٧) تاريخ الأدبيات الجغرافية في العهد العثماني، ص ٣١ - ٣٤.

(١٨) المصدر نفسه، ص ٣٨ - ٤٢.

موروث «عجائب المخلوقات»، وأهمها «الدر المكنون» لأحمد بيجان، و «تذكرة العجائب وترجمة الغرائب» لأيوب ابن خليل (كان حياً عام ٩٧٧هـ/١٥٦٩م) [١٩]، وترجمة كتاب ابن زُنْبُل «قانون الدنيا» لعبد الرحمن عَبْدي أفندي (كان حياً في عام ٩٨٣هـ/ ١٥٧٥م)[٢٠]، و«عجائب المخلوقات» أو «مرآة الكائنات» لُحسام الدين البورصوي (ت ١٠٤٢هـ/ ١٦٣٢م)[٢١]، وترجمة مشعل الازهار في عجائب الأقطار «لرضوان باشازاده» (القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي)[٢٢].

بواكير الأدبيات الحديثة:

ألف الملاحون والعلماء الذين لم تكن لهم صلة قوية بالدوائر الأكاديمية في المدارس كتباً جغرافية تحت تأثير المدرسة الجغرافية الأوربية قبل الحديثة، وعنيت عناية خاصة برسم الخرائط. وقد قدم علماء الجغرافيا من بين هذه المجموعة أقدم النماذج على المؤلفات التي وصلت إلينا، مثل إبراهيم

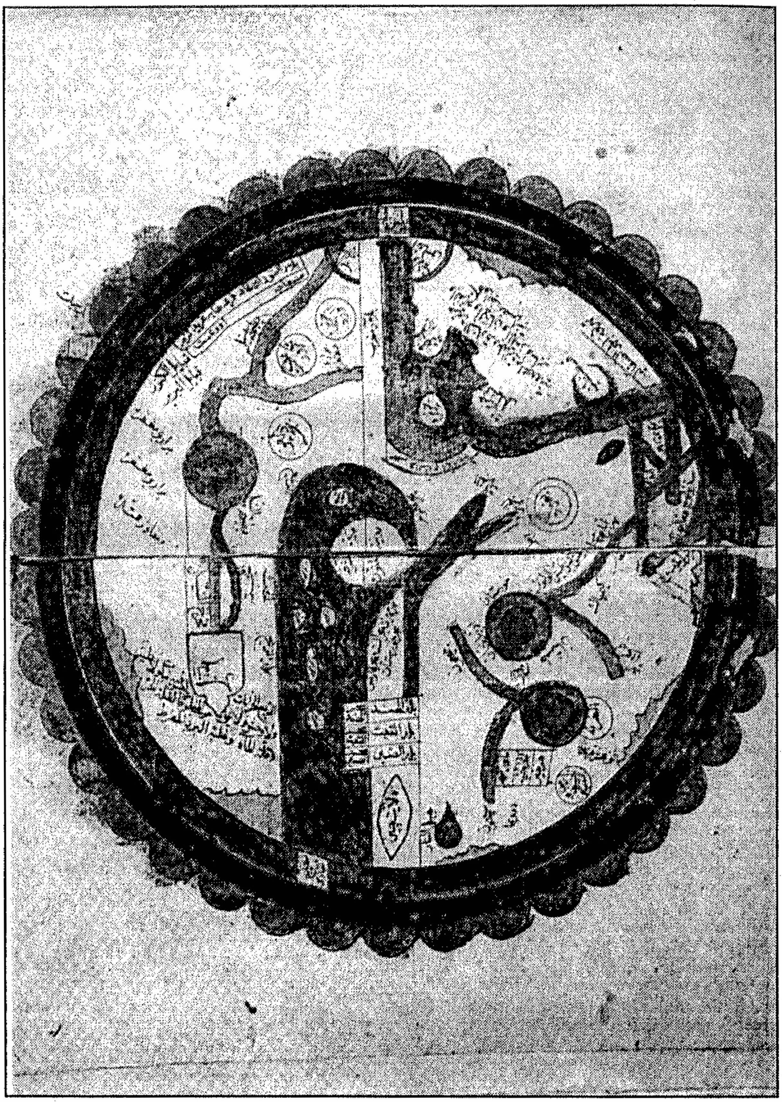
---

[١٩] المصدر نفسه، ص ٤٨ - ٤٩.

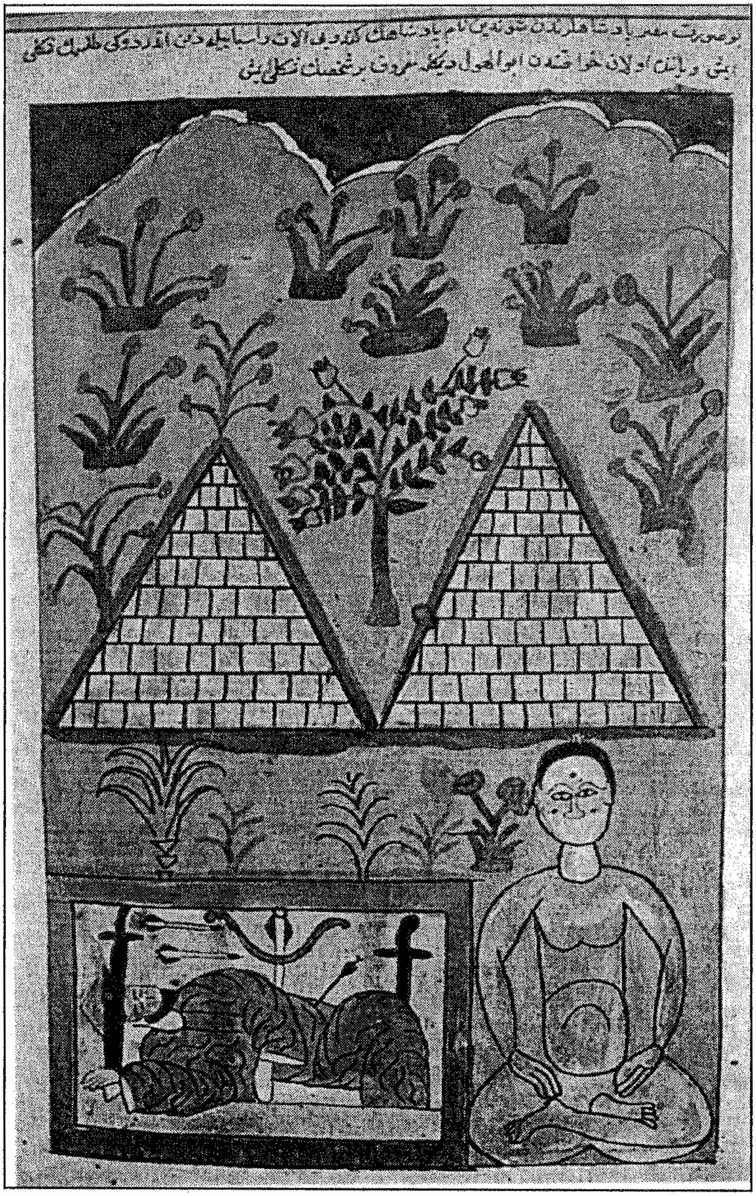
[٢٠] المصدر نفسه، ص ٥٢.

[٢١] المصدر نفسه، ص ٨٤ - ٨٥.

[٢٢] المصدر نفسه، ص ١٦٥- ١٦٦.



خريطة العالم (محمود بن أحمد الخطيب الرومي، نوادر الغرائب، المكتبة السليمانية رقم أسعد أفندي ٢٥٠١، صفحات من القطع الكبير ٢ ب - ٣ أ).



الأهرام (ابن زنبل، قانون الدنيا، مكتبة متحف قصر طوب قابي، رقم روان كوشكى ١٦٣٨، صفحات من القطع الكبير ٧٦ ب).

الكاتبي التونسي (كان حياً عام ٨١٦هـ/ ١٤١٣م)(٢٣)، وإبراهيم المرسي (كان حياً عام ٨٦٥هـ/ ١٤٦١م)(٢٤). وقد جاء هذان العالمان من تونس والأندلس على التوالي، ووضع كل منهما خرائط بحرية للبحر المتوسط وغرب أوربا. ومن المرجح جداً أن العثمانيين استخدموا هذه الخرائط. بيد أنه لا تتوفر لدينا في الوقت الحاضر معلومات كافية لنسهب في الحديث عن مدى علاقة المسؤولين العثمانيين بهذين الخرائطيين اللذين ينتميان إلى شمال إفريقيا والأندلس.

واحتل أمير البحر الملاح بيري رئيس Piri Reis (أعدم في القاهرة سنة ٩٦٠هـ/ ١٥٥٤م) موقع الطليعة بين العثمانيين في استخدام جغرافيا أوروبية الطراز(٢٥). وكتابه الموسوم بـ «كتاب البحرية» الذي شجع فيه بقوة استخدام الخرائط والبوصلة وكذلك الخريطتين الهامتين اللتين رسمهما للعالم، يمكن أن يعدّ بين المؤلفات الموفقة التي تحتوي على معلومات صحيحة، إذا ما أخذنا في الحسبان الحقبة التي تنتمي إليها. وقد وصلت - حتى الوقت الحاضر- نسخ عديدة من «كتاب البحرية» وبعض أجزاء من خريطتيه اللتين رسمهما للعالم. وإلى حد بعيد فإن

---

(٢٣) تاريخ الأدبيات الجغرافية في العهد العثماني، ص ٣- ٤.

(٢٤) المصدر نفسه، ص ١١.

(٢٥) تاريخ الأدبيات الجغرافية في العهد العثماني، ص ٢٠- ٢٨.

كلاً من خريطتي العالم والخرائط الموجودة في «كتاب البحرية» دقيقة وتجتذب إعجاب العلماء المعاصرين. ويصف «كتاب البحرية» بلغة تركية متقنة وعرض مفصّل، سواحل البحر المتوسط والمناطق القريبة، والبحر الأحمر والخليج الفارسي، والمحيط الهندي، والجزر والطرق البحرية والشواطئ، إلى جانب المدن والقلاع الواقعة حولها. وقد وُضع هذا الكتاب ليكون دليلاً للملاحين العثمانيين.

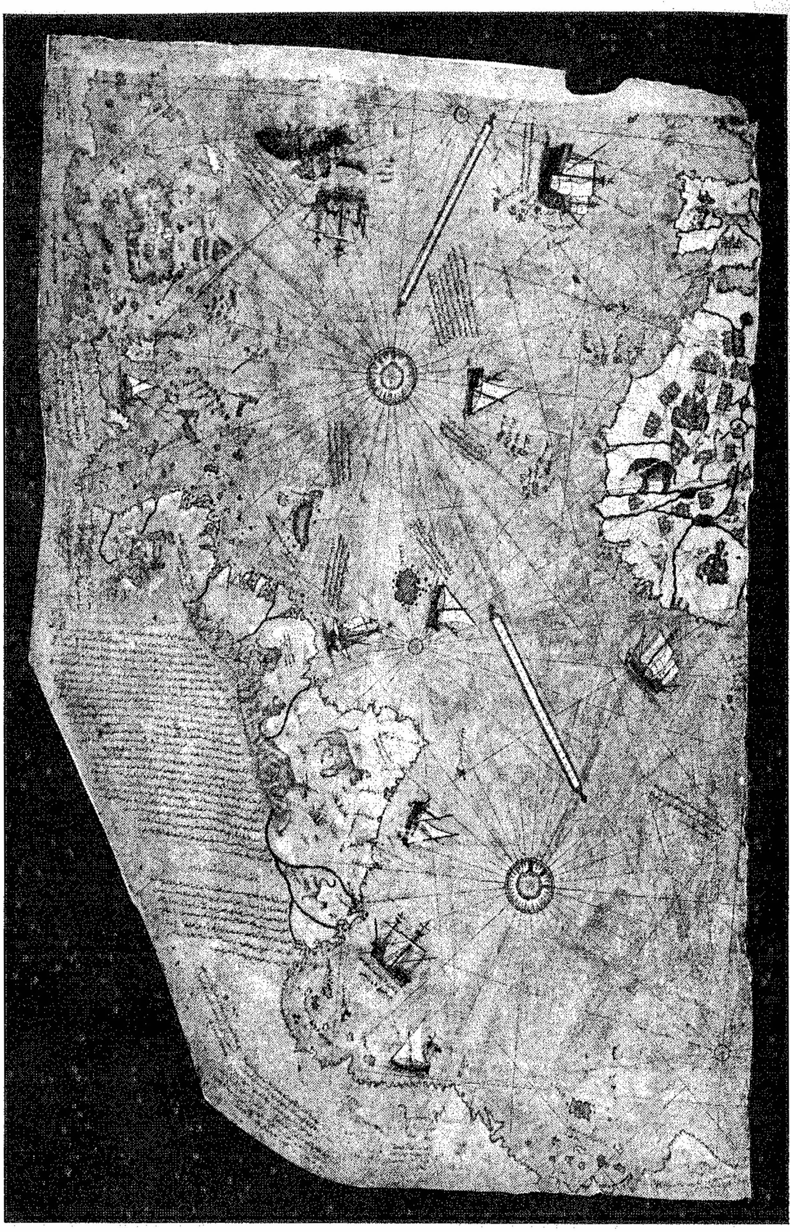
وقد استفاد بيري رئيس في تأليف كتابه من المؤلفات الجغرافية للملاحين البنادقة والجنويين والإسبان والبرتغاليين والعثمانيين. وظهرت ثلاث طبعات لهذا الكتاب في تركيا، كما قام العلماء الأتراك والغربيون بنشر العديد من المقالات حوله.

ومن الأمثلة الناجحة على هذه المدرسة في الجغرافيا، المؤلفات التي يعود تاريخها إلى الحقبة ذاتها، والتي خطتها أقلام الحاج أحمد التونسي (كان حياً عام ٩٦٧هـ/١٥٥٩م)[٢٦]، وسيدي علي رئيس (ت ٩٧٠هـ/١٥٦٣م)[٢٧]، وذلك إضافة إلى الأطلس الذي وضعه علي

---

[٢٦] تاريخ الأدبيات الجغرافية في العهد العثماني، ص ٤، ٢٩- ٣١ .

[٢٧] المصدر نفسه، ص ٣٥- ٣٨ .



قسم أو مقطع من «خريطة العالم» التي وضعها بيري رئيس عام ١٥١٣، وأهداها للسلطان سليم الأول عام ١٥١٧م.



القاهرة في القرن السادس عشر (بيري رئيس « كتاب البحرية» مكتبة جامعة استانبول رقم TY 6605 ، صفحات من القطع الكبير ٣١٢).

مجار رئيس (كان حياً عام ٩٧٥هـ/ ١٥٦٧م)[٢٨]. وحسب بعض الروايات التاريخية فقد كان في استانبول اهتمام كبير برسم الخرائط التي هيّأت بيئة مناسبة لتطوير علم وفن رسم الخرائط الحديث. بل إن المصادر تأتي على ذكر فرع من مهرة المحترفين كان منصرفاً للقيام بهذا العمل. وفي القرن السابع عشر كان هناك خمسة عشر محترفاً من هؤلاء يعملون في ثمانية دكاكين في استانبول، يرسمون الخرائط للملاحين وغيرهم من المهتمين الآخرين. وكانوا يعرفون اللغة اللاتينية، واستطاعوا الإفادة من أعمال مثل «الأطلس الصغير» Atlas Minor[٢٩]، وخريطة العالم Mappemonde. فقد انتجوا خرائطهم وفقاً للمعلومات التي تحويها هذه الأعمال[٣٠].

وفي الحقبة الكلاسكية أو التقليدية من التاريخ العثماني، يمكننا الاستشهاد بكتب تشتمل على معرفة بالجغرافيا الإسلامية والجغرافيا الأوروبية في وقت واحد. ومن هذه الأمثلة الكتاب المرسوم بـ «تاريخ جزر الهند الغربية والعالم الجديد» المنسوب إلى محمد السعودي (ت ٩٩٩هـ/١٥٩١ م)[٣١]، ويحوي

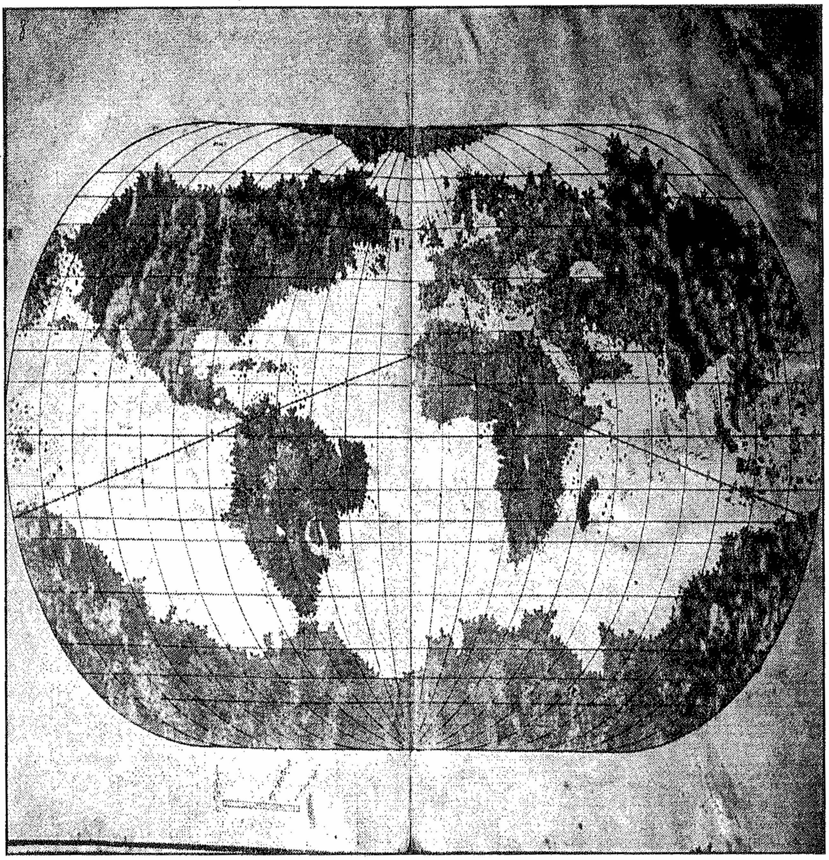
---

[٢٨] المصدر نفسه، ص ٤٦- ٤٨، ١٣٩.

[٢٩] المصدر نفسه، ص ٩٠- ٩٢.

[٣٠] أوليا جلبي: «سياحت نامه» نشره أحمد جودت، استانبول ١٣١٤هـ، ص٥٤٨. انظر أيضاً المجلد الأول من العمل نفسه الذي نشره أورخان شائق كوكياي Gokyay، إستانبول، ١٩٩٥م ص ٢٣٦.

[٣١] تاريخ الأدبيات الجغرافية في العهد العثماني، المجلد الأول، ص ٦٨- ٧١، ١٣٧، ١٣٩.



خريطة العالم (علي مجار رئيس، أطلس، مكتبة متحف قصر طوب قابي، رقم خزينه ٦٦٤).

هذا الكتاب معلومات حول الكشوف الجغرافية في القرن السادس عشر والعالم الجديد. ووضع هذا المؤلف استناداً إلى المصادر الجغرافية الإسبانية والإيطالية، وهو عمل مهمّ؛ إذ يميط اللثام عن مدى متابعة العثمانيين الحثيثة للكشوف الجغرافية في العالم الجديد. ويتألف من ثلاثة أقسام، غير أن الوزن الحقيقي

للعمل المؤلف من ثلثي الكتاب، يكمن في القسم الثالث الذي يتحدث عن رحلات كولمبس (Columbus) وبالبو (Balboa) وماجلان (Magellan) وكورتيز (Cortes) وبيزارو (Pizarro) على مدى ستين سنة، ابتداءً من اكتشاف كولمبس لأمريكا عام ١٤٩٢م وحتى عام ١٥٥٢م. والقسمان الأول والثاني من الكتاب معنيّان بالعالم القديم والمحيط الهندي. وأما المصادر التي اعتمد عليها هذا الجزء من الكتاب فقد أخذها صاحبه من المؤلفات الجغرافية والخرائط الإسلامية. وكثيراً ما يذكر المؤلف هذه الكتب الجغرافية، وأكثر ما يفعله هو الاستشهاد بما يقوله المسعودي. ومن المؤلفين الآخرين الذين يرد ذكرهم علماء من أمثال ابن الوردي والطوسي والسيوطي والإمام الرازي. غير أن المؤلف في القسم الثالث الذي يتناول العالم الجديد، لا يذكر عناوين الكتب وأسماء مؤلفي كتب الجغرافيا الأوربية التي رجع إليها. أما تناول الكتاب للكشوف الجغرافية عام ١٥٥٢م فيعطينا - إلى درجة ما- فكرة عن مدى قدرة العثمانيين آنذاك على متابعة التطورات في الغرب.

وقد استطاع الجغرافيون العثمانيون الحصول على معلومات عن الغرب والشرق في وقت لم تكن تتوفر فيه بأوربا خرائط للشرق مرسومة بدقة. ويدل ذلك على أن العثمانيين كانوا أكثر تقدماً في هذا المضمار مما اعتقده الناس. ويمكن

تقسيم الخرائط التي وضعها الجغرافيون العثمانيون إلى ثلاث مجموعات. وقد احتوت المجموعة الأولى على خرائط اندمجت فيها المعلومات الأقدم بالمعلومات الأحدث عهداً. أما المجموعة الثانية فقد تكوّنت كلها من نَسْخٍ للخرائط الأوربية التي لم تعد أصولها موجودة. بينما تكونت المجموعة الثالثة من مؤلفات أصيلة للجغرافيين العثمانيين. ومن الأمثلة على هذه المجموعة خرائط بيري رئيس للبحر المتوسط، ومثلها بعض خرائط أعدها علي مجار رئيس لأطلسه المبني على ملاحظاته الخاصة به. وقد عُثِر على ثلاث نسخ من الأطلس الإمبراطوري (الأطلس الهمايوني) الذي يبدو أنه كان معداً لتقديمه أو عرضه على السلطان. وتظهر هذه النسخ تحت الاسم نفسه بسبب تشابهها. وأُعدّت هذه الخرائط التي هي من نوع بورتْلَنْد (Portland) من خلال المقارنة بين المعلومات القديمة والحديثة المتوفرة. وقد أفادت هذه الأطالس التي يبدو أنها أُنْتِجَتْ بين الأعوام ٩٥٧ - ٩٧٥هـ/ ١٥٥٠- ١٥٦٧م إفادةً واسعة النطاق من الخرائط الإيطالية؛ وفي الوقت ذاته يستطيع المرء أيضاً أن يجد الخرائط الأصلية لمدن إستانبول، سلانيك، وغاليبولي.

الأدبيات الحديثة:

في هذه المدة أبدى كاتب جلبي (ت ١٠٦٧هـ/ ١٦٥٧م) العالم الموسوعي الشهير الذي ظهر في القرن السابع عشر

الميلادي اهتماماً بالجغرافيا[٣٢]. ويخبرنا أن الاهتمام بالجغرافيا تزايد بدرجة مثيرة ولا سيما خلال الحقبة ١٦٤٥ - ١٦٦٩م عندما وقعت المعارك بين العثمانيين والدول الأوربية الكبرى واستولى العثمانيون على جزيرة كريت[٣٣]. وقد تبيّن لكاتب جلبي أن الأعمال التي ألّفها الجغرافيون المسلمون كانت تعاني من مآخذ عديدة، وتحتوي على معلومات غير دقيقة عن الجغرافيا الطبيعية والجغرافيا الحضرية (جغرافية المدن). ويقول في هذا الصدد: «ولهذا السبب قمت بترجمة الصيغة المختصر«لكتاب الأطلس» الذي يعد من أحدث الكتب التي ألفت باللغة اللاتينية. كما ألحقت بهذه الترجمة المعلومات التي تحويها المؤلفات الإسلامية الأخرى»[٣٤]. ونتيجة لمقارنة الأعمال التي صنفت في الشرق والغرب حول هذا الموضوع، اتضح له أن الدراسات الجغرافية التي أجريت في العالم الإسلامي لم تلبّ حاجات العصر. وتوصل إلى نتيجة، مفادها أن الأوربيين بسطوا هيمنتهم على بحار العالم بسبب المعلومات الجغرافية التي حصلوا عليها. وفي مجال الجغرافيا ترجم كاتب جلبي إلى التركية المؤلف الذي كُتِب باللاتينية، وعنوانه «الأطلس الصغير»، وقد

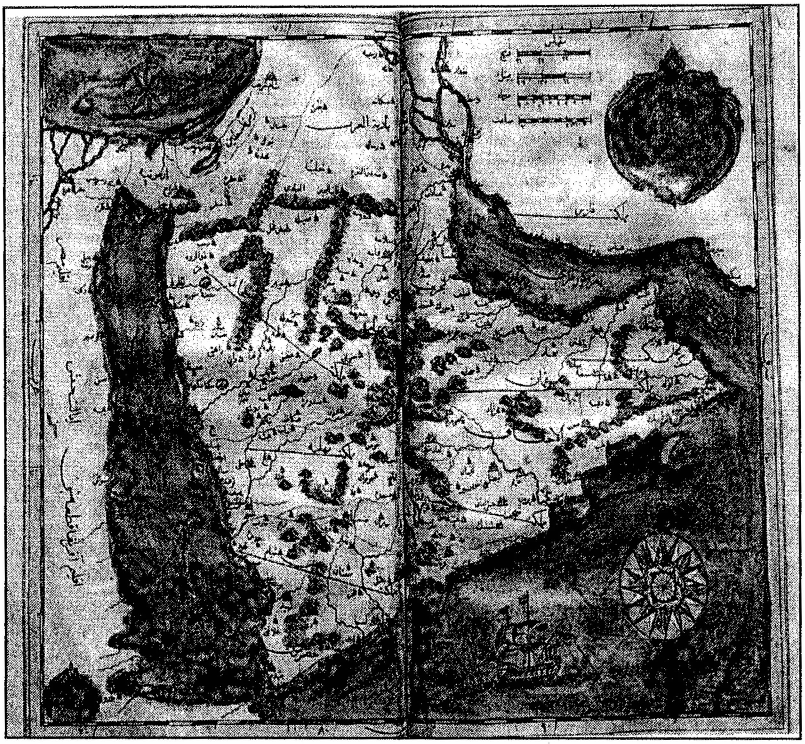
---

[٣٢] تاريخ الأدبيات الجغرافية في العهد العثماني، المجلد الأول ص ٨٥- ٩٨.

[٣٣] كاتب جلبي، «ميزان الحق»، استانبول، ١٢٨١، ص١٢٦- ١٢٧.

[٣٤] كتاب جهاننما Kitab-i Cihannüma لكاتب جلبي، مطبعة المتفرقة، ١٧٣٢م، المقدمة، ص١- ٢.

ألّفه مركاتور Mercator (١٥٩٤م) بمساعدة فرنسي اعتنق الدين الإسلامي، اسمه محمد إخلاصي. وجعل كاتب جلبي عنوان كتابه «لوامع النور»[٣٥]. كما ألف كاتب جلبي كتابه الموسوم بـ



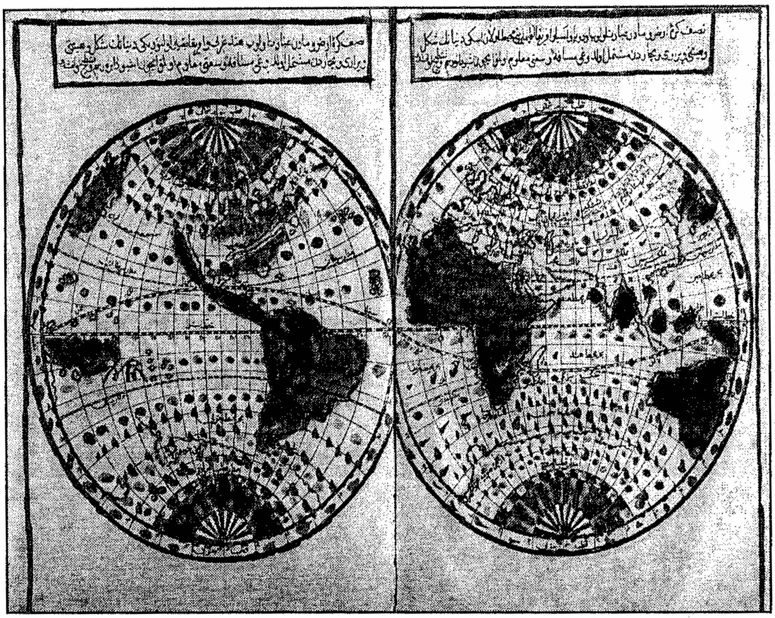
شبه جزيرة العرب (كاتب جلبي جهاننما، استانبول، ١٧٣٢، ص ٣٨٣).

«جهاننما Cihannüma معتمداً في ذلك على مصادر شرقية وغربية، وعرض قائمة بالمصادر في مقدمة الكتاب[٣٦].

(٣٥) تاريخ الأدبيات الجغرافية في العهد العثماني، المجلد ١، ص ٨٥، ٩٠ ± ٩٢.

(٣٦) المصدر نفسه، ص ٨٥ - ٩٠.

وتطور لدى العثمانيين قدر من الاهتمام بالمصادر الجغرافية الأوربية في القرن السابع عشر، أكبر مما كان عليه الحال في الحقبة السابقة (من القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين فصاعداً). ويمكن إيراد سببين اثنين لاهتمام



خريطة الكرات الأرضية (كاتب جلبي Tuhfetü'l-Kibār، إستانبول، ١٧٢٩).

العثمانيين بالمؤلفات الجغرافية الأوربية؛ أولاً: أن العثمانيين والمسلمين عامة حاولوا التعويض عمّا تعانيه معلوماتهم من نقص حول المناطق التي بقيت خارج نطاق عالمهم، وذلك بدراسة المؤلفات الجغرافية التي وضعها الأوربيون وثانياً: أن بإمكاننا ذكر وجهة النظر العثمانية القائلة إنه كان للجغرافيا ورسم

الخرائط دور كبير في التوسع الأوربي وكذلك في التقدم ونموّ القوة العسكرية والسياسية للأوربيين.

وبناءً على ذلك رغب العثمانيون في الاطلاع على الجغرافيا المعاصرة للوقوف في وجه أوربا «الغازية». ونظراً لهذين السببين وبخاصة ابتداءً من القرن السابع عشر فصاعداً، تيسّر للعثمانيين الاطلاع على معلومات جديدة عن الشرق الأقصى، وأوربا وأمريكا، من خلال ترجمة الكتب الجغرافية التي صُنّفت باللغات الأوربية، مثل اللاتينية والفرنسية، والتي تحتوي على معلومات دقيقة منظمة مرتبة. وكما يلاحظ في مثال مؤلّف كاتب جلبي جهاننما الذي سبقت الإشارة إليه، من خلال عملية الحصول على معلومات جديدة، جادت قرائح الجغرافيين العثمانيين وأقلامهم بأدبيات جغرافية ذات شأن، وقد وضعوا خرائطهم وفقاً للمعلومات الواردة في هذه الأعمال. وعلى الرغم من أن كاتب جلبي استعان في معظم الحالات بالدراسات السابقة أثناء تأليفه لأعماله سالفة الذكر، فإن تأليف كتابه«جهاننم» يجب أن يعد علامة بارزة في مسيرة الأدبيات الجغرافية عند المسلمين.

وهذا الكتاب هو الأهم في مجال الجغرافيا بعد كتاب بيري رئيس، وفي المُدَد اللاحقة أخذ الجغرافيون العثمانيون في الإفادة من المصادر الأوربية على وتيرة أخذت تتزايد بصورة

تدريجية. كذلك استعان كاتب جلبي بالمؤلف المعروف باختصار بالأطلس الكبير (Atlas Major) (١٦٦٣- ١٦٦٧، ١٤ مجلدًا) الذي وضعه فيلهالم بلايو (Wilhelm Blaeu) وابنه جوان (Joan) ولفت نظر كبار الساسة إلى هذا العمل، وتُرجم «الأطلس الكبير» وهو أحد أعظم المؤلفات في عصره إلى التركية، على يد أبي بكر ابن بهرام الدمشقي (ت ١١٠٢هـ/ ١٦٩١م)[٣٧] بتشجيع من السلطان محمد الرابع (ت ١٦٩٣م)، بعد وقت قصير من نشره. واكتملت ترجمته التي عنوانها «نصرة الإسلام والسرور، في تحرير أطلس مايور» في عام ١٦٨٥م[٣٨]. ويحتوي هذا العمل الذي يقدم معلومات ضافية عن تاريخ أوربا وأمريكا وجغرافيتهما، على خرائط عديدة أيضاً. ويُقسم الكتاب إلى أقسام حول بلدان مختلفة، كما يحوي كل قسم معلومات مفصلة عن الجغرافيا الطبيعية والحضرية والزراعية والغابات والبشر والعادات والمعالم التاريخية والمدن والإدارة السياسية والمؤسسات التعليمية والدينية. وقام الدمشقي بترجمة حرّة لهذا المؤلف في تسع مجلدات كُرّست للمواضيع التالية:

المجلد الأول للجغرافيا العامة، وعلم وصف الكون، والمجلدات من الثاني إلى الخامس لأوربا، والمجلد السادس

---

[٣٧] تاريخ الأدبيات الجغرافية في العهد العثماني، المجلد ١، ص ١٠٨- ١١٤.

[٣٨] المصدر نفسه، ص ١١٠- ١١٣.



أبو بكر بن بهرام الدمشقي، (نصرة الإسلام والسرور في تحرير أطلس مايور، مكتبة كوبريلي رقم ١٧٦، صفحات كبيرة ١ أ).

لإفريقيا، والسابع لإيطاليا والثامن للصين، والتاسع لأمريكا والجُزر.

وألف الدمشقي كتابين أخرين بناءً على هذه الترجمة، يمثل أحدهما الصيغة المختصرة لترجمة «الأطلس الكبير» وعنوانه «مختصر نصرة الإسلام والسرور»[٣٩]. كما يشمل ملحقاً عن الجغرافيا العثمانية. أما الآخر فعنوانه «رسالة في الجغرافيا»[٤٠]، وهو رسالة قصيرة باللغة العربية، تتناول مواضيع في الجغرافيا الطبيعية (مثل شكل الأرض، والمناطق المناخية)، والجغرافيا البشرية، والجغرافيا الفلكية، وذلك إلى جانب معلومات فنية حول البوصلة.

وجاء بعده جغرافيون آخرون، أمثال بتروس بارونيان (Petros Baronian) (كان حياً عام ١١٥١هـ/١٧٣٨م)[٤١]، وإبراهيم متفرقة (توفي حوالي عام ١١٦٠هـ/ ١٧٤٧م)[٤٢]، وبارطينلي ابراهيم حمدي (كان حياً عام ١١٦٣هـ/ ١٧٥٠م)[٤٣]، وعثمان بن عبد المنّان (توفي حوالي عام ١٢٠٠هـ/ ١٧٨٦م)[٤٤].

---

(٣٩) تاريخ الأدبيات الجغرافية في العهد العثماني، المجلد ١، ص ١٠٩- ١١٠ .

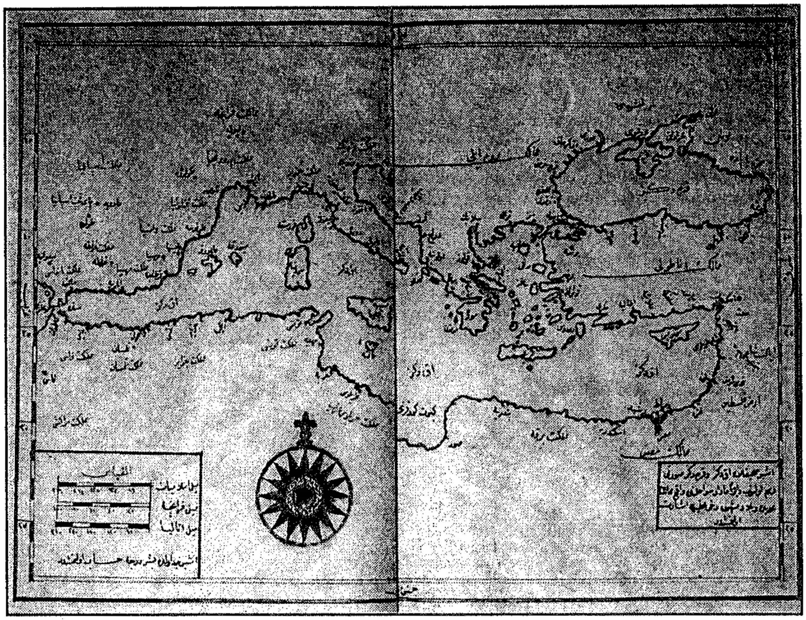
(٤٠) المصدر نفسه، ص ١١٣- ١١٤ .

(٤١) تاريخ الأدبيات الجغرافية في العهد العثماني، المجلد ١، ص ١٣٢- ١٣٣

(٤٢) المصدر نفسه، ص ١٣٤- ١٣٨ .

(٤٣) المصدر نفسه، ص ١٣٩- ١٤٣ .

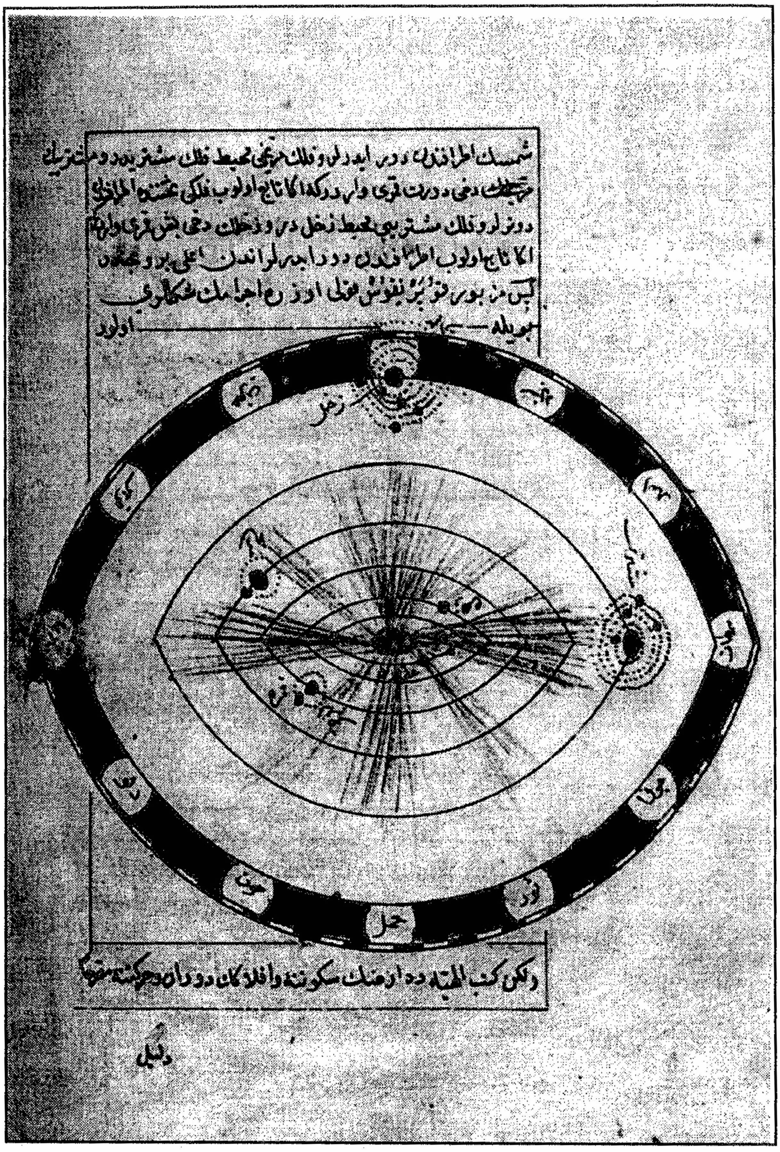
(٤٤) المصدر نفسه، ص ١٥٧- ١٦٠ .



خريطة البحر الأبيض المتوسط (بتروس بارونيان، جمنما في فن الجغرافيا، مكتبة متحف قصر طوب قابي، رقم خزينه ٤٤٤، صفحات من القطع الكبير٢٨ ب- ٢٩ أ).

وكان بعضهم من غير المسلمين الذين اعتنقوا الدين الإسلامي. وقد أنجز هؤلاء أعمالاً عن طريق الترجمة من اللاتينية واللغات الأوروبية الأخرى.

ومن بين الجغرافيين الذين سلف ذكرهم قام بتروس بارونيان بترجمة كتاب جاك روب (Jacques Robbs) الذي عنوانه منهج تعلم الجغرافيا La Méthode pour apprendre facilement la géographie) إلى التركية تحت عنوان (Cem-nümā fī Fan al-Coğrafya)جَمْنُمَا في فن الجغرافيا.



أوجه الشمس (عثمان بن عبد المنان، كتاب الجغرافيا، المكتبة السليمانية رقم أسعد أفندي ٢٠٤١، صفحات من القطع الكبير ١٨١ ب).

فقد كان الاهتمام الذي أثاره كتاب «جهاننم» لكاتب جلبي في الأوساط العلمية لدى طبعه من جانب إبراهيم المتفرقة، قد دفع بارونيان (Baronian) إلى ترجمة المؤلف الذي يحتوي على معلومات عن الرياضيات الأوربية (الجديدة)، والجغرافيا الطبيعية، وعلم الفلك البحري، وهو الأمر الذي لم يُطرح باللغة التركية حتى ذلك الحين[٤٥]، وذلك علاوة على وصف لخريطة الكرة الأرضية ورسمها، كما أضاف خريطة للبحر المتوسط، وطرح مقاييس الرسم الخاصة بالخرائط حسب الأميال الإسلامية والفرنسية والإيطالية.

أما إبراهيم متفرقة (ت ١٧٤٧م) المعروف بمؤسس أول دار طباعة إسلامية في العالم العثماني، فكان في الوقت ذاته دبلوماسياً وعالماً موسوعياً. وقد قام بطبع كتاب «جهاننما» عام ١٧٣٢م مع خرائط وملحقات متنوعة قام بإضافتها. وأورد متفرقة في هذه الملحقات معلومات جديدة عن الأناضول وبلاد العرب، أخذها من ترجمة «الأطلس الكبير»، وأضاف إلى جانب ذلك ملحقاً آخر تحت عنوان«تذييل الطابع» حول علم الفلك الجديد، حيث يتحدث باستفاضة عن مواضيع من قبيل «نموذج الكون» حسب أنظمة بطلميوس (Ptolemy) وكوبرنيكو (Copernic) وتيخو براهة (Tycho Brahe) على نظرية الدوّامة (Wirlpool)

---

[٤٥] تاريخ الأدبيات الجغرافية في العهد العثماني، المجلد ١، ص ١٣٢ - ١٣٣ .

لديكارت (Descartes). كما يذكر إبراهيم متفرقة أيضاً مساهمات أرسطو (Aristoteles) وغاليليو (Galileo). وقام متفرقة الذي كان يعد نفسه جغرافياً سنة ١٧٣٠م بطبع كتاب الجغرافيا الموسوم بـ «تاريخ الهند الغربي». الذي سبقت الإشارة إليه.

وألف بارطينلي ابراهيم حمدي كتاباً عنوانه «أطلس جهان». واستفاد أثناء تأليفه من الكتابين اللذين عنوان أحدهما «الأطلس السماوي والجغرافي الجديد» وأطلس بلاد الفلمنك الجديد. كما أدرج فيه ترجمة لبعض الأقسام من كتاب المهندس كاريو (Karyo) عن تاريخ الحرب، وكتاب غاسبار سكوت (Gaspar Scott) عن الرياضيات والمعمار الحربي، وكتاب ريموند غراف فون مونت كوكولي (Raymond Graf Von Montecucculi) (ت ١٦٨٠م) الذي عنوانه «تعليقات عسكرية» (Commenterii Bellici)[٤٦].

أما عثمان بن عبد المنان (توفي حوالي ١٢٠٠هـ/١٧٨٦م) فقد ترجم من الألمانية إلى التركية المؤلف الذي عنوانه «الجغرافيا العامة التي تفسر الآثار العامة على الأرض» Geographia Generalis in Qua Affectionnes Generalles Telluris Explicantur وضعه برنارد فارينيوس Bernhard Varenius

---

[٤٦] تاريخ الأدبيات الجغرافية في العهد العثماني، المجلد ١، ص ١٤٠ .

(١٦٠٠- ١٦٧٦) وهذا الكتاب الذي وضع أساساً باللغة اللاتينية طبع لأول مرة سنة ١٦٥٠م في أمستردام، وللمرة الثانية في كمبريدج سنة ١٦٨١م بمعرفة نيوتن قد ترجم للفرنسية وكذلك للألمانية، وهو من أهم المؤلفات الجغرافية الأوربية في القرن السابع عشر. وقام عثمان بن عبد المنان بترجمة حرة لهذا المؤلف مبرزاً مواضيع الفلك والجغرافيا الطبيعية، ومستبعداً بعض أجزاء منه ذات علاقة بالرياضيات والفيزياء. وأدخل هذا المترجم إضافات على مقدمة هذا المؤلف وخاتمته وأعطاه شكلاً جديداً. ويشرح في المقدمة موقع الأرض في الفضاء. كما أضاف المترجم معلومات جديدة تتعلق بالجغرافيا العثمانية، وسرد المعلومات التاريخية سرداً زمنياً حسب التواريخ الهجرية. وقد وضعت هذه الكتب المقتبسة من الأدبيات الأوربية أساس الفلك والجغرافيا الحديثتين في الأوساط العلمية العثمانية، بما في ذلك بعض المعلومات المتصلة بنظرية كوبرنيكوس(٤٧).

(٤٧) تاريخ الأدبيات الجغرافية في العهد العثماني، المجلد ١، ص١٥٧- ١٦٠، ولمعرفة كيفية دخول نظرية كوبرنيكوس القائلة بمركزية الشمس إلى العلوم العثمانية انظر «دخول العلوم الغربية إلى العالم العثماني» دراسة حالة في الفلك الحديث (١٦٦٠ - ١٨٦٠) في الكتاب الموسوم بـ نقل العلوم والتكنولوجيا الحديثة إلى العالم الإسلامي *Transfer of Modern Science and Technology to the Muslim World* تحرير أ. إحسان أوغلى، إستانبول، ١٩٩٢م، ص ٦٧ - ١٢٠ .

تقارير السفراء وكتب الرحلات:

لقد ألفت وترجمت في الأدبيات الجغرافية العثمانية كتب عديدة وثيقة الصلة بالجغرافيا الوصفية. وهذه الكتب تأتي على هيئة كتب الرحالين وتقارير السفراء، ويصادف المرء هذا النوع في كل من المرحلتين التقليدية والحديثة. ويأتي في طليعة هذه الأدبيات كتاب «خطاي نامه» بقلم علي أكبر خطاي (كان حياً عام ٩٢٢هـ/١٥١٦م)[٤٨]. وقد قام المؤلف نفسه بترجمة هذا العمل الذي دوّن أصلا باللغة الفارسية إلى التركية. وهو يصف فيه انطباعاته في بلاد الصين. كما أن الكتاب الموسوم بـ «عجائب نامهء هندستان» بقلم أحمد بن ابراهيم التوقادي (القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي) يقدم لنا مثالاً طريفاً آخر[٤٩].

وابتداءً من القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي فصاعداً، يشاهد المرء زيادة كبيرة في عدد تقارير السفراء، (سفارت نامه) تصف غالبيتُها بلداناً أوربية.

وقد قمنا في كتاب «تاريخ الأدبيات الجغرافية في العهد العثماني» بإدخال تقارير السفراء، تلك التي تتعلق بالجغرافيا، إضافة إلى تلك التي تحتوي على معلومات عن الجغرافيا السياسية والطبيعية والبشرية للبلدان التي زارها هؤلاء السفراء.

---

[٤٨] تاريخ الأدبيات الجغرافية في العهد العثماني، المجلد ١، ص ١٤ - ١٧.

[٤٩] المصدر نفسه، ص ٧٢- ٧٣.

وهذا يعني أن مثل هذه الأعمال لا تقتصر على تقديم معلومات وروايات عن الأمور السياسية دون غيرها.

ولا بد لنا من الحديث - من بين الأعمال سالفة الذكر- عن تقارير السفراء التي كتبها السياسيون ممن كانوا أدباء أيضاً، مثل يكرمي سكز محمد جلبي(٥٠)، وأحمد رسمي أفندي(٥١). وأحمد واصف أفندي(٥٢)، وهي أعمال ذات أهمية من حيث أنها تحتوي على قدر كبير من المعلومات عن الجغرافيا البشرية والثقافة والحضارة للبلدان التي زارها هؤلاء السفراء. وقد أتيح بفضل هذه الأعمال لرجال الإدارة والفكر العثمانيين التوصل إلى فهم أفضل للبلدان الأوربية. ومن الطبيعي أن تكون آراء هؤلاء السفراء حول ما وصفوه وما أوْلوه جلَّ اهتمامهم، والأشياء التي عثروا عليها، قد أسهمت بصورة خاصة في تطوّر نظرة المثقفين العثمانيين للعالم.

وإضافة إلى تقارير السفراء التي تصف انطباعات الوفود التي أُرْسلت إلى البلدان الأوربية، كانت هناك تقارير سفراء أعدت في ظل تأثير الحقبة التقليدية، وأبرزها كتاب بوزوقلي عثمان شاكر (ت ١٢٣٢هـ/ ١٨١٧م)«سفارتنامهء ايران»(٥٣). ولا

(٥٠) تاريخ الأدبيات الجغرافية في العهد العثماني، المجلد ١ ص ١٢٨- ٣٢.

(٥١) المصدر نفسه، ص ١٥٣- ١٥٦.

(٥٢) المصدر نفسه، ص ١٦٧- ١٦٨.

(٥٣) المصدر نفسه، ص ١٧٥- ١٧٦.

يشمل هذا الكتاب نوع المعلومات التي تحتوي عليها تقارير أحمد رسمي ويكرمي سكز محمد جلبي، غير أنه - وعلى غرار مؤلّف مطرقجي نصوح - يحتوي على منمنمات للعديد من مناطق الأناضول التي رسمت بدرجة عالية من الدقة. ويتبين من نظرة مقارنة للموضوع كيفية استفادة العثمانيين من الموروثين التقليدي والغربي.

وعلاوة على الأعمال التي سلف التطرق إليها، لا مندوحة لنا عن ذكر كتاب «سياحت نامه» لأوليا جلبي (ت ١٠٩٣هـ/ ١٦٨٢م). وهو أوسع ما ألف من كتب الرحلات حول العالم العثماني. وهو في الوقت ذاته أحد أكثر الأمثلة شمولاً من نوعه في الأدبيات العالمية. كما أنه عمل أدبي وتاريخي رفيع القيمة[٥٤]. ففي هذا السفر الشهير ذي المجلدات العشرة، يقدم أوليا جلبي وصفاً ورواية حية لتاريخ المناطق التي ساح فيها، وثقافتها ومأثورها الشعبي؛ ويقدم معلومات جغرافية حول الولايات والمدن التي كانت واقعة في الأجزاء الأوربية والآسيوية والإفريقية للإمبراطورية، مثل سوريا والعراق وبلاد اليونان وترانسلفانيا وغيرها من ولايات البلقان. وأورد في الوقت ذاته وصفاً مفصلاً لملاحظاته عن بعض الأصقاع المجاورة، مثل المجر والنمسا وأذربيجان وجورجيا واستراخان وبعض المناطق القوقازية الأخرى

[٥٤] تاريخ الأدبيات الجغرافية في العهد العثماني، المجلد ١ ص ١٠١- ١٠٧.

التي جال فيها أثناء مشاركته في الحملات العسكرية. وبالإضافة إلى كتب الرحلات الهامة هذه التي جرى تدوينها في الحقبة التقليدية، خطَّت أقلام أهل الفكر العثمانيين كتباً أخرى مماثلة في حقبة التحديث، وسنأتي على ذكرها في ما يلي.

لقد اكتسبت حركة التجديد العسكري التي كانت قد بدأت فعلاً في أوائل القرن الثامن عشر، بعداً جديداً على أثر تحطيم الروس للقوات البحرية العثمانية في موقعة جشمه عام ١٧٧٠م. وكان من أبرز مظاهر هذه الحركة إنشاء مدرسة الهندسة العسكرية التي هدفت إلى الإفادة من التجربة الأوربية على الصعيد المؤسسي وذلك عام ١٧٧٥ . وقد عرفت هذه المدرسة عموماً باسم «الهندسخانة». وأدخلت الجغرافيا ورسم الخرائط في مناهجها، وبذلك بدأ النشاط يدب في الأدبيات الجغرافية العثمانية، والمعروف أن الطلبة الذين درسوا في الهندسخانة التي افتُتحت في الترسانة البحرية عام ١٧٧٥م، قاموا بعمليات مسح أرضية تطبيقية. ولم يصل إلينا حتى اليوم منهاج الدراسة في هذه المؤسسة التي أطلق عليها اسم المهندسخانة عام ١٧٨١م. ولذلك فإننا لا نعرف ما إذا كان يحوي دروساً جغرفية أم لا. وكان عام ١٧٩٧م هو العام الذي أنشئت فيه أقسام لدراسة بناء السفن والملاحة في مدرسة المهندسخانة في «الترسانة البحرية». وتقررت دروس في علم رسم الخرائط في هذه الأقسام،

ثم اتخذت «المدرسة» «اسم» «مدرسة الهندسة البحرية الهمايونية، أو السلطانية» [المهندسخانه] بعد وضع قانون مدارس الهندسة موضع التنفيذ في عام ١٨٠٦م. وبموجب هذا القانون أدخلت دروس الجغرافيا في منهاج الصفين الثاني والثالث في «مدرسة الهندسة [المهندسخانه] الجديدة» التي أنشأها السلطان سليم الثالث عام ١٧٩٣م، واتخذت اسم «مدرسة الهندسة الحربية السلطانية» (مهندسخانهء برئ همايون)(٥٥).

وقد وضع المعلم الأول لهذه المدرسة حسين رفقي طماني (ت١٨١٦م) كتاباً عنوانه «المدخل في الجغرافيا» نشره تلميذه إسحق أفندي عام ١٨٣٠م(٥٦). وقد أدخلت أيضاً دروس الجغرافيا التي كان يجري تدريسها في المهندسخانة في منهاج المدرسة الحربية التي تأسست في عام ١٨٣٤م. كما كانت تدرس الجغرافيا وعلم وصف الكون (الكوزموغرافيا) في الصفين الثاني والثالث الإعداديين في هذه المدرسة على التوالي(٥٧). وفي أثناء عهد التنظيمات [بدأت عام ١٨٣٩م]، أدخلت دروس

---

(٥٥) كتاب «مرآت مهندسخانه» ص ١٥ . وانظر أيضاً: E. Ihsanoğlu, "*Ottoman science: The Last Episode in Islamic scientific Tradition and the Begining of European scientific Tradition*", Science, Technology and Industry in the Ottoman World, Proceeding of the XXth International Congress of History of Science, ed: E. Ihsanoğlu, et al., Liège 2000, p. 29 – 30.

(٥٦) تاريخ الأدبيات الجغرافية في العهد العثماني، المجلد١، ص١٧٦- ١٧٧و١٨٧.

(٥٧) مرآة المدرسة الحربية ص ٨٢ .

الجغرافيا ضمن مناهج المدارس المتوسطة الحديثة العامة المعروفة باسم المدارس الرشدية والإعدادية. وتم تأليف العديد من الكتب الدراسية في الجغرافيا بعد عهد التنظيمات. ونشر سليم ثابت أفندي (ت ١٩١٠م)[٥٨] كتاباً في الجغرافيا عنوانه مرشد المعلمين (رهنماى معلمين) Rehnümā-yi Muallimīn عام ١٨٧٤م. وذكر في مقدمته لهذا الكتاب أن الطلاب سيتعلمون في حصص الجغرافيا القارات الخمس ويتعلمون رسم الخرائط[٥٩].

وابتداءً من مطلع القرن التاسع عشر للميلاد تخلى العثمانيون تماماً عن الجغرافيا القديمة، واقتفوا بدقة أثر التطورات الجغرافية في أوربا. لذلك لا نرى شيئاً من المخطوطات في الجغرافيا. والواقع، فإن إنتاج المخطوطات الفلكية والرياضية بل حتى الطبية حسب المفهوم العلمي الكلاسيكي في هذا القرن اعتمد على ما إذا كانت هذه العلوم لا تزال تدرس في المؤسسات التقليدية أم لا. ولما كانت الجغرافيا غير مدرجة ضمن مناهج المدارس، فقد انتهى أمر هذا الموروث في وقت مبكر.

---

(٥٨) تاريخ الأدبيات الجغرافية في العهد العثماني، المجلد ٢، ص ٤١١ - ٤١٢.

(٥٩) انظر رمضان أوكي: Ramazan Oney *"Osmanli Devleti Doneminde cografya Ogretimi"*, Osmanli, VIII ed. Güler Eren, VIII, pp 329-331.

ومع انتهاء الدور المهم للمدارس (التقليدية القديمة) في النظام التعليمي العثماني، وازدهار المؤسسات التعليمية والمدارس الحديثة التي وفرت تعليماً عالياً عسكرياً أو مدنياً على درجة عالية من الاحتراف، فقد أنتج بعض خريجي مدارس الهندسة والأكاديمية العسكرية الذين تلقوا تعليمهم في أوربا مؤلفات أصيلة في رسم الخرائط والجغرافيا، بل إن بعض خريجي المدارس (القديمة) أخذوا في التعامل مع الجغرافيا الحديثة. وأُعدت في هذه المدة كتب عديدة طبقاً للمناهج المدرسية. ونتيجة لذلك، فقد حدثت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر زيادة كبيرة في عدد كتب الجغرافيا وأنواعها، كما حدث الأمر ذاته في بعض الميادين الأخرى. وحقق عدد المؤلفات الأصيلة زيادة لافتة، لا سيما في المواضيع المتصلة بالإمبراطورية العثمانية أو بولاياتها. وأصبح الجغرافيون العثمانيون يوجهون اهتمامهم إلى إفريقيا وآسيا وبخاصة اليابان. واجتذبت التطورات في اليابان اهتمام المثقفين من العثمانيين الذين صنفوا العديد من المؤلفات عن ذلك البلد.

وفي عهد السلطان عبد الحميد الثاني، وكجزء من سياساته الداخلية والخارجية النشطة، جرى إرسال العديد من البعثات إلى الولايات الآسيوية والأوربية والإفريقية التي تتشكل منها الدولة العثمانية، وكذلك إلى أقطار أجنبية متعددة. وطلب

إلى هذه البعثات إعداد تقارير بقي جزء هام منها على شكل مخطوطات، بينما تم نشر بعضها فيما بعد على هيئة كتب.

وإلى جانب هذه البعثات المكلفة بمهام معينة، فقد قام بعض المثقفين العثمانيين بترجمات من اللغاتِ الأجنبية لكثير من كتب الرحلات والأسفار إلى إفريقيا واستراليا والقطبين، أو عمدوا إلى تدوين الرحلات التي قاموا بها شخصياً. وهناك من هذه المؤلفات ما هو متصل بالجغرافيا ويُقدم معلومات عن الجغرافيا السياسية والطبيعية أو على الأقل البشرية للبلدان أو المناطق التي سافر إليها هؤلاء، وقد تمت الإشارة إليها والتعريف بها في كتابنا الموسع حول أدبيات الجغرافيا العثمانية.

وقد ألف العديد من الكتب ضمن هذا النهج الجديد في القرنين التاسع عشر والعشرين إلى جانب الترجمات من الجغرافيا الغربية. وحدث التطور ذاته في ترجمة الخرائط ورسوماتها أيضاً. وقد أعدت خرائط للولايات العثمانية، حيث أسدى علي شرف باشا (ت ١٩٠٧)[٦٠] ومحمد شوقي باشا (ت ١٩٢٧)[٦١] خدمةً جليلة لتطوير الدراسات في مجالات المسح ورسم الخرائط.

---

[٦٠] تاريخ الأدبيات الجغرافية في العهد العثماني، المجلد ١، ص ٣٧٨ - ٣٨٢.

[٦١] المصدر نفسه المجلد ٢، ص ٥٠٨- ٥١٠ .

وبالإضافة إلى المعلومات الرسمية الصادرة عن الجيش، فإن بإمكاننا ذكر الأعمال التالية من بين الأعمال الخرائطية البارزة في ذلك العصر. مثل: خرائط مناطق البصرة - بغداد، وبغداد - الموصل التي رسمها المعلم علي بك (ت ١٢٦٦هـ/١٨٤٩م)[٦٢]، وخرائط شبه الجزيرة العربية وإستانبول، التي وضعها حسني بك (كان حياً عام ١٢٧٨هـ/ ١٨٦١م)[٦٣]، وخريطة لسوريا - حلب - أضنة - الزور، التي رسمها اسماعيل زهدي بك (كان حياً عام ١٣٠٣هـ/ ١٨٨٦م)[٦٤]، وخريطة بلاد العرب- عجمستان- تركستان، التي رسمها الحاج محمود بك (كان حياً حوالي عام ١٣٠٨هـ/١٨٩٠م)[٦٥]، والمؤلف الذي عنوانه «ممالك محروسهء عثمانيه خريطهء عموميه سى نك اصول تسطيحى وترسيماتى حقنده تدقيقات فنيه» [تدقيقات فنية حول أصول تسطيح وترسيم الخريطة العمومية للممالك العثمانية المحروسة] التي رسمها منمنلى زاده عمر كامل (كان حياً حوالي عام ١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م)[٦٦]، وكتاب «الأطلس الجغرافي العثماني» الذي وضعه محمد نصر الله (كان حياً عام

---

[٦٢] تاريخ الأدبيات الجغرافية في العهد العثماني المجلد١، ص ١٨٨- ١٨٩.

[٦٣] المصدر نفسه، ص ٢٠٢- ٢٠٣.

[٦٤] المصدر نفسه، ص ٢٥٤- ٢٥٥.

[٦٥] المصدر نفسه، ص ٢٨٤- ٢٨٥.

[٦٦] المصدر نفسه، ص ٣٠٢ - ٣٠٣.

١٩٠٩م)[٦٧]، وخريطة الأناضول الأوسط التي رسمها اسماعيل رمزي (كان حياً عام ١٩٠٧م)[٦٨]، وخريطة شرق الأناضول - القوقاز - سوريا - مصر - البحر الأسود - إيران التي وضعها الخطاط عزمي من مدينة ديار بكر (كان حياً عام ١٩١٢م)[٦٩].

ومن المؤلفات في مجال الجغرافيا العمومية العثمانية، يمكننا ذكر الأعمال التالية: «جغرافية الممالك الشاهانية المحروسة» بقلم مصطفى راسم (كان حياً عام ١٣٠٥هـ/١٨٨٨م)[٧٠]، و«الجغرافية المفصلة لممالك الدولة العثمانية» تأليف علي صائب (كان حياً عام ١٣٠٨هـ/ ١٨٩٠م)[٧١]، و«جغرافية الممالك الشاهانية المحروسة»، «مفصل الممالك العثمانية» تأليف علي توفيق (كان حياً عام ١٩١١)[٧٢]، لكن ينبغي أن نلاحظ هنا أن بعض المؤلفات في الجغرافيا العامة العثمانية لم تكد تتجاوز مجموعات من المعلومات الموجودة في الحوليات (السالنامات) الرسمية التي كانت تصدرها الدولة.

---

(٦٧) تاريخ الأدبيات الجغرافية في العهد العثماني المجلد ٢، ص ٤٠١- ٤٠٤ .

(٦٨) المصدر نفسه، المجلد ١ ص ٣٨٢ .

(٦٩) المصدر نفسه، المجلد ١ ، ص ٤٤٢ .

(٧٠) المصدر نفسه، المجلد ١ ، ص ٢٦٠ - ٢٦٢ .

(٧١) المصدر نفسه، ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

(٧٢) المصدر نفسه، المجلد ٢ ، ص ٤٣٠ - ٤٣٤ .

ونرى في بعض الأعمال التي ألفها العثمانيون حول الجغرافيا العامة أو حول منطقة بعينها تنتمي إلى الجغرافيا العثمانية، أن أصحابها اعتمدوا على التحليل الشخصي.

وفي نفس المدة تم انتاج العديد من المؤلفات في مجالات الجغرافيا الاقتصادية والعسكرية والاستراتيجية للدولة العثمانية، إلى جانب «ضبط مساحة الأراضي» والطوبوغرافيا. ويعتبر كتاب محمد خسرو (كان حياً حوالي عام ١٣٠٢هـ / ١٨٨٥م)[٧٣] الموسوم بـ« الجغرافيا التجارية للممالك العثمانية» أول كتاب حول الجغرافية التجارية. والجدير بالذكر أيضاً أن كتاب حسين رحمي (كان حياً حوالي عام ١٣٠٧هـ/ ١٨٩٠م)[٧٤] وعنوانه «الجغرافية الزراعية والصناعية والتجارية»، وكتاب حسين باشا (كان حياً حوالي عام ١٩٠٢م)[٧٥] الموسوم بـ «الجغرافيا الزراعية للممالك العثمانية» من الكتب الجديرة بالتنويه في الجغرافيا الزراعية والصناعية والتجارية. ويخبرنا حسين باشا أنه اعتمد في تدوينه لكتابه على العديد من المؤلفات العثمانية والأجنبية. أما كتاب «الجغرافيا العسكرية

---

(٧٣) تاريخ الأدبيات الجغرافية في العهد العثماني المجلد/ ١، ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .

(٧٤) المصدر نفسه، ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٧٥) المصدر نفسه، ص ٣٦١ - ٣٦٣ .

الخاصة بالممالك العثمانية» لأحمد جمال (كان حياً عام ١٣١٠هـ/١٨٩٢م)[٧٦] فهو أول كتاب في الجغرافيا العسكرية. وفي الوقت ذاته فقد نشر حسين حسني (كان حياً حوالي عام ١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م)[٧٧] كتاباً عن الجغرافيا والطوبوغرافيا العسكرية. ونعود إلى القول إن كتاب محمد توفيق (كان حياً عام ١٩٠٩م)[٧٨] «الجغرافيا العسكرية والاستراتيجية» واحد من الكتب المهم. فقد أفاد المؤلف عند إعداده لهذا الكتاب من عدد كبير من المراجع التي لم يسبق استعمالها من جانب العثمانيين. وبإمكاننا إلى جانب ذلك، أن نذكر مؤلفات كثيرة لسيد اسماعيل حقي (كان حياً عام ١٩١٢م)[٧٩]، ومصطفى شوقي باشا (ت ١٩١٢م)[٨٠] وأحمد شكري باشا (ت ١٩١٥م)[٨١] حول الاستراتيجية وتقسيم الأراضي والطوبوغرافيا.

---

[٧٦] تاريخ الأدبيات الجغرافية في العهد العثماني المجلد/ ١ ص ٢٩٠ - ٢٩٣ .

[٧٧] المصدر نفسه، ص٢٩٤ - ٣٠٠ .

[٧٨] المصدر نفسه، المجلد ٢، ص ٤٠٤ - ٤٠٦ .

[٧٩] المصدر نفسه، ص ٤٤٧ - ٤٥٣ .

[٨٠] المصدر نفسه، ص ٤٥٣ - ٤٥٥ .

[٨١] المصدر نفسه، ص ٤٧٥ - ٤٧٧ .

وابتداءً من أواخر القرن الثامن عشر تقريباً بدأ ظهور معاجم متعددة في أوربا حول التاريخ والجغرافية العامة تحت اسم «المعجم العام للتاريخ والجغرافيا»، ويمكن مشاهدة كتب من هذا القبيل في الأدبيات الجغرافية الإسلامية التقليدية. لكن لم يبدأ العثمانيون في وضع المعاجم الجغرافية بالأسلوب الحديث إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وأول مثال على هذه الأعمال هو كتاب «المعجم التاريخي والجغرافي» الذي أعده ياغلقجي زاده أحمد رفعت (ت ١٣١٢هـ/١٨٩٤ م)[٨٢]. وتلا هذا العمل مؤلفٌ وضعه شمس الدين سامي[٨٣] (ت ١٩٠٤م) وهو «قاموس الأعلام»، ومعجم علي جواد[٨٤] (ت ١٩١٤م) المعروف باسم «معجم تاريخ وجغرافيا الممالك العثمانية».

وكتاب شمس الدين سامي عمل ضخم شامل، وكان حتى نشرت دائرة المعارف الإسلامية ترجمة تركية موسعة للموسوعة الإسلامية في ليدن، أكثر الكتب شيوعاً في ميدانه من حيث الاستعمال، وما زال يستخدمه المثقفون في تركيا والعديد من المتخصصين في الدراسات العثمانية حتى الآن.

---

[٨٢] تاريخ الأدبيات الجغرافية في العهد العثماني المجلد/ ١، ص ٣١٩ - ٣٢٠ .

[٨٣] المصدر نفسه، ص ٣٦٩ - ٣٧٠ .

[٨٤] المصدر نفسه، المجلد ٢ ، ص ٤٦٠ - ٤٦٥ .

وقد نشرت كتب مدرسية عديدة في هذه الحقبة، وفي هذا المجال فإن أعمال سليمان شوكت باشا (كان حياً عام ١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م)[٨٥] وعبد الرحمن شرف (ت ١٩٢٥م)[٨٦] كانت تستخدم باعتبارها كتباً مدرسية لسنوات طويلة. كما نشر كلٌ من فائق صبري دوران (ت ١٩٤٣م)[٨٧]وعثمان صفوت جاغليانكل (ت ١٩٤٥م)[٨٨]عدة كتب مدرسية. وقد أعد كل من فائق صبري دوران وعثمان صفوت جاغليانكل كتبهما بطريقة تراعي أصول التعليم الحديث وأساليبه، وهما متشابهان في هذه الناحية. وكان يتم تدريس كتبهما في المدارس أثناء العهد الجمهوري أيضاً.

وتحتل كتب الرحلات (سياحت نامه) في العهد الحديث مكاناً خاصاً في الأدبيات الجغرافية العثمانية. ومن بين الأعمال التي سبق ذكرها يستطيع المرء أن يذكر تلك التي دوّنت كتقارير حول الولايات العثمانية أثناء حكم السلطان عبد الحميد الثاني والحقبة التي أعقبت الدستور الثاني (١٩٠٨م وما

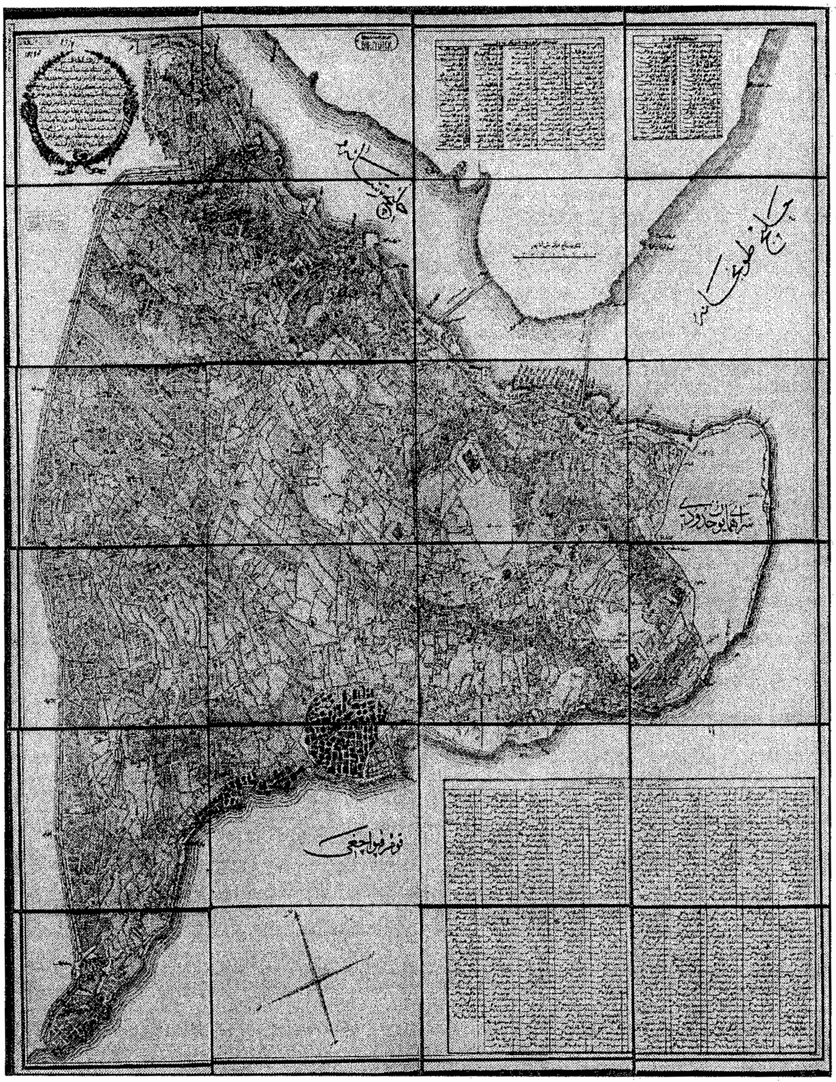
---

[٨٥] تاريخ الأدبيات الجغرافية في العهد العثماني المجلد/ ١، ص ٣٠٦ - ٣١٠ .

[٨٦] المصدر نفسه، المجلد ٢ ، ص ٤٩٩ - ٥٠٣ .

[٨٧] المصدر نفسه، المجلد ٢ ، ص ٥٣٤ - ٥٥١ .

[٨٨] المصدر نفسه، ص ٥٥٦ - ٥٦٨ .



خريطة «دار السلطنة - إستانبول» رسمها طالب من كلية الهندسة العسكرية في عام ١٨٤٨م.

تلاه)، إضافة إلى أمثلة جديرة بالاهتمام في الأسفار الشخصية التي قام بها المثقفون العثمانيون، وما زالت غالبية هذه الأعمال مخطوطة.

وعلى امتداد التاريخ العثماني أخذ نطاق الأدبيات الجغرافية في التوسع باطراد كما هو الحال في فروع العلم الأخرى. إذ تزايدت أعداد المؤلفات الجغرافية، فقفزت قفزات كبيرة، وهي تختلف في هذه الناحية عن كتب الفلك والرياضيات[٨٩]. وحدثت هذه القفزات ثلاث مرات في القرن السادس عشر والقرن التاسع عشر والقرن العشرين على التوالي. وبينما بلغ مجموع المؤلفات الجغرافية التي أنتجت في القرن الخامس عشر أربعة مؤلفات، ارتفع العدد والمحيط الهندي والخليج الفارسي. أما القفزة الثانية التي حدثت في القرن التاسع عشر فقد نجمت إلى

[٨٩] فيما يتعلق بالأدبيات العثمانية في الفلك، انظر « تاريخ الأدبيات الفلكية في العهد العثماني» أ. إحسان أوغلي وآخرين (محررين) في مجلدين IRCICA، إستانبول ١٩٩٧؛ وبالنسبة للأدبيات العثمانية في الرياضيات، انظر«تاريخ أدبيات الرياضيات في العهد العثماني» أ. إحسان أوغلي وآخرين (محررين) في مجلدين، IRCICA، إستانبول ١٩٩٩م.

حد بعيد عن تزايد الحاجة إلى كتب عن الجغرافيا الحديثة، والتي نشأت جراء إنشاء مدارس جديدة ومؤسسات تعليمية حديثة في جميع أنحاء الامبراطورية، حتى ازداد عدد المؤلفات عن الجغرافيا خلال الربع الأول من القرن العشرين بحوالي أربعة أضعاف بالنظر إلى عددها في القرن الذي سبقه.

كما أن التغيرات الكبيرة في معدل المؤلفات التي تشكل الأدبيات الجغرافية، تتوقف على ما إذا كانت الكتب مطبوعة أم لا تزال مخطوطة. فعلى سبيل المثال تم تأليف ٤٧ كتاباً جغرافياً خلال الحقبة التي امتدت بين طباعة كتاب «تاريخ الهند الغربية» وكتاب «جهاننما» اللذين كانا من بين أول الكتب في الجغرافيا التي طبعت في دار متفرقة للطباعة عام ١٧٢٩م، وحتى القرن التاسع عشر. ومن هذه الكتب السبعة والأربعين طبعت سبعة كتب فقط، وكانت الأربعون الباقية لا تزال مخطوطة. ولكن في القرن التاسع عشر كان هناك ٦٨ كتاباً مخطوطاً من بين ٢٤٤ كتاباً حيث ارتفع عدد الأعمال المطبوعة إلى ١٧٦. وفي الربع الأول من القرن العشرين زاد هذا المعدل على العموم بين المؤلفات المخطوطة والمطبوعة لصالح الكتب المطبوعة. فقد

كان هناك أربعة كتب مخطوطة فقط من بين ٣٣٥ كتاباً يعود تاريخها إلى هذه المدة، بينما كان هناك ٣٣١ كتاباً مطبوعاً.

وكما يفهم من نماذج الأنواع المختلفة من الأدبيات الجغرافية العثمانية وخصائصها التي سبق أن أشرنا إليها باختصار فإن هذه الأدبيات تشكل ميداناً شاسعاً وثرياً جداً للدراسة والبحث. ويظهر من تفحص متأنٍ للعديد من المؤلفات التي يشملها كتاب «تاريخ الأدبيات الجغرافية في العهد العثماني» أن المؤلفات التي ظهرت في الفترة الكلاسيكية التي تنتمي إلى التراث الإسلامي كانت تصدر كلها في شكل مخطوطات، بينما تميزت الأدبيات الجغرافية الحديثة بالانتماء إلى عهد الطباعة.

م. ج. دي خويه وتحقيق النصوص الجغرافية العربية*

جان جست ويتكام Jan Just Witkam

في يوم الأحد الخامس والعشرين من شهر آب (أغسطس) عام ١٨٨٩م عندما قام اثنان من سُراة مصر هما عبد الله فكري باشا ومحمد أمين فكري بك، الأب والابن بزيارة لايدن في هولندا، كانا في طريقهما من مصر مرورًا بإيطاليا وفرنسا وإنجلترا إلى استوكهولم وخريستيانيا (أوسلو) لحضور المؤتمر الدولي الثامن للمستشرقين، بوصفهما الوفد الرسمي المصري لذلك الحدث[١]. أما الباشا الكهل الذي سبق له أن شغل منصب ناظر المعارف المصرية، فكان شاعرًا مجيدًا وأديبًا بارزًا؛ وقد قدّم للمؤتمر نموذجًا من تعليقه وشرحه لإحدى قصائد حسان ابن ثابت[٢].

---

* أشكر الدكتور أرنود فرولجسك Arnoud Vrolijk لمساعدته ودعمه أثناء المراحل الأخيرة في إعداد هذه الورقة .

(١) الذي عقد بين ٢- ١٣ أيلول (سبتمبر) ١٨٨٩م.

(٢) هناك وصف لهذا الحدث في كتاب «إرشاد الألبّاء إلى محاسن أوروبا»، القاهرة، ١٨٩٢م، ص٦٥٥- ص٦٥٨. أما النص الكامل لتعليق عبد الله فكري الذي عنوانه

وأما ابنه محمد أمين فكري، فقدم ورقة حول استعمال اللغة العربية العامية بدلاً من الفصحى[٣]. كذلك قام بإتمام بحث عن رحلتهما، لأن أباه الذي كان الكاتب الأصلي للبحث توفي بعد وقت قصير من عودتهما إلى مصر سالمين[٤].

وكانا قد حضرا إلى لايدن التي كانت منذ أمد طويل أحد مراكز الدراسات الشرقية لأسباب عدة، إذ ضمت مكتبتها وما زالت، مجموعة مهمّة ومطردة الازدياد من المخطوطات الإسلامية. وحوت هيئة الأساتذة فيها عبر الزمن العديد من الأسماء اللامعة في الدراسات الشرقية، وأخيرًا وليس آخرًا كانت لايدن موئل دار النشر الشهيرة أ. ج. بريل E.J.Brill التي نشرت الكثير من الكتب المحققة جليلة القدر، وما زال معتمدًا ومستعملاً حتى الآن. وقد أهّلت هذه الحقائق لايدن، وما برحت تؤهلها، لتكون مكانًا مفضلاً للسياحة العلمية. وهذا هو على وجه التحديد ما قَدِمَ الأب والابن الحاملان لاسم أسرة فكري من أجله. لكن ما ان استقر بهما المقام في فندق الأسد الذهبي Lion d'or في شارع بريسترات Breestraat حتى داهمهما خبر مؤسف،

«عجالة البيان على ديوان حسان» فمنشور في «الآثار الفكرية»، القاهرة، ١٣١٥هـ، ص ٣٣٤- ص٣٩٦.

[٣] «نبذة في إبطال رأي القائلين بتعويض اللغة العربية الصحيحة باللغة العامية في الكتب والكتابة»، والنص منشور في كتاب«إرشاد الألبّاء» ص٦٧٤- ص٧٠١.

[٤] «إرشاد الألبّاء إلى محاسن أوروبا»، القاهرة، المقتطف، ١٨٩٤م.

فقد قيل لهما إن ذلك اليوم هو يوم الأحد، ولذلك فالمكتبة مقفلة وكذلك الكلية و«دار بريل للنشر»، وعندما لاحظ مدير الفندق علائم خيبة الأمل على وجهيهما أخبرهما أنه سيحاول إيجاد حل للمعضلة، وبعث بأحد العاملين لديه في مهمة. وعاد الرسول بصحبة أستاذ اللغة العربية م. ج. دي خويه الذي أعلم المصريَّيْن - اللذين تنفسا الصعداء - أنه سيقوم خلال ساعة بتنظيم زيارة إلى المكتبة وكذلك إلى دار بريل[5]. وبفضل جهود مدير فندقهما كانا قد التقيا بذات الرجل الذي جسّد مصادر الاهتمام الثلاثة التي اجتذبت الكثير من العلماء السائحين إلى لايدن.

وكان مايكل جان دي خويه (١٨٣٦- ١٩٠٩) يشغل مقعد أستاذ اللغة العربية في لايدن منذ سنة ١٨٦٩، والقيّم الفخري على المجموعات الشرقية في مكتبة الجامعة[6]، كما كان المؤلف المشاركَ في فهرس المخطوطات الشرقية والعربية في

---

[5] هناك منظور مزدوج لهذا اللّقاء اللافت للنظر، ونادرًا ما يُرى. أما المنظور الأول، فهو النبذة أو الرواية التي قدّمها الأب عبد الله فكري وابنه محمد أمين في كتاب الرحلات المسمى بـ «إرشاد الألبّاء» ص٥٢٣- ص٥٢٩، والرواية التي قدمها م. ج. دي خويه بعد سنة في مراجعته لذلك الكتاب تحت عنوان «مصري في أوروبا» في مجلة DE GIDS ١/١٨٩٣، ص ٥٦٦- ص٥٧٧.

[6] مع العنوان السريّ المُلغز (مترجم أو مفسّر تراث وارنر) التي يحتفظ الآن به كاتب هذه الورقة.

المجموعات الهولندية[٧]. و نشرت غالبية تحقيقاته المتقنة دار السادة بريل، التي حظيت بازدهار غير معهود، كان من أهم أسبابه مشروعات دي خويه في مجال تحقيق الكتب والمخطوطات. وكان دي خويه الشارحَ النموذج للحقبة الفيلولوجية والتحقيقية في الدراسات الشرق أوسطية، عندما كُشِف النقابُ للجمهور عن مصادر شتى لمعرفتنا باللغة العربية والثقافة الإسلامية في المكتبات الأوروبية لأول مرة. وجاء هذا الكشف عن طريق فهارس مفصّلة، وأصبح معروفًا من خلال عدد وفير من تحقيقات النصوص التي استطاعت الصمود أمام النقد.

وتزامن ذلك مع الوقت الذي شرعت فيه الطريقة اللاتشمانية تتخذ سبيلها رويدًا رويدًا في تحقيق النصوص. وفي دنيا الأكاديميين في النصف الأول من القرن التاسع، ظهرت حركة إحياء شاملة لأسلوب النقد النصيّ على أثر منهجيات جديدة تقترن أكثر ما تقترن في عمل العالم الألماني للدراسات الكلاسيكية والجرمانية القديمة، وفقيه اللغة، كارل لاتشمان Karl Lachmann (١٧٩٣ - ١٨٥١). فقد استنبط ما أصبح يعرف فيما بعد بالأسلوب اللاتشماني في النقد النصيّ. ويمكن

---

[٧] فهرس المصنفات الشّرقية في دار الكتب، بأكاديمية Lugduno-Batavae، الطبعة الثانية، مجلد/١- ٢، لايدن ١٨٨٨- ١٩٠٧م.

تعريف ذلك بإيجاز، بأنه محاولة التوصل إلى إعادة تركيب نص في صيغة هي أقرب ما تكون للنسخة الأصلية للمؤلف المفترض، وذلك بالتخلص من الأخطاء والتأويلات التي كانت قد أُلحِقَتْ بالنص خلال الفترات اللاحقة. وتتمثّل الأداة الرئيسة لهذا النهج في وضْع ما يسمى «شجرة النَّسَب» «Stemma» التي تعني سلسلة نسب أو سلالة من شهودٍ مخطوطيةٍ على أحد النصوص؛ وبمساعدة شجرة النسب هذه يمكن تمييز المخطوطات التي لا قيمة لها في بناء النص عن المخطوطات القيّمة ومن ثم إسقاط الأولى. ومن ناحية مكانية فإن حصيلة تطبيق أسلوب شجرة النسب تتمثل في إمكانية إعادة اكتشاف النموذج الأصلي للصيغة التي وضَع بها المؤلف الكتابَ. ومن وسائل النقد النصيّ الأكثر شهرة التي أوصلها ´ لاتشمان[3] إلى مرتبة الكمال قاعدة تَغَلُّب القراءة الأصعب على القراءة البسيطة. وقد ساعد ذلك في إعادة تركيب قراءاتٍ أصليةٍ كانت قد حطّت من مكانتها أجيال من النُّسّاخ.

ولم يؤلف ´ لاتشمان[3] قط كتابًا حول طريقته، لكنه طور هذه الطريقة ووضّحها في إنتاجه الرائع لطبعات تحقيقية نقدية ودراسات حول مظاهر النقد النصيّ وتعليقات على الطبعات. وقد كتب تعليقات وحقق أيضًا نصوصًا هامة ليس من الأدب اليوناني واللاتيني وحسب، بل كذلك من الأدبين الألماني والإنجليزي القديمين، وكذلك من العهد الجديد من الكتاب

المقدس. وأدى هذا الاختيار للنصوص ومجالات العلم والمعرفة إلى ذيوع تأثير ´ لاتشمان[3]على نطاق واسع. وإلى يومنا هذا فإن دارسي النقد النصيّ عيال - بمعرفة منهم أو على الأغلب دون أن يدروا - على ما توصل إليه من نتائج، كما أنهم منتفعون بأسلوبه.

هناك الآن مزيد من التفاصيل عن سيرة حياة م. ج. دي خويه. إذ كان أبوه قسيسًا بروتستانتيًا لدرونرجب Dronrijp وهي قرية في فريزيا Frisia إحدى مقاطعات شمال هولندا، حيث ولد دي خويه يوم ١٣ آب عام ١٨٣٦م، ومع أنه كان طالبًا ذكيًا وطموحًا في المدرسة الابتدائية، إلا أن متابعة اختياره لمهنته أثبتت أنها مهمة معقدة؛ إذ لو سار كل شيء حسبما خطّط له، لربما كان صيدليًا في هولندا أو في جزر الهند الشرقية الهولندية @أندونيسيا الحالية. غير أن هذه الخطة وأُخر مشابهات لها منيت بالفشل، وتقرر في نهاية الأمر أن يدرس اللاهوت في لايدن ليصبح على الأرجح قسيسًا كوالده.

بدأ الدراسة عام ١٨٥٤م، لكنه سرعان ما وقع في حبائل جاذبية اللغات السامية التي كانت معرفتها وقتذاك أحد متطلبات طلبة اللاهوت، وجزءًا من منهاجهم الأكاديمي. وكان يفترض فيهم بطبيعة الحال القدرة على قراءة الكتب المقدسة بلغاتها الأصلية، التي هي العبرية والآرامية واليونانية. كما تلقى في

لايدن أيضًا تدريبًا متينًا في فقه اللغة الكلاسيكي من معلميه ج. بيك (١٧٨٧- ١٨٦٤م) وسي.ج.كوبث (١٨١٣- ١٨٨٩م). و من المحتمل أن معلميه عرفوه بالطريقة المنهجية النقدية إزاء النصوص، سالكًا بذلك سبيل ´ لاتشمان 3 الذي كان هناك شعور متزايد بتأثيره في الأوساط العلمية الهولندية(٨). غير أن الأستاذ الذي اعتبره دي خويه أهم معلميه، كان المستعْرِب (بالعين المهملة والراء المكسورة) ب. أ. دوزي (١٨٢٠- ١٨٨٣م). إذ توصل صاحبنا تحت تأثيره إلى أن العمل الوظيفي كرجل الدين لم يكن الغاية التي ابتغاها دي خويه من الحياة، ووقع خياره على دراسة اللغات السامية العبرية والسريانية والعربية. وما أسرع ما استحوذ عليه سحر لسان الضاد. وفي اتصالاته مع دوزيّ بلور مثلَهُ العلمي الأعلى، جاعلاً إياه جمع النصوص العربية التي كانت مصادر لتطور الحضارة الإنسانية، ثم التقييم

---

(٨) كان لمعرفة اللاتينية (التي كان الطلبة الجامعيون قد اكتسبوها في مدرستهم الثانوية) غرض آخر عملي إلى أبعد الحدود أيضًا. إذ كانت اللاتينية هي اللغة التي نُشرت فيها أنفس الكتب العلمية في بقاع واسعة من أوروبا، وتشبه إلى حد ما وضع اللغة الإنجليزية في أيامنا هذه. وهناك العديد من مؤلفات دي خويه الموجّه إلى جمهور دولي مكتوبة باللاتينية، وهي حقيقة محزنة تجعل هذه المؤلفات عسيرة المنال بصورة شبه تامة، بسبب تراجع معرفة اللاتينية إلى أداة نادرة الآن.

الناقد لهذه المصادر، وبعدئذ تأليف جميعة علمية أخّاذة منها، وكانت هذه المصادر في حقول الأدب والتاريخ والجغرافيا[٩].

وفي عام ١٨٥٩م تولى مهمة الرعاية اليوميّة لمجموعة مخطوطات لايدن الشرقية[١٠]. وفي سنة ١٨٦٠م ناقش اطروحته لنيل الدكتوراه التي كانت تحقيقًا جزئيًا لكتاب البلدان لليعقوبي.

وفي سنة ١٨٦٦م حصل على رتبة أستاذ فوق العادة، ثم تحول هذا التعيين عام ١٨٦٩م إلى أستاذية كاملة لكرسي اللغة العربية في لايدن. وتقاعد عام ١٩٠٦م بعد أن حاز شهرة عالمية بأنه أحد أعظم فقهاء اللغة في عهده، وتوفي يوم ١٧ أيار (مايو) عام ١٩٠٩م.

وفي وقت مبكر من مسيرة حياته العلمية أدرك دي خويه أن الطبعات المحققة النقدية مثّلت الضرورة الأولى. وخلال مسيرة

---

(٩) عن حياة دي خويه وأعماله المعروضة بصورة مسهبة، انظر س. سنوك هيرغرونجي، C. Snouck Hurgronje في كتابه: *Levensbericht van Michael Jan de Goeje* مع (قائمة بمؤلفاته أعدها ث.و. جوينبول) أمستردام ١٩٠٩م، في الكتاب السنوي *Jaarboek der Koninklijke Akademie van wetenschappen 1909*.

(١٠) كانت تعد ما لا يقل عن نحو ألفي كتاب، معظمها بالعربية والفارسية والتركية والعبرية، بما في ذلك المجموعات الهامة لِ.ج.ج سكاليجر J.J.Scaliger (١٥٤٠-١٦٠٩م) وجاكوبوس غوليوس Jacobus Golius (١٥٩٩- ١٦٦٧م) ولفينوس وارنر Warner Levinus (١٦١٩- ١٦٦٥م).

حياته متعددة الجوانب ومن عام ١٨٥٦- ١٩٠٩م كانت طباعة عدد كبير من النصوص هي الجزء الرئيس والمنتظم من عمله. وليس من الخطأ في شيء وصف مكتبه، بأنه مصنع تحقيق للنصوص، إذ لم يقتصر عمله على إنتاجه شخصيًا لعدد كبير من الطبعات المحققة، بل تعدى ذلك إلى حمله لطلابه على العمل في أجزاء من مشروعاته وتصحيح تجارب الطباعة والفهرسة وما إلى ذلك. وتشمل طبعات دي خويه المحققة العديد من المؤلفات التاريخية والجغرافية، بقلم اليعقوبي (١٨٦٠م وقد أعيدت وزيد عليها عام ١٨٩٢م مثل المجلد السابع من مكتبة الجغرافيين العرب)، والإدريسي(١٨٦٦م) بالاشتراك مع أستاذه دوزي، والبلاذري (١٨٦٣- ١٨٦٦م)، ومجلدات عديدة من تاريخ الطبري (١٨٧٩- ١٩٠١م) وهو مشروع قام دي خويه ذاته بتنظيمه[11] . زد على ذلك نصوصًا أدبية عديدة، من أبرزها ديوان أبي الوليد مسلم ابن الوليد الأنصاري (١٨٧٥)، وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة

---

[11] انظر ج. ت. ب. دي برويجن J.T.P. de Brujin: «دراسات جماعية عن العالم الإسلامي: مؤسسات ومشروعات ومجموعات» في كتاب من تحرير و. أوترسبير W. Otterspeer عنوانه: لايدن والعلاقات الشرقية ١٨٥٠- ١٩٤٠م، ص٩٤- ص١١٤، ولا سيما ص٩٩- ص١٠٠. انظر كذلك ورقة أرنود فروليجك Arnoud Vrolijk نَشْرة لايدن لتاريخ الطبري، (وهي ورقة لم تُنْشر بعد). «والبحث عن مخطوطات إستانبول» سيأتي في أعمال المؤتمر الذي عُقد في سنت اندروز بين ٣٠ آب (أغسطس) و٢ أيلول (سبتمبر) ١٩٩٥م، ومراسلات دي خويه الضخمة مع المتعاونين معه في تحقيق تاريخ الطبري، موجودة في مكتبة جامعة لايدن رقم Or. 5585 e-f.

(١٩٠٤م). وظهر له أيضًا عديدٌ من المقالات حول شتّى المواضيع في الدراسات الشرقية، نشرت في المجلات العلمية العالية. وكثيرًا ما رافق ذلك من نتاجات جانبية في المجلات الهولندية، كُتبت لجمهور من القراء أوسع. ولم يتكرر بعدها اطلاع عامة الجمهور الهولندي على مظاهر من ثقافة الشّرق الأوسط بأسلوب كهذا جمع بين غزارة المعرفة وإمتاع العرض.

وكان من أركان شهرة دي خويه الدائمة قيامه وحده بتحقيق ما أطلق عليه مكتبة الجغرافيين العرب، وهي سلسلة من ثمانية مجلدات تحتوي النصوص الجغرافية التي نشرت بين عامي ١٨٧٠و ١٨٩٤م. وشملت النصوص في هذا المشروع الكبير كتاب مسالك الممالك للاصطخري (١٨٧٠م)، وكتاب المسالك والممالك لابن حوقل (١٨٧٣م) وكتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي (١٨٧٧ وط. ٢ ١٩٠٦) وكتاب البلدان لابن الفقيه الهمذاني (١٨٨٥م) وكتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة، ومقتطفات من كتاب الخراج لقدامة بن جعفر (١٨٨٩م)، والجزء السابع من كتاب الأعلاق النفيسة لابن رسته، وكتاب البلدان لليعقوبي (١٨٩٢)، وأخيرًا كتاب التنبيه والإشراف للمسعودي (١٨٩٤م).

وكانت جميع هذه المنشورات تحقيقات نقدية تظهر لأول مرة للنصوص الجغرافية، وقد زُوّدت جميعها ببعض المعلومات

عن المخطوطات المستخدمة[١٢]، وتناول نقدي للنص واسع النطاق يحتوي على القراءات المختلفة لأهم المخطوطات المعروفة[١٣]، وأخيرًا فهارس ومسارد للمصطلحات الفنية والمفردات الخاصّة، التي لم يعثر عليها في القواميس العادية للعربية الفصحى؛ وفي حالة واحدة (المجلد الخامس) أضيفت ترجمةٌ فرنسية. بيد أن الترجمة الألمانية لجميع النّصوص، الأمر الذي كان دي خويه قد وضعه نصب عينيه منذ البداية، لم تُبْصر النورَ قطّ[١٤].

هناك ملمح آخر في عمل دي خويه، لا مندوحة عن ذكره هنا، ألا وهو إحساسه بأهمية عمل الفريق أو العمل كمجموعة. ومما لاريب فيه أنّ أكبر مشروعين اشترك فيهما هما مكتبة الجغرافيين العرب، وتحقيق الطبري، ولكن بقدر مساوٍ بالنسبة لتحقيقات أخرى أنتجها. كان دي خويه مدركًا تمام الإدراك للحقيقة القائلة، إن العمل كفريق والتعاون الدولي بين العلماء هو من الأمور بالغة الأهمية لنجاح مشروعات ضخمة من هذا القبيل. إذ أن مجرد الحجم الكبير للمشروع جعل من تضافر الجهود ضرورة لا غنى عنها، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن العلاقات الجيدة قبل التصوير الفوتوغرافي، كانت أمرًا ضروريًا أيضًا في المجموعات الأوروبية الأخرى من المخطوطات. وكثيرًا ما رفد الزملاء

---

[١٢] لكن هذه البيانات قصيرة موجزة طبقًا لمتطلبات هذه الأيام.

[١٣] انظر ملحق هذا البحث.

[١٤] المجلد/١ من السلسلة (الإصطخري ١٨٧٠م) المقدمة ص٨.

والأصدقاء دي خويه بالملاحظات والمقتبسات من مصادر مخطوطة اضطروا إلى نسخها بأنفسهم. وفي نشر مكتبة الجغرافيين العرب تجلّى ذلك في إهداءات دي خويه التي تصدرت كل مجلد منها. وتعني هذه الإهداءات كلاً من أصدقائه العلماء وزملائه الأكاديميين. وبالنسبة للعديد من الزملاء يتضح أن هذا الإهداء جاء في محله[15].

وتُقدم العلاقة الداخلية المعقدة بين مختلف النصوص البلخية مثالاً يوضّح ما تمخضت عنه، فحتى إذا أخذنا في الحسبان النظرة العامة التي لدينا الآن حول هذه المخطوطات، نجد أن فَصْل هذه النصوص عن بعضها البعض أمرٌ في حكم المستحيل من ناحية عملية. ويتضح ذلك بالفعل من الأسلوب الذي اضطر دي خويه إلى اتباعه في التعامل مع مخطوطاته. لقد كان منطلقه في تناول نصوصه كلاسيكيًا تقليديًا تغلب عليه السكونية. إذ نظر إلى النصوص على أنها أشياء ثابتة محددة المعالم، دوّنها المؤلف وأكملها ثم انتقلت في فترات لاحقة إلى أيدي النُسّاخ. وقد يكون هذا الأسلوب عمليًا ومجديًا في نصوص العصور الكلاسيكية القديمة[16]، أما بالنسبة لتقليدٍ نصيّ أحدث

---

[15] وبصورة خاصة لكارلو دي لاندبيرغ Carlo de Landberg لمساعدته في الحصول على مخطوط كتاب المسالك والممالك، لابن خُرْداذبة (الآن مخطوط فينا ONB Mixt 783).

[16] لا يعود ذلك إلى فرق جوهري بين النصوص الكلاسيكية الإغريقية واللاتينية، بل يأتي بسبب طول المدة الزمنية الفاصلة بين المدّة التي عاش فيها المؤلف الكلاسيكي=

عهدًا وأكثر استمرارية مثل الأدبيات المدونة العربية، فليس بالإمكان دائمًا الإبقاء على نظرة سكونية كهذه للنصوص. وبالنسبة للنصوص الجغرافية المبكرة المنتمية إلى المدرسة البَلْخيّة فقد أثبت هذا المنحى بساطته المفرطة. وحتى لو كان دي خويه قد أراد التمييز بين أعمال الاصطخري وابن حَوْقل فإنه لم يكن يسعه إلا استعمال ما توصّل إليه من نتائج في مخطوطات أحد النصوص كشاهد نصيّ على إقامة النصّ الآخر. لذا فإن تحقيقه لأقدم نصوص جغرافيي المدرسة البلخية ومكتبة الجغرافيين العرب/١ (الاصطخري) ومكتبة الجغرافيين العرب/٢ (ابن حوقل) متشابكان إلى حدّ جعل كلاً من التحقيقين شاهدًا نصيًا على الآخر[١٧].

ومن أجل تحقيق نصوص أدبية بحتة، يحتاج المحقق إلى قدر كافٍ من الأدلة النصيّة، إلى جانب إلمام لابأس به بالاستعمالات

ووقتنا الحاضر. والواقع أن قلة معرفتنا بالمراحل المبكرة من تلك الحقبة التي تبودلت فيها النصوص الكلاسيكية لتتخذ شكلها المناسب، هي التي تخلق الانطباع الخاطيء بالسّكونية.

[١٧] انظر ملحق هذا المقال الذي يعطي لمحة شاملة عامة عن المخطوطات التي استخدمها دي خويه لطبعاته أو تحقيقاته. وقد رسم جيرالد. ر. تيبتس Gerald R. Tibbetts شجرة نسب لنصوص المدرسة البلخية توضح تعقيدات نقل المادّة (المدرسة البلخية للجغرافيين» في: ج. ب. هارلي J.B. Harley، وديفيد وودوارد Woodward David: علم الخرائط في المجتمعات الإسلامية والجنوب آسيوية التقليدية ١/٢، شيكاغو، ١٩٩٢، ص١٠٨- ١٣٦، على ص١١١).

المتعارف عليها في لغة النص. وعبارة «إلمام لابأس به» موضوع محوري متكرر في ما يدور من نقاش حول النقد النصيّ.

ويصفه علماء الدراسات الشرق أوسطية أحيانًا بأنه الذوق السليم. ويعني ذلك صراحة أو ضمنًا أن المحقق الذّي يتمتع بهذا الذوق السّليم يعرف المستوى والسجل الصحيحين للّغة، وأنه لذلك لابد أن يستطيع تغيير النص نحو الأحسن، كما كان بإمكان المؤلف أن يفعل، بل وأنه في مكنته أن «يبزّ» المؤلف إذا ما وقع المحقق في فخ الإفراط في تماثله وتطابقه مع موضوع بحثه. أما مدى ممارسة هذا «الذوق السليم»، فمحك للتمييز بين محقق قدير وآخر عاجز. واستخدام «الذوق السليم» هو العنصر الشخصي في النقد النصيّ؛ بيد أن الحذر الشديد أمر ضروري عندما يشعر المحقق بوقوعه تحت إغراء استعمال «ذوقه»، ذلك لأن معظم الأخطاء في تطبيق النقد النصيّ وتفتق الذهن عن ضروب الحدس والتخمين، أمور تنبع من الاستعانة المتهورة بهذا «الذوق»؛ إلا أن تحقيق النصوص ليس بالعملية الآلية كما يظن بعض أتباع " لاتشمان"[١٨].

---

[١٨] أن مؤلف بول ماس Paul Maas وعنوانه: «النقد النصيّ»، الذي شاع استعماله بين أجيال من المعنيين بالدراسات الكلاسيكية، مليء بكثير من التشويش في هذا الصدد. وإذا كان ينطبق على الإطلاق في مجال النقد النصيّ العملي لما كتب باليونانية واللاتينية، فإنه في جميع ما توصّل إليه من نتائج نهائية لا يكاد يفيد في النقد النصيّ للأدبيات الإسلامية. وقد جاهرتُ بشكوكي الشخصية حول إمكانية انطباق كتاب ماس في مقالي: «إقامة شجرة النسب: حقيقة أم خيال؟» في *MME3* (١٩٨٨م) ص٨٨ -ص١٠١.

وفي تحقيق النصوص العلمية، فإن معرفة المحقق بميدان العلم الذي ينحدب نفسه إليه، تكتسب مزيدًا من الأهمية النسبية، إذ من الجليّ أن كل من يقوم بتحقيق نص قديم في نصّ رياضي، يجب أن لا يقتصر على معرفة علم التّصنيف والتنسيق ودراسة الكتابات القديمة، بل يقتضي أن يحيط بمراحل تاريخ الرياضيات ومخارجه، وعندئذ، لا بد من أن تستند عمليات التخمين من أجل تصحيح النصوص الخاطئة على المحاجّات، ليس في أمور تتعلق بفقه اللغة وحسب، بل يجب أن تعتمد بقدرٍ مساوٍ على الاعتبارات الرّياضية. وينسحب الشيء ذاته على النصوص الفنية الأخرى.

ويمكن للمرء إلى حدّ ما أن ينظر إلى النصوص الجغرافية على أنها نصوص أدبية، مثل كتب الرحلات، لأوصافٍ لبلدان نائية، ولأخلاق سكانها وعاداتهم. غير أن الجغرافيا لا تقتصر على كونها مجرّد وصف لإقليم، فكثيرًا ما تحتوي على ثروة من المعلومات حول الأمور الاقتصادية أيضًا. ومن الأمثلة المناسبة على ذلك ابن حوقل، كما أن هناك قدرًا من الوجاهة والمعقولية في الفكرة القائلة أنه كان يمارس نشاطًا اقتصاديًا أثناء أسفاره. وأما القصة الأخرى التي ترجّح عمله كمبشر بالمذهب الفاطمي، فليست إلا برهانًا يؤيد ذلك. لأن العمل في سبيل قضية والانخراط في الفعاليات التجارية كانا يسيران جنبًا إلى جنب في تاريخ الإسلام.

وليست النصوص الجغرافية مقتصرة على كونها كتب رحلات مدونة بأسلوب أدبي رشيق، ولا هي مجموعات من المعلومات التجارية فقط، ولا محض أوصاف لعادات «كثيراً ما تكون شاذة غريبة» لأقوام بعيدة، ولا هي بالتصورات الوهمية الخيالية للكون، بل إنها تحتوي على ملامح من جميع هذه المظاهر في الواقع. وتُرفق النصوص الجغرافية أحيانًا ببعد إضافي وهو الخرائط، الأمر الذي يضع عبئًا إضافيًا على كاهل المحقق. ومن النادر إلى أبعد الحدود أن أضيفت خرائط إلى متون الطبعات الأولى من النصوص الجغرافية؛ فمن ناحية كان هذا الأمر يتعلق بالإمكانيات الفنية المحدودة لإعادة إنتاج الصور آنذاك.

ومن جانب آخر يمكننا أن نعزو ذلك إلى انشغال فقهاء اللغة في القرن التاسع عشر بالنصوص، مستبعدين الرسوم والصور البيانية التوضيحية. ويخيّل إليّ أن دي خويه لم يقصر اهتمامه على هذا البعد التصويري الإضافي كوسيلة لتفسير النصوص الجغرافية التي كان يقوم بتحقيقها. ومن اللافت للنظر أنّ توجّه دي خويه نحو الموضوع توجّهٌ غلب عليه الطابع الأدبي(١٩). وكنصّ فقد أراده أن يكون صحيحًا ما وسعه ذلك، بيد أنه كان أقل

(١٩) لم يسافر دي خويه إلى الشرق قط.

اهتمامًا من ذلك بكثير من حيث اعتباره للنصّ بمثابة مجموعة من الخرائط المشفوعة بنصوص تفسيرية توضيحية.

ويعمل النقد النصّي مفترضًا أن كل نسخة من المخطوط تحتوي على الأخطاء النسخية الموجودة في النموذج الأم، مضافًا إليها مجموعة من أخطاء جديدة. وبتحليل شجرة النسب الخاصة بالأخطاء، يمكن وضع شجرة نسب خاصة بالمخطوطات، لكن لا يمكن نقل قواعد النقد النصي ببساطة إلى التحليل النقدي لنظام هرمي في النهج التقليدي المتبع في الخرائط، وعلاقتها بعناوينها، أو بالأساطير، أو النصوص المصاحبة الموجودة في المخطوطات. وتعمل الخرائط على تعقيد الأمر تعقيدًا بالغًا، ذلك لأن تحليلها يقوم على أساس يتجاوز مجرد النص أو الأساطير؛ إذ تقدّم الاعتبارت التاريخية للفن، ولا سيما فيما يتعلق بطرائق التصوير وما تواضع عليه التصوير من أعراف، معلومات إضافية مُضْفية بذلك مزيدًا من التعقيد للأمور. وبالطبع هناك أيضًا الترابط الحاضر باستمرار مع الحقيقة الجغرافية، وبعبارة أخرى فإن مسألة مدى تمثيل الخارطة للحقيقة على الأرض مسألة لها قيمتها وصلتها المستمرة بالموضوع. وسأضرب مثلاً على ذلك، وهو يتعلق بمعضلة المحقق بالنسبة لخريطة بحر قزوين؛ ففي خرائط الاصطخري هناك جزيرتان مرسومتان، وإذا ما عمد المرء إلى مقارنة الخريطة في مخطوط لايدن بالخريطة المرسومة في

الترجمة الفارسية والمحفوظة يأكسفورد[٢٠]، فإن بمستطاعه أن يرى أن الأسماء أو المواقع النسبية للجزيرتين قد تبودلت، ولا يشكّل هذا مشكلة للنقد النصيّ وحسب، بل مشكلة لا تقل عنها تعقيدًا في دراسة التوضيح الخرائطي.

ولم يدون دي خويه قط خلاصة عامة شاملة لأساليبه في التحقيق، كما أن " لاتشمان" لم يفعل ذلك أبدًا هو الآخر بهذه المناسبة. إذ تتوفر أساليبهما في فقه اللغة ضمنًا من تحقيقاتهما للكتب ومن أعمال أخرى. أما المصدر الجليّ للأسلوب المستخدم فهو الجهاز النقدي. ولدى إمعان النظر في عُدّة دي خويه في النقد نرى أنه يستخدم الخرائط فعلاً في بعض الأحيان، لكن كدليل إضافي ليس إلا، وذلك حينما يخذله النص أو أينما توجد فجوة. علاوة على ما ذكرنا فإن دي خويه لم يفرق بين جهاز نقدي يقوم بتوضيح لاختيار قراءات في النص من ناحية، والتعليق الذي احتاجه لفهم معنى النصّ من ناحية أخرى. وحينما يتعلق الأمر بتحقيق النصوص الجغرافية، فإن هذا ليس بالعملي دائمًا. إذ كثيرًا ما تتعلق الصعوبات النصيّة بتهجئة الأسماء، وليس بالمستطاع دائمًا إعادة بناء التهجئة الصحيحة باللجوء إلى النقد النصيّ، إذن لا مثابة لمحقق النص إلا أن يلجأ إلى مؤلفات أخرى أسهل وأفضل قراءة، حتى وإن كانت غير ذات علاقة بالنص الأول الذي يعمد المحقق إلى تثبيته.

---

[٢٠] انظر الإحالات الببليوغرافية في الملحق أدناه.

وتمثل الإحالات المتعددة في عُدّة دي خويه شهودًا عدولاً على هذه الطريقة. حيث تبرهن على وجود وضع غريب في تحقيق النصوص غير الأسطورية، واستحالة تلبية متطلبات النظرية التحقيقية في جميع الظروف والأحوال.

ولذلك عندما جلس الأب عبد الله فكري وابنه محمد أمين عصر يوم الأحد الهادىء في شهر آب (أغسطس) من عام ١٨٨٩م جلسة بعيدة عن التكلف مع دي خويه في بيته يدخنون ويتجاذبون أطراف الحديث، لم يكن مستغربًا أن يطرحا على مضيفهما سؤالاً ينطوي على مضامين جغرافية. فقد توجّها إلى العالم الجهبذ الذي حقق هذا العدد الكبير من النصوص الجغرافية بسؤال، هو: أين تقع جزيرة واق الواق الأسطورية؟ ولم يخيب دي خويه الأمل، بل رد بالجواب الصحيح يقول: واق الواق هي اليابان. وزوّد زائريه بمعلومات مكتملة عن المصادر العديدة حول بلاد واق الواق، وتعليل لأصل الاسم، ثم طرح حججًا قاطعة مؤيدة لما ذهب إليه[٢١].

---

[٢١] إرشاد الألبّاء ص ٥٢٧ .

ملحق :

عرض للمخطوطات التي استخدمها م. ج. دي خويه في مصنفه «مكتبة الجغرافيين العرب»:

Bibliotheca Geographorum Arabicorum BGA

في مجموعة رموز دي خويه التالية، شرح لملاحظات كثيرًا ما كانت ضئيلة وشحيحة حسب قول دي خويه ذاته. وقد تنامت المعلومات بين الحين والآخر، بفضل ما ورد من أوصاف في المخطوطات مأخوذة من القوائم والفهارس، وفي بعض الأحيان جرى استخدام الأسماء الأحدث للمكتبات بدلاً من الأسماء القديمة.

وقبل أن يتوصل دي خويه إلى فكرة نشر كامل لمكتبة الجغرافيين العرب، كان قد قام مع ر.ب.أ. دوزي بتحقيق الجزء الذي يتناول [إفريقية والأندلس] في كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» الذي ألّفه الشريف الإدريسي[٢٢] [الرسم ١]. وزار دي خويه أكسفورد لمقارنة مخطوطين هناك .

[٢٢] وصف إفريقية والأندلس (إسبانيا) للإدريسي، النصّ العربي، يطبع للمرة الأولى عن مخطوطتيْ باريس وأكسفورد، مع ترجمة وتعليقات ومسرد، أعدّه ر. دوزي R. Dozy وم.ج دي خويه M.J. de Goeje لايدن (أ.ج بريل) ١٨٦٦م.

وفيما يلي ذكر المخطوطات التي اعتمدها لهذه الطبعة:

A: مخطوط باريس BNF (الملحق العربي ٨٩٣) المؤرَّخ في المريّه سنة ٧٤٤هـ/ ١٣٤٣- ١٣٤٤م

B: مخطوط باريس BNF (الملحق العربي ٨٩٢) وهو أفضل مخطوط، والأصل الذي تقوم عليه هذه الطبعة

C: مخطوط أكسفورد، مكتبة البودليان، بوكوك Pococke ٣٧٥، فهرس اوري Uri، رقم ٨٨٧، مؤرخ في القاهرة سنة ٨٦٠هـ/ ١٤٥٦ م

D: مخطوط أكسفورد، مكتبة البودليان، مجموعة جراف Grav 3837-3842، وهو ثاني أفضل مخطوط للطبعة، تاريخه قديم وقد كُتب بخط مغربي مع خرائط.

❖ مكتبة الجغرافيين العرب BGA

المجلد الأول، كتاب: مسالك الممالك، للإصطخري (١٨٧٠م)[٢٣]، مُهدىً إلى ثيودور نولدكه Theodor Noldeke (١٨٣٦- ١٩٣٠م). [الرسم ٢]

---

[٢٣] كتاب مسالك الممالك، وصف للبلدان الإسلامية، لمؤلفه أبي إسحق الفارسي الإصطخري، تحقيق م.ج. دي خويه، لايدن (دار أ.ج. بريل) ١٨٧٠م.

A: مخطـوط بولونيـا Bologna، المكتبـة الجامعيـة، Cod.3521 (فهرس روزن Rosen ص٩٤ رقم ٤٢١).

B: مخطـوط بـرلين SBPK, Spr.1 (فهـرس Ahlwardt، المجلـد الخامس، ص٣٦٢ رقم ٦٠٣٢).

C: مكتبـة غوطـا، Herz.Bibl. Arab. ١٥٢١ (فهـرس بيرتـش Pertsch، المجلـد الثالـث ص١٤٢- ١٤٤) مقتطـف أو نسـخة مختصرة من النص.

D: كتـاب: المسـالك والممالـك، لابـن حوقـل، تحقيـق دي خويـه، المجلد الثاني، في مكتبة الجغرافيين العرب.

E: غوطـا، Herz Bibl. Pers 36 (فهـرس بيرتـش ص٦١- ص٦٣ ترجمة فارسية للمؤلف)

OUS: ترجمـة قـام بهـا ولـيم أوزلـي William Ouseley (١٧٦٧-١٨٤٢م) لابن حوقل[٢٤]

O: مخطوط لندن، مكتب الهند ١٠٢٦، ترجمة فارسية، انظر فهـرس إيثـي Ethe الجـزء الأول، مجموعـة ٣٦٤- ٣٦٥ (رقـم٧٠٧)، ويقـدم دي خويـه مقارنـة مـن هـذا المخطـوط في قوائمه الموجودة في مكتبة الجغرافيين العرب، رقم ٤.

---

[٢٤] الجغرافية الشرقية لابن حوقل، السائح العربي في القرن العاشر م. ترجمه وليم أوزلي Ousely William من مخطوط بحيازته، مع مقارنته بالنسخة المحفوظة بمكتبة معهد إيتن (Eton College)، لندن، ١٨٠٠م.

بعد إكمال تحقيق النص، رأى دي خويه ضرورةً لمقارنة نصه بالمخطوطين التاليين، ويقدم مقارناته في المجلد رقم ٤ من مكتبة الجغرافيين العرب، ابتداءً من ص٣٨١ فصاعدًا، ويصف هذا الإجراء في ص ٤ من المقدمة.

L: مخطوط لايدن Or.3101 (فورهويف Voorhoeve- القائمة المختصرة ص٢٠٠) مختصرٌ وافٍ باللغة العربية، اشتراه الفرد فون كريمر Alfred Von Kremer من مصر عام ١٨٧٦م، ولم يكن متوفرًا عند نشر المجلد الأول من مكتبة الجغرافيين العرب.

F: مخطوط أكسفورد ، مكتبة البودليان أوز Ous، ٣٧٣، ترجمة فارسية ابتاعها وليم أوزلي من شيراز عام ١٨١٢م. انظر فهرس سخاو Sachow وإيثيه Ethe، Cols ٣٩٧- ٣٩٩ (رقم ٣٩٦)[٢٥].

كما يورد دي خويه أدلة نصيّة من مصادر تاريخية لاحقة عديدة. وفي المادة النقدية يعثر المرء على إحالات أو إشارات لمؤلفات ياقوت، وأبي الفداء، والقزويني، واليعقوبي، والدمشقي، والإدريسي، وغيرهم .

---

[٢٥] قام بتحقيقه الآن إيراج أفشار: « ممالك ومسالك، تأليف أبي إسحق إبراهيم الإصطخري، ترجمة محمد بن أسعد بن عبد الله التُستَري، طهران ١٣٧٣هـ/ ١٩٩٤م.

مكتبة الجغرافيين العرب

المجلد الثاني، كتاب: المسالك والممالك، لابن حوقل (١٨٧٣م)[٢٦]، مهدىً إلى وليم رايت William Wright (١٨٣٠-١٨٨٩) [الرسم٣]

L : مخطوط لايدن، مكتبة الجامعة، Or.314 (فورهويف، قائمة مختصرة ص٣٤٧). دون خرائط، نُسِخ في إستانبول عام ٩٢٦هـ.

B : مخطوط أكسفورد، مكتبة البودليان Hunt.538 (فهرس Uri ص ٢٠٩رقم ٩٦٣).

P : مخطوط باريس، دار الكتب الوطنية الفرنسية، عربي ٢٢١٤ (فهرس دو سلان De Slane ص٣٨٩- ٣٩٠). نسخة مختصرة للنص. والصورة الفوتوغرافية لهذا المخطوط التي استخدمها ج. هـ. كرامر J.H.Kramers من أجل طبعته الثانية، محفوظة في مكتبة جامعة لايدن تحت رقم Or. 8525 (فورهويف: القائمة المختصرة ص ٣٤٨).

---

(٢٦) المسالك والممالك، وصف البلدان الإسلامية، تأليف أبي القاسم بن حوقل، تحقيق م.ج.دي خويه. Lugduni Batavorum، (أ. ج. بريل)، ١٨٧٣م.

I : كتاب مسالك الممالك، للإصطخري، تحقيق دي خويه، كما جاء في المجلد الأول من مكتبة الجغرافيين العرب.

P : هناك طبعة جديدة لابن حوقل تم تحقيقها عام ١٩٣٨- ١٩٣٩م تحت اسم كتاب صورة الأرض، (كما ورد في مخطوط إستانبول) على يد محقق لايدن العظيم الذي تولى تحقيق النصوص الجغرافية، وهو (ج. هـ. كرامر J.H. Cramers) (١٨٩١- ١٩٥١م)[٢٧]. ويكمن الفرق بين تحقيقَيْ كلّ من دي خويه وكرامر، في استخدام كرامر لمخطوط إستانبول أصلاً لنشرته، الأمر الذي لم يكن متاحًا لدي خويه.

وقد استخدم كرامر المصادر النصّية التالية :

- مخطوط إستانبول، متحف طوب قبو سراي رقم ٣٣٤٦ ونسخة كرامر الفوتوغرافية للمخطوط محفوظة في مكتبة جامعة لايدن تحت رقم Or. 8524 (قائمة فورهويف المختصرة ص٣٤٧).

---

[٢٧] كتاب جغرافي (لمؤلفه) أبي القاسم ابن حوقل النصيبي. النص الثاني، والنسخة الفوتوغرافية من الكتب المحفوظة في متحف طوب قبوسراي في إستانبول، بعنوان صورة الأرض . وقد حُققت الطبعة الجديدة من كتاب صورة الأرض (كما هو الاسم في مخطوطة استانبول) على يد محقق لايدن العظيم الآخر، ج. هـ. كرامر Lugduni Batavorum (أ.ج بريل) مجلدان ١٩٣٨- ١٩٣٩م.

- طبعة محققة قام بها م. ج. دي خويه لكتاب المسالك والممالك لابن حوقل في مكتبة الجغرافيين العرب، المجلد الثاني.

- مخطوط لايدن، رقم Or 314 يحتوي على النسخة الثانية، وهو المخطوط الذي رمز إليه دي خويه بحرف «L»

- مخطوط أكسفورد، رقم Hunt. 538 الذي يحتوي على النسخة الثانية، وهو المخطوط الذي رمز إليه دي خويه بحرف «B»

- مخطوط باريس رقم Arabe 2214، الذي يحتوي على النسخة الثالثة، وهو المخطوط الذي رمز إليه دي خويه بحرف «P»

- كتاب مسالك الممالك للإصطخري، حققه دي خويه ضمن مكتبة الجغرافيين العرب المجلد الأول.

مكتبة الجغرافيين العرب

المجلد الثالث، كتاب: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، للمقدسي (١٨٧٧م)[٢٨] [الرسم ٤] والطبعة الثانية (١٩٠٦م)[٢٩] مهدى إلى ألويز شبرنجر Aloys Sprenger (١٨١٣- ١٨٩٣م)

---

(٢٨) وصف الممالك الإسلامية، تأليف شمس الدين، أبي عبد الله، محمد بن أحمد بن أبي بكر البنا البشاري المقدسي، تحقيق م. ج. دي خويه، Lugduni Batavorum (أ. ج. بريل) ١٨٨٧م.

(٢٩) وصف البلدان الإسلامية، تأليف شمس الدين، أبي عبد الله، محمد بن أحمد بن أبي بكر البنا البشاري المقدسي، تحقيق م. ج. دي خويه، الطبعة الثانية، Lugduni Batavorum، (أ. ج. بريل) ١٩٠٦م.

B : مخطوط برلين SBPK,Spr.6 (فهرس ألورد المجلد الخامس، ص٣٦٢- ص٣٦٣، رقم ٦٠٣٣). وكان شبرنجر قد أحضر هذا المخطوط من الهند، حيث يبدو أنه أعدّه قيد الاستعمال، وهو نسخة مكتوب عليها «منسوخ من أجل المطبعة». ومن مخطوط شبرنجر الخاص الموجود الآن تحت اسم مخطوط برلين SBPK,Spr.5 (فهرس ألورد المجلد الخامس ص٣٦٣، رقم ٦٠٣٤).

C: مخطوط إستانبول، أيا صوفيا ٢٩٧١ (الدفتر ص١٧٩). نُسخَتْ نسخةٌ عن هذا المخطوط بطلب من دي خويه، وقام بتسليمها له السفير الهولندي في إستانبول، وهي الآن محفوظة في لايدن تحت رقم Or2063 (قائمة فورهويف المختصرة ص٧). وفي الطبعة الثانية المنقحة عام ١٩٠٦ لم يستخدم دي خويه مزيدًا من المخطوطات، بل قام بمراجعةٍ أوسعَ للمصادر الموجودة، واغتنم الفرصة لإضافة عدد من التصحيحات النصيّة التي كان قد تلقاها من بعض الزملاء بعد نشر النسخة الأولى.

مكتبة الجغرافيين العرب

المجلد الرابع، لا يحتوي على نصّ محقق، بل يشمل الفهارس والمسرد والإضافات والتّصحيحات التي أجريت للنصوص

في المجلدات ١- ٣[٣٠]. وليست عليه عبارة إهداء ، لكن هذا المجلد يأتي على ذكر المواد المكتشفة حديثًا ، ولا سيما مخطوط لايدن رقم Or3101 ، وهو نسخة مختصرة من الإصطخري (تاريخها ٥٨٩ هجرية) متضمنة الخرائط (ص٤- ص٦). وفي القسم المخصص للإضافات والتصحيحات ينتقي دي خويه المادة من هذا المخطوط والمخطوطات الأخرى (من ص٣٨١ فصاعدًا). [الرسم ٥]

مكتبة الجغرافيين العرب

المجلد الخامس، كتاب البلدان، لابن الفقيه الهمذاني (١٨٨٥م)[٣١]، مُهدىً لذكرى أوتو لوث Otto Loth [الرسم٦]

B: مخطوط لندن، المتحف البريطاني رقم (Add. 7496(Rich ، الفهرس، الجزء الثاني (١٨٧٠م) ص١٨٢- ١٨٣ رقم ٣٨٠

I: مخطوط لندن، مكتب الهند ٦١٧ (هيستجس Hastings)، فهرس لوث ص٢٠٨- ص ٢٠٩، رقم ٧٢٢

S: مخطوط برلين Spr.2, SBPK (فهرس ألورد ، المجلد الخامس، ص٣٦٣- ص٣٦٤ رقم ٦٠٣٥)

---

(٣٠) م.ج.دي خويه ، فهارس ومسرد وإضافات وتعديلات للأجزاء ١- ٣ (من مكتبة الجغرافيين العرب) Lugduni Batavorum (أ.ج. بريل) ١٨٧٩ م.

(٣١) كتاب البلدان، تأليف ابن الفقيه الهمذاني، قام بتحقيقه وفهرسته ووضع مَسْرَد له م.ج. دي خويه Lugduni Batavorum (أ.ج. بريل) ١٨٨٥م.

مكتبة الجغرافيين العرب

المجلد السادس: يحتوى على نصين :كتاب:المسالك والممالك، لابن خرداذبه، ومقتطفات من كتاب: الخراج، لقدامة ابن جعفر (١٨٨٩م)[٣٢] مهدىً إلى باربيير دي مينارد Barbier de Meynard وكارلو دي لاندبيرغ Carlo de Ladberg (١٨٤٨- ١٩٢٤م). [الرسم٧]

- ابن خرداذبه:

A: مخطوط فينا رقم ONB, Mixt 783 (فهرس لويبنشتاين Loebenstein ص١٩٧ رقم ٢٤٨). اشترى كارلو دي لاندبيرغ هذا المخطوط من الشرق، وأهداه إلى مكتبة فينا ، واشترط أن يكون دي خويه أول من يستخدمه. فكان المخطوط الأساسي.

B: مخطوط أكسفورد، مكتبة البودليان، Hunt. 433 (فهرس أوري Uri ص ٢١٦رقم ٩٩٣). مؤرخ في ٦٣٠ هجرية. غير مكتمل، وبه ثغرات. وهناك نسخة من هذا المخطوط، هي مخطوط

---

[٣٢] كتاب المسالك والممالك، تأليف أبي القاسم، عبيد الله بن عبد الله ابن خُرْداذبه، إضافة إلى مقتطفات من كتاب الخراج، لمؤلفه قُدامة بن جعفر، وقد قام م.ج. دي خويه، بتحقيقهما مع النسخة الفرنسية ، مع وضع فهارس ومسرد Lugduni Batavorum ، (أ.ج. بريل) ١٨٨٩م .

برلين(2) Spr. 4 ، فهرس ألورد ، المجلد الخامس، ص ٣٦١، رقم ٦٠٣١

- قُدامة بن جعفر:

الأجزاء الجغرافية والإحْصائية فقط (المنزلة السابعة، وهي كل ما هو محفوظ من النصّ).

Cod: نقطة بداية التحقيق، نسخة من مخطوط إستانبول، (مكتبة كوبريلي)، كانت في حيازة شارلز شيفر Charles Schefer في باريس. ثم قورنت نسخة دي خويه الخاصة المأخوذة من نسخة شيفر على يد هيرمان غيس Hermann Gies بطلب من دي خويه - وكان هيرمان غيس مستشرقًا يعمل في السفارة الألمانية في إستانبول - مع نسخة كوبريلي الأصليّة. (دفتر كوبريلي ص٧٠، فهرس ششن، المجلد الأول، ص٥٤٨ رقم ١٠٧٦. ويبدو أن ششن[٣٣] لم يكن يعلم شيئًا عن تحقيق المخطوط بهذه الطريقة. أما نسخة دي خويه الخاصة المقارنَة، فهي الآن في مكتبة جامعة لايدن: (قائمة فورهويف المختصرة ص ١٥٨(Or. 5580

---

[٣٣] فهرس المخطوطات في مكتبة كبريلي، إعداد رمضان ششن وجواد ازكي وجميل أقيكار ، تقديم أكمل الدين إحسان أوغلو، إستانبول، ١٩٨٦م.

مكتبة الجغرافيين العرب

المجلد السابع، يحتوي على نصين: الجزء السابع من كتاب: الإعلاق النفيسة، لابن رسته، وكتاب: البلدان، لليعقوبي (١٨٩٢م)[٣٤]. وقد سبق لدي خويه عام ١٨٦٠م أن نشر جزءً من نص اليعقوبي على شكل أطروحة لنيل الدكتوراه[٣٥]. مُهدىً إلى فرديناند فستنفيلد Ferdinand Wüstenfeld (١٨٠٨-١٨٩٩م) [الرسم ٨]

- ابن رسته :

Cod : مخطوط لندن، المتحف البريطاني Add.23, 378. ملحق الفهرس (١٨٧١م) ص٦٠٤- ٦٠٧

- اليعقوبي :

Cod : مخطوط ميونيخ BSB . طبقًا لمقدمة دي خويه (ص٨) في الجزء الأول من مجموعة موتشلنسكي Muchlinski، وقد اشتراها متحف ميونيخ فيما بعد.

---

[٣٤] كتاب الأعلاق النفيسة، الجزء السابع، تأليف أبي علي، أحمد بن عمر بن رُسْتَه، وكتاب البلدان، تأليف أحمد بن أبي يعقوب ابن واضح الكاتب اليعقوبي، تحقيق م.ج. دي خويه، Lugduni Batavorum، (أ.ج.بريل) ١٨٩٢م.

[٣٥] نموذج مأخوذ من كتاب اليعقوبي، مع شروح وإيضاحات بقلم مايكل جانوس دي خويه، Lugduni Batavorum ، (أ.ج. بريل) ١٨٦٠م.

مكتبة الجغرافيين العرب

المجلد الثامن كتاب: التنبيه والإشراف، للمسعودي، (١٨٩٤م)[٣٦]، مهدىً إلى فكتور. ر. روزن Victor R. Rosen (١٨٤٩- ١٩٠٨م). [الرسم٩]

L : مخطوط لندن، المتحف البريطاني، Add. 23270، ملحق الفهرس (١٨٧١م) ص٥٤٨- ٥٤٩.

P : مخطوط باريس، دار الكتب الوطنية الفرنسية، Arabe.1407. فهرس دو سلان ص٢٨٤). استخدمه دي خويه في لايدن باتفاق خاص مع دار الكتب الوطنية الفرنسية.

---

[٣٦] كتاب التنبيه والإشراف، لأبي الحسن، علي بن الحسين المسعودي، تحقيق م.ج.دي خويه، مع فهارس ومسرد للمجلدين السابع والثامن، Lugduni Batavorum، (أ.ج. بريل)، ١٨٩٤م.

DESCRIPTION

DE L'AFRIQUE ET DE L'ESPAGNE

PAR

Edrîsî

TEXTE ARABE PUBLIÉ POUR LA PREMIÈRE FOIS D'APRÈS LES MAN. DE PARIS ET D'OXFORD
AVEC UNE TRADUCTION, DES NOTES ET UN GLOSSAIRE

PAR

R. DOZY ET M. J. DE GOEJE.

LEYDE, E. J. BRILL,
Imprimeur de l'Université.

1866.

[الرسم ١] صفحة الغلاف من نشرة ر. دوزي و دي غويه، لوصف إفريقية والأندلس، من نزهة المشتاق للإدريسي. أ. ج. بريل – ليدن ١٨٦٦م

BIBLIOTHECA GEOGRAPHORUM ARABICORUM

EDIDIT

M. J. DE GOEJE.

PARS PRIMA.

VIAE REGNORUM.

DESCRIPTIO DITIONIS MOSLEMICAE

AUCTORE

Abu-Ishák al-Fárisí al-Istakhrí.

LUGDUNI BATAVORUM.
APUD E. J. BRILL,
ACADEMIAE TYPOGRAPHUS.
1870.

[الرسم ٢] صفحة الغلاف من نشرة كتاب مسالك الممالك لأبي إسحاق الاصطخري (المكتبة الجغرافية العربية/ ١)- بريل ١٨٧٠م

VIAE ET REGNA.

DESCRIPTIO DITIONIS MOSLEMICAE

AUCTORE

Abu'l-Kásim Ibn Haukal.

EDIDIT

M. J. DE GOEJE.

LUGDUNI BATAVORUM.
APUD E. J. BRILL.
1873.

[الرسم ٣] كتاب المسالك والممالك لأبي القاسم بن حوقل
(المكتبة الجغرافية العربيّة/ ٢)– بريل ١٨٧٣م

BIBLIOTHECA GEOGRAPHORUM ARABICORUM.

EDIDIT

M. J. DE GOEJE.

PARS TERTIA.

DESCRIPTIO IMPERII MOSLEMICI

AUCTORE

Al-Mokaddasi.

LUGDUNI BATAVORUM.
APUD E. J. BRILL.
1877.

[الرسم ٤] أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي ،
(المكتبة الجغرافية العربية/ ٣)- بريل ١٨٧٧م

BIBLIOTHECA GEOGRAPHORUM ARABICORUM.

PARS QUARTA.

CONTINENS

INDICES, GLOSSARIUM ET ADDENDA
ET EMENDANDA
AD PART. I–III

AUCTORE

M. J. DE GOEJE.

LUGDUNI BATAVORUM.
APUD E. J. BRILL.
1879.

[الرسم ٥] فهارس الأجزاء الثلاثة الأولى من (المكتبة الجغرافية العربية/ ٤)– بريل ١٨٧٩م

BIBLIOTHECA GEOGRAPHORUM ARABICORUM

EDIDIT

M. J. DE GOEJE.

PARS QUINTA.

COMPENDIUM LIBRI

KITÂB AL-BOLDÂN

AUCTORE

Ibn al-Fakîh al-Hamadhânî.

LUGDUNI-BATAVORUM.
APUD E. J. BRILL.
1885.

[الرسم ٦] كتاب البلدان، لابن الفقيه الهمذاني
(المكتبة الجغرافية العربية/ ٥)- بريل ١٨٨٥م

BIBLIOTHECA GEOGRAPHORUM ARABICORUM

EDIDIT

M. J. DE GOEJE.

PARS SEXTA.

KITÂB AL-MASÂLIK WA'L-MAMÂLIK

AUCTORE

Abu'l-Kâsim Obaidallah ibn Abdallah

IBN KHORDÂDHBEH.

ACCEDUNT EXCERPTA E

KITÂB AL-KHARÂDJ

AUCTORE

Kodâma ibn Dja'far.

LUGDUNI-BATAVORUM.
APUD E. J. BRILL.
1889.

[الرسم ٧] صفحة الغلاف، لكتابيْ: المسالك والممالك لابن خرداذبة،-
وكتاب الخراج لقدامة بن جعفر (المكتبة الجغرافية العربية/ ٦)- بريل ١٨٨٩م

BIBLIOTHECA GEOGRAPHORUM ARABICORUM

EDIDIT

M. J. DE GOEJE.

PARS SEPTIMA.

KITÂB AL-A'LÂK AN-NAFÎSA VII

AUCTORE

Abû Alî Ahmed ibn Omar

IBN ROSTEH

ET

KITÂB AL-BOLDÂN

AUCTORE

Ahmed ibn abi Jakûb ibn Wâdhih al-Kâtib

AL-JAKÛBÎ.

EDIT. SECUNDA.

LUGDUNI BATAVORUM.
APUD E. J. BRILL.
1892.

[الرسم ٨] صفحة الغلاف لكتابي: الأعلاق النفيسة لأبي علي، ابن رسته،
وكتاب البلدان، لليعقوبي (المكتبة الجغرافية العربية/ ٧)- بريل ١٨٩٢م

BIBLIOTHECA GEOGRAPHORUM ARABICORUM

EDIDIT

M. J. DE GOEJE.

PARS OCTAVA.

KITÂB AT-TANBÎH WA'L-ISCHRÂF

AUCTORE

al-Masûdî.

ACCEDUNT INDICES ET GLOSSARIUM AD TOMOS VII ET VIII.

LUGDUNI-BATAVORUM.
APUD E. J. BRILL.
1894.

[الرسم ٩] التنبيه والإشراف، للمسعودي (المكتبة الجغرافية العربية/ ٩)

بريل ١٨٩٤.

أعمال المؤتمر الخامس لمؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي

علوم الأرض في المخطوطات الإسلامية



تحرير

إبراهيم شبوح

مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي

لندن ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م

النصوص الجغرافية غير المنشورة: حَصْر وتقييم

أيمن فؤاد سيِّد

تُمَثِّلُ النُّصوص الجغرافية الإسلامية مصدرًا أساسيًا لدراسة الحضارة العربية الإسلامية: أدبًا وتاريخًا وإدارة واقتصادًا، إضافة إلى مادتها الجغرافية البحتة. وتَعَرَّف المسلمون على التراث اليوناني في الجغرافيا والفَلَك ونقلوه إلى العربية في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي.

وعرف المسلمون اعتبارًا من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي نمط «الجغرافيا الوَصْفيَّة» الذي يرتبط به ارتباطًا وثيقًا أدب الرحلات. ويعد القرن الماضي والقرن الرابع للهجرة عصر الازدهار الخلّاق للأدب الجغرافي العربي، ولا يرجع ذلك فقط إلى العدد الوفير من المؤلِّفين الذين أثروا المكتبة العربية بمؤلفاتهم، وإنما إلى ظهور حركة جديدة استمرت لمدة نصف قرن تُخْرج مجموعةً من المصنفات يسودها طابع الوحدة والانسجام أطلق عليها كراتشكوفسكي اسم «المدرسة الكلاسيكية للجغرافية العربية» وهي المدرسة التي اهتمت

بوصف «المسالك والممالك» وصاحبها ظهور المُصَوّرات الجغرافية أو «الخارطات»[1].

وشهدت الفترة الممتدة بين القرنين السادس والعاشر للهجرة/الثاني عشر والسادس عشر للميلاد مؤشرات انهيار التأليف الجغرافي العربي. ففيما عدا بعض الاستثناءات -مثل مؤلفات الشريف الإدريسي وياقوت الحموي وأبو الفداء -تراجع مستوى الإنتاج الجغرافي كثيرًا مقارنًا بالفترة السابقة. ولم تعد أصالة المعلومات ونقدها -التي كانت أهم ما يُميّز المؤلفين السابقين -تعني المؤلفين الجُدُد في شيء وحلّ محلها تلخيص المعلومات التي توجد بتفصيل وافٍ في المؤلفات السابقة. ولكن أهم ما ميز هذه الفترة هو ظهور مؤلفات كبيرة الحجم اهتمت بإبراز المعارف الجغرافية الإقليمية بفضل العديد من المؤرخين والجغرافيين، رغم أنهم لم يُقدّموا أيّ إسهام ملحوظٍ ولا تظهر لديهم أية أصالة في المفهوم أو التطبيق، كما أنه لم يطرأ أيّ تطوّر جوهري على الجغرافيا الفلكية أو الطبيعية البشرية.

ورغم أن العراق كان مركز النشاط الجغرافي في العصر السابق فإن دوره تراجع وحلّت محله مصر والشام التي شهدت في عصر المماليك ازدهار نمط الموسوعات وأدب الخطط.

---

[1] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم، بيروت -دار الغرب الإسلامي ١٩٨٧، ٢١٢.

كتب الجغرافيا الرياضية

تقوم الجغرافيا الرياضية على أساس وَضْع صورة الأرض المعمورة بناء على الأطوال والعروض المستخرجة بالقياسات الفلكية، وقد وَصَل هذا العلم إلى العلماء المسلمين بعد ترجمة مؤلفات بطلميوس وخاصة كتاب «الزيج» الذي عمله ثاوون الإسكندراني، وكتاب «المِجسْطي»، اللذين ترجما بين سنتي ١٧٥ -١٨٠هـ، وكتاب «الجغرافيا» الذي ترجم مرتين أو ثلاث على يد كل من يعقوب بن إسحاق الكِنْدي وثابت بن قُرَّة الحَرَّاني وابن خُرداذبْه[٢].

وفي عهد الخليفة المأمون العباسي المتوفى سنة ٢١٨هـ/٨٣٣م أسّس مَرصد فلكي في حي الشماشية ببغداد وعهد المأمون إلى الفلكيين الذين عملوا فيه بمهمة امتحان البيانات الواردة في زيج بطلميوس وكتاب المجسطي فيما يتعلق بحركات الشمس والسيارات. ونتيجة لذلك ألف العديد منهم جداول فلكية أي زيجات أطلق عليها تعبير «الممتحن» وأصبح هؤلاء العلماء معروفين بلقب «أصحاب الممتحن»[٣]. وقد فقدت كل هذه الزيجات ولم يبق منها سوى ما اقتبسه العلماء المتأخرون مثل

---

[٢] فؤاد سزجين: مساهمة الجغرافيين العرب والمسلمين في صنع خريطة العالم، فرانكفورت ١٩٨٧، ١٩، ٢٠.

[٣] فؤاد سزجين: مقدمة الزيج المأموني الممتحن ٥.

المسعودي(٤) وأبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري(٥) (من القرن السادس الهجري).

ومع ذلك فقد احتفظت مكتبة الإسكوريال بأسبانيا بنسخة من هذا الزيج تعد الثمرة الوحيدة التي وصلت إلينا من جهد هؤلاء الفلكيين القدماء، برقم ٩٢٤ وضعها مؤلف فارسي الأصل هو يحيى بن [أبي] منصور المتوفى في حوالي سنة ٢١٥هـ/٨٣٠ م، قدّم لها فؤاد سزجين في سنة ١٩٨٦م نشرة بالفاكسميلي بعنوان «الزيج المأموني الممتحن».

وكان من نتيجة هذا العمل أن كلف المأمون سبعين من العلماء الفلكيين بعمل صورة الأرض التي تعد من أكبر إسهامات المسلمين في تاريخ العلوم، وقد احتفظت إحدى نسخ كتاب «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» لابن فضل الله العمري المحفوظة في مكتبة أحمد الثالث بإستانبول برقم ١/٢٧٩٧ بصورة لخريطة العالم المأمونية وهي مؤرخة سنة ٧٤٠هـ/١٣٤٠ م بين صفحتي ٢٩٣- ٢٩٤.

ومن أهم مصادر الجغرافيا الرياضية التي كانت لها تأثير كبير على الإنتاج الجغرافي اللاحق كتاب «صورة الأرض» المنسوب للخوارزمي(٦)، ولم يظفر كتاب في الفلك والجغرافيا

(٤) المسعودي: التنبيه والإشراف (لايدن) ٣٣.

(٥) الزهري: كتاب الجغرافيا، تحقيق هادي صادق، (BEO XXI "1968", p. 308)

(٦) فؤاد سزجين: المرجع السابق ٢١، كراتشكوفسكي: المرجع السابق ١١٣ .

الرياضية بطبعة علمية نموذجية وتعليقات ضافية كما هو الحال مع «الزيج الصابىء» الذي نشره بين سنتي ١٨٩٩و ١٩٠٧ كارلو ألفونسو نللينو(٧).

أما «الزيج» الذي عمله في مصر أبو الحسن علي بن يونس الصَّدفي والذي بدأ العمل فيه سنة ٣٨٠هـ/٩٩٠م على جبل المقطّم في المرصد الذي ضم فيما بعد إلى «دار الحكمة» التي أسسها سنة ٣٩٥هـ/١٠٠٥م الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله وعرف باسم «الزيج الحاكمي الكبير» فقط حفظ لنا في عدة مخطوطات غير كاملة، ولم تنشر منه سوى شذور قليلة ونقل جزء منه إلى الفرنسية كوسان دي برسفال Caussin de Percival سنة ١٨٠٣ -١٨٠٤م.

❖ ❖ ❖

وتنقسم المُصنفات الجغرافية التي كتبت خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة إلى نوعين كبيرين:

١ - مؤلفات تناولت جغرافية العالم مع تناولها تفصيليًا «دار الإسلام»، وتعرض في الوقت نفسه للجغرافيا الفلكية والطبيعية البشرية والاقتصادية يمثلها ابن خرداذبه واليعقوبي وابن الفقيه وقدامة بن جعفر والمسعودي. كان العراق هو

---

(٧) كراتشكوفسكي: المرجع السابق ١٢٢ .

المركز الرئيسي الذي ظهرت فيه هذه المصنفات وينسب إليه العدد الأكبر من هولاء الجغرافيين، لذلك فقد أطلق على هذه المؤلفات «المدرسة العراقية».

٢ - مؤلفات تمثلها كتابات أبي زيد البلخي والإصطخري وابن حوقل والمقدسي البشاري، تناولت فقط « دار الإسلام» واصفة كل إقليم بطريقة منفردة، ولم تعرض أبدًا للبلاد غير الإسلامية سوى للأقاليم المتاخمة لها[٨]. يقدم لنا ممثلو هذه «المدرسة الكلاسيكية للجغرافيا الإسلامية» أفضل وصف للعالم الإسلامي استقوا مادتهم فيه عن طريق المشاهدة من خلال رحلاتهم التي انتظمت أقطارًا وأقاليم مختلفة، أو مما سمعوه من أهل تلك النواحي، وعالجوا فيه الحديث على جميع المسائل المتعلقة بالسكان والمواصلات والحياة العامة في صورها السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

واستندت مصنفات هذه المدرسة على سلسلة من الخارطات أطلق عليها كراتشكوفسكي اسم «أطلس الإسلام» تُمثل أوج ما بلغه فن رسم الخرائط الجغرافية «الكارتوغرافيا» عند العرب والمسلمين[٩].

---

[٨] Maqbūl Aḥmad, EI, art: Djughrāfia, pp. 593-94.

[٩] كراتشكوفسكي: المرجع السابق ٢١٢ .

ويحتوي هذا الأطلس دائمًا وفي نظام لا يتغيّر إحدى وعشرين خارطة متتابعة تبدأ بخارطة العالم المستديرة أو الخارطة المأمونية، والغرض الأساسي من هذا الأطلس هو تصوير «العالم الإسلامي» وفقًا لمفهوم هذا اللفظ عند الإصطخري وابن حوقل بوجه خاص[١٠].

ورائد هذه المدرسة هو أبو زيد البلخي المتوفى سنة ٣٢٢هـ/٩٣٤م الذي كتب كتابه «صور الأقاليم» نحو سنة ٣٠٨هـ/٩٢٠م أو بعد ذلك بقليل. ولم يصل إلينا نص كتاب البلخي كما أن المخطوطات التي نسبت إليه في فترة ما ترجَّح أنها للإصطخري، ومع ذلك فإن رأي دي خويه الذي يرى أن كتاب الإصطخري يمثل نسخة موسعة لكتاب البلخي أتمها بين سنتي ٣١٨ -٣٢١هـ/٩٣٠ -٩٣٣م في حياة البلخي نفسه يظل مقبولاً[١١].

وانحصر اهتمام ممثلي هذه المدرسة على وجه التقريب في وصف «دار الإسلام» خاصة إيران، باستثناء ابن حوقل الذي يعد الخبير الأول من بين جغرافيي هذه المدرسة بشؤون المغرب، ويبدو ذلك أكثر وضوحًا من خلال مخطوطة كتابه «صورة الأرض» التي نشرها كرامرز Kramers وذلك بمقارنتها بطبعة دي خويه حيث نجد فيها وصفًا مفصلاً لمنطقة البُجَة وتاريخهم ولإيرتريا مع

---

(١٠) كراتشكوفسكي: ٢٢٤ .

(١١) Maqbūl Aḥmad, OP. cit., p. 595.

ذكر أسماء ما لا يقل عن مائتين من قبائل البربر، كما يقدم لنا وصفًا مفصلاً لموضع صقلية[١٢]. ويقدم لنا نص ابن حوقل كذلك صورة من أدق الصور للأندلس في العصر الأموي مما جعل الكثير من الباحثين يرجحون أنه كان يعمل بلا ريب جاسوسًا للفاطميين. كذلك فإن وصفه لأصفهان يمثل أهم إضافة في هذه المصنفات للجانب الشرقي في العالم الإسلامي.

وتولى المستشرق الهولندي ميشيل دي خويه M. De Goeje (١٨٣٦ -١٩٠٩م) مهمة إخراج «مكتبة الجغرافيين العرب» Bibliotheca Geographorum Arabicorum التي اشتملت على أهم مؤلفات هذه المدرسة «للإصطخري والمقدسي والبشاري وابن الفقيه الهمداني وابن خرداذبه وقدامة بن جعفر وابن رسته واليعقوبي والمسعودي» بين سنتي ١٨٧٠ و١٨٩٤، ثم أعاد نشر كتاب المقدسي البشارى «أحسن التقاسيم» في سنة ١٩٠٦ اعتمادًا على مخطوطات جديدة.

وبرغم اعتماد دي خويه في إعداد طباعة "مكتبة الجغرافيين العرب" على مخطوطات فريدة، فقد شهدت الأعوام التالية لوفاته الكشف عن عدد كبير من مخطوطات مؤلفات هذه المدرسة بينها ما لايقل عن اثنتي عشرة مخطوطة في مكتبات إستانبول وحدها بعضها قديم جدًا، وكلها تؤكد

---

(١٢) كرامرز: مقدمة صورة الأرض لابن حوقل p.II.

ازدياد الحاجة إلى طبعة جديدة للأجزاء الأولى من «مكتبة الجغرافيين العرب»، مع ربطها بمصادرها ومقابلتها على نقول المتأخرين منها وعلى المصادر الموازية الأخرى. وعلى ذلك فقد قام كرامرز J.H. Kramers بإصدار طبعة ثانية لكتاب «المسالك والممالك» لابن حوقل بعنوان «صورة الأرض» سنة ١٩٣٨ اعتمادًا على مخطوطة مكتبة متحف طوبقبو سراى بإستانبول رقم ٣٣٤٦ وهي نسخة قديمة مؤرخة سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م، وأصدر محمد جابر الحيني طبعة ثانية لكتاب «المسالك والممالك» للإصطخري سنة ١٩٦١.

ومن بين الكتب التي نشرها دي خويه في هذه السلسلة «مختصر كتاب البلدان» لابن الفقيه الهمداني وهو المختصر الذي عمله في عام ٤١٣هـ/١٠٢٢م شخص يدعى أبو الحسن علي ابن جعفر الشيرازي ربما كان هو نفسه الناسخ الذي نسخ نسخة «إصلاح المنطق» لابن السكيت المحفوظة في مكتبة كوبريلي ونسخة «ديوان البحتري» الموجودة في نفس المكتبة. وقد ذكر ابن النديم أن «كتاب البلدان» لابن الفقيه كان يقع في نحو ألف ورقة وأضاف أنه أخذه من كتب الناس وسلخ كتاب الجيهاني[١٣]، كما اطّلع المقدسي البشاري على نسخة من هذا الكتاب كانت تقع في خمسة مجلدات[١٤]. ويبدو أن

---

[١٣] ابن النديم: فهرست، نشرة تجدد ١٧١ .

[١٤] المقدسي: أحسن التقاسيم، لايدن ١٩٠٦، ٤ .

أصل كتاب ابن الفقيه الذي صنفه نحو عام ٢٩٠هـ/٩٠٣م قد فقد منذ زمن بعيد، وإن كان ياقوت الحموي -في مطلع القرن السابع الهجري - قد وقف على المسودة الأصلية للكتاب ونقل عنها فقرات مطولة. ثم اكتشف العالم التركي زكي وليدي طوغان في المكتبة الرضوية في مشهد بإيران في مجموع جغرافي رقمه ٥٢٢٩ عرّف به سنة ١٩٢٤ الجزء الثاني من مسودة الكتاب الأصلي يتناول العراق وأقاليم آسيا الوسطى؛ وقد نشر هذا المجموع -الذي يشتمل كذلك على نسخة ناقصة لرحلة ابن فضلان ورسالتين لأبي دُلَف مسعر بن مهلهل الخزرجي الينبوعي تصفان رحلته إلى الصين ورحلته إلى أذربيجان وفارس التي قام بها نحو سنة ٣٣١هـ/ ٩٤١م - الدكتور فؤاد سزجين سنة ١٩٨٧ بطريقة الفاكسميلي.

كذلك فإن ما نشره دي خويه من كتاب «المسالك والممالك» لابن خرداذبه لا تمثل سوى المسودة الأولى للكتاب.

وإذا كانت هذه هي مصنفات هذه المدرسة التي وصلت إلينا وتمّ نشرها، فما هي الكتب الجغرافية التي ترجع إلى هذه الفترة وفقدت أصولها أو حفظت لنا منها نقولٌ في المؤلفات المتأخرة. يذكر ابن النديم أن «أول من ألف في «المسالك والممالك» كتابًا ولم يتمه أبا العباس جعفر بن أحمد المرزوي»[١٥]

---

[١٥] ابن النديم: الفهرست ١٦٧ وعنه ياقوت: معجم البلدان ٢: ٤٠٠ .

وأضاف أن كتبه عزيزة جدًا وأنه توفي بالأهواز وحملت كتبه إلى بغداد وبيعت في طاق الحراني سنة ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م(١٦)، ويتزامن هذا التاريخ مع التاريخ الذي كان ابن خرداذبه قد فرغ فيه من المسودة الأولى بل وربما من الثانية لكتابه الذي يحمل العنوان نفسه.

ويبدو أن كُتب المرزوي قد اختفت بعد بيعها في طاق الحراني، فلم يحفظ لنا التاريخ أية معلومات عنها فيما عدا إشارات ضئيلة واقتباسات حفظها لنا كل من ابن الفقيه الهمداني وياقوت الحموي تتعلق بالقبائل التركية وحجر المطر(١٧)، واستخلص كراتشكوفسكي من هذه الروايات أن آثار المرزوي كانت تضم مادة قيمة عن جغرافية آسيا الوسطى!.

ويرجع إلى هذه الفترة جغرافي بارز كان له تأثير عميق على نمو وتطور الجغرافيا العربية هو الوزير أبو عبد الله أحمد بن محمد بن نصر الجيهاني الكاتب وزير نصر بن أحمد الثاني الساماني صاحب خراسان الذي ذكر ابن النديم أنه ألف كتابًا في «المسالك والممالك»(١٨). ويرجح أن ذلك كان قبل عام ٣١٠هـ/ ٩٢٢م، وذكر المقدسي أنه رآه في سبع مجلدات في خزائن عضد

---

(١٦) كراتشكوفسكي: المرجع السابق ١٤٤ .

(١٧) ياقوت: معجم البلدان ١: ٨٤٠ -٨٤٢ .

(١٨) ابن النديم: الفهرست ١٥٣ .

الدولة[١٩]، وللأسف فقد فُقِد كتابه اليوم. وبما أنه شغل رتبة الوزارة وكتب كتابه هذا وهو في بخارى فإنه تمكن من مدّ مجال بحثه إلى آسيا الوسطى والشرق الأقصى. واستخدم عدد كبير من الجغرافيين العرب كتاب الجيهاني فيما بعد والذي كان تبعًا لوصف المسعودي كتابًا « في صفة العالم وأخباره وما فيه من العجائب و المدن والأمصار والبحار و الأنهار والأمم ومساكنهم وغير ذلك من الأخبار العجيبة والقصص الطريفة»[٢٠]. وكانت المعلومات التي أوردها الجيهاني عن مناطق آسيا الوسطى المرجع الرئيسي الذي اعتمد عليه الشريف الإدريسي في «نزهة المشتاق» في وصف هذه البلاد[٢١].

وإذا كانت كل كتب «المسالك والممالك» السابق الإشارة إليها قد كتبت في العراق وفارس فإن جغرافيًا مصريًا عاش في أول عصر الدولة الفاطمية في مصر هو الحسن بن أحمد (محمد) المُهلبي صنف كتابًا في «المسالك والممالك» للخليفة الفاطمي العزيز بالله لذلك فقد اشتهر باسم «العزيزي».

وكتاب المهلّبي أهم مصدر اعتمد عليه ياقوت في كلامه عن السودان حيث اقتبس منه في أكثر من ستين موضعًا، وهو لا يقتصر على إفريقيا وحدها فياقوت يرجع إليه مثلاً أكثر من

---

(١٩) المقدسي: أحسن التقاسيم ٣ -٤ .

(٢٠) المسعودي: التنبيه والإشراف ٧٥.

(٢١) الإدريسي: نزهة المشتاق، روما -نابولي ١٩٧٠ -١٩٨٤، ٥، ٧٦، ٩٣٤، ٩٦١.

مرة بصدد مواضع مختلفة عن الجزيرة العربية[٢٢]، كما زار المهلبي سامراء وحفظ لنا ياقوت انطباعاته الشخصية عن أطلالها[٢٣].

ويمثل فقدان هذا المصنف خسارة جسيمة لا سيما أن ما حفظه لنا منه ياقوت (ذكره في ستين موضعًا) وأبو الفداء (ذكره في ١٣٥ موضعًا) من مقتطفات كثيرة وقصيرة جدًا يجعلنا على يقين من أن هذين المؤلفين كانا يعتبران المهلّبي ندًا لأعظم الجغرافيين. وفي الوقت الذي نجد أبو الفداء لا يستشهد به إلا فيما يتعلق بالبلدان الإسلامية، نعرف مما اقتبسه عنه ياقوت الحموي أن كتابه تجاوز حدود دار الإسلام ووصل إلى الشعوب المجاورة[٢٤].

وقد كشف الدكتور صلاح الدين المنجد في صيف عام ١٩٥٧ ضمن مجموع يمنى بمكتبة الأمبروزيانا بميلانو G3 عن قطعة من هذا الكتاب المفقود نقلها محمد بن الحسن الكلاعي المتوفي بعد سنة ٤٠٤هـ/١٠١٣م، أولها: «قال محمد بن الحسن الكلاعي: قرأت في كتاب المسالك والممالك العزيزي تأليف الحسن بن أحمد المهلبي» ونقل عنه صفة بيت المقدس وذكر ولاة

---

[٢٢] كراتشكوفسكي: المرجع السابق ٢٥٣؛ أندريه ميكيل: جغرافية دار الإسلام البشرية، دمشق ١٩٨٣، ١ / ٢: ١٢١ -١٢٢.

[٢٣] ياقوت: معجم البلدان ٣: ١٩ -٢٠.

[٢٤] أندريه ميكيل: المرجع السابق ١ / ٢: ١٢٢.

مصر وصفة دمشق[٢٥] .وظلّ كتاب المهلّبي معروفًا معرفة مباشرة إلى أيام دولة التيموريين فاستعمله في بداية القرن التاسع الهجري حافظ آبرو عندما وضع مصنفه في الجغرافيا.

وإذا كان المهلبي من أوائل الجغرافيين الذين وصفوا بلاد السودان، فإن كتاب «أخبار النوبة والمَقْرَة وعَلْوَة والبُجَة والنيل ومن عليه وقرب منه» للمؤلف المصري أبي محمد عبد الله بن أحمد ابن سُلَيم الأسْواني الذي عاش في منتصف القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي والذي بعثه القائد الفاطمي جَوْهر الصَّقْلَبي بكتاب إلى قِبْيرقي ملك النُّوبة، يعرض عليه فيه الإسلام وتسديد البَقْط الذي يجب أن يدفعه كل عام ملوك النوبة إلى حكام مصر، وعلى ذلك يكون قيام الأسواني بهذه البعثة في الفترة بين سنتي ٣٥٨هـ (وصول جوهر إلى مصر) و٣٦٢هـ (وصول المعز إلى مصر)، ويذكر المقريزي أن الأسواني ألَّف كتابه للخليفة الفاطمي الثاني العزيز بالله الذي حكم بين سنتي ٣٦٥و ٣٨٦هـ[٢٦]. ويشتمل الكتاب على وصف دقيق لكل النواحي التي رآها ولسكانها، ويوشك وصفه للنيل أن يكون هو الوصف الوحيد في الأدب الجغرافي العربي المبكر الذي يبين

---

(٢٥) صلاح الدين المنجد: «قطعة من كتاب مفقود -المسالك والممالك للمهلبي (المتوفى سنة ٣٨٠هـ/٩٩٠م)»، مجلة معهد المخطوطات العربية ٤ (مايو ١٩٥٨)، ٤٣ -٧٢.

(٢٦) المقريزي: المقفى الكبير ٤: ٥٧٤ -٥٧٥؛ كراتشكوفسكي: المرجع السابق ٢١٠

لنا المدى الذي وصلت إليه معرفة العرب بالمجرى الأعلى للنيل. ويبدو أن هذا الكتاب الذي فُقِد اليوم لم يُعرف خارج مصر فوصف الإدريسي مثلاً لمجرى النيل الأعلى يدل دلالة واضحة على مدى النقص الذي كان يعانيه ذلك المؤلف في المصادر التي تحت يده؛ ولكننا نعرف كتاب الأسواني الآن بفضل النقول التي نقلها عنه ثلاثة من المؤلفين المصريين المتأخرين هم: المَقريزي وابن إياس والمنوفي (٢٧) .

المعاجم الجغرافية

نشأ هذا الفرع من الأدب الجغرافي في بيئات اللغويين العرب أو من أسماهم ياقوت الحموي «طبقة أهل الأدب»(٢٨) في القرن الثاني للهجرة، وهم الذين قصدوا ذكر الأماكن العربية والمنازل البدوية. وتطور هذا الأدب تطورًا مستمرًا حتى ظهر في القرن الخامس الهجري كتاب «معجم ما استعجم» لأبي عبيد البكري، ثم في مطلع القرن السابع الهجري كتاب «معجم البلدان» لياقوت الحموي. وذكر ياقوت في مقدمة معجمه أهم الذين ألفوا في هذا الفرع وهم أبو سعيد الأصمعي وأبو عبيد

---

(٢٧) Troupeau, G.,"*La description de la Nubie d'al-Uswani*" Arabica, I (1954), pp. 76-88, Kheir, Hamad Mohammad, *A Contribution to a Textual problem: Ibn Sulyman al-Aswanī's Kitāb Akhbār al-Nūba wal-Maqurra wa al-Begha wa al-Nīl*" An. 1st xxI (1985).pp9-72 .

(٢٨) ياقوت: معجم البلدان ١ : ٧ .

السكوني والحسن بن أحمد الهمداني وأبو الأشعث الكندي وأبو سعيد السيرافي وأبو محمد الأسود الغُندجاني وأبو زياد الكلابي ومحمد بن إدريس بن أبي حفصة وأبو القاسم الزمخشري وتلميذه أبو الحسن العمراني، وأبو بكر محمد بن موسى الحازمي وأبو موسى محمد ابن عمر الأصفهاني وأبو الفتح نصر بن عبد الرحمن الإسكندري[٢٩].

وتوجد للمؤلفين الأخيرين نسخ من كتبهم لم تُنْشر بعد الأول «كتاب الأمكنة والمياه والجبال» لأبي الفتح نصر بن عبد الرحمن الإسكندري المتوفى سنة ٥٦١هـ/١١٦٥م توجد نسخة من كتابه في المكتبة البريطانية برقم ٢٣٦٠٣، والثاني «ما اتفق لفظه وافترق مُسمّاه في الأماكن والبلدان المشتبهة في الخط» لأبي بكر محمد بن موسى بن عثمان الحازمي المتوفى سنة ٦٨٤ هـ/ ١١٨٨م وقد نشرهما بطريقة الفاكسميلي فؤاد سزجين سنة ١٩٨٦، ١٩٩٠م.

أما كتاب «معجم البلدان» لياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م والذي أتمّ تأليفه سنة ٦٢١هـ/١٢٢٤م واشتمل على معطيات تاريخية وجغرافية واجتماعية تمثل مجمل المعارف الجغرافية في هذا الوقت، فهو مرجع لا غنى عنه لأي شخص يدرس الجغرافيا التاريخية العربية.

---

[٢٩] ياقوت: معجم البلدان ١:٧ .

وما نشر من «معجم البلدان» يمثل مسودة المؤلف للكتب
تي نشرها فستنفلد بين عام ١٨٦٦ و ١٨٧٣ والتي تعد من أجَلّ
دمات الاستشراق الأوربي للأدب العربي، ولكنها لا تستوفي
امًا المطالب العلمية التي يجب أن يكون عليها نشر النصوص
قديمة وتحقيقها مما يتطلب إخراج نشرة جديدة للكتاب على
ذا الأساس يضاف إليها نص كتابه الآخر «المشترك وَضْعًا
لمفترق صَقْعًا» أي معجم للمواضع التي تشترك في الاسم لأنه
ستخرجه من المعجم ليكون أسهل عند المراجعة.

ونشرت المعاجم الجغرافية اللاحقة لذلك نشرًا جيدًا مثل
لروض المعطار في خبر الأقطار» لعبد المنعم الحميري، و«مراصد
طلاع» لابن عبد المؤمن وهو مختصر لكتاب «معجم البلدان».

كتب الجغرافيا في المغرب و الأندلس

لم يصل إلينا -باستثناء ما كتبه الشريف الإدريسي -
كتابٌ واحدٌ كامل ألفه أندلسي في جغرافية الأندلس في لغته
عربية. فما كتبه أحمد بن محمد الرازي المتوفى سنة ٣٣٤هـ/
٩٤م كمقدمة جغرافية لكتابه «أخبار ملوك الأندلس» لم
صل إلينا منه إلا ترجمات مقتضبة محرفة إلى البرتغالية

والإسبانية ونقول متناثرة في ثنايا الكتب المتأخرة وخاصة عند المقري في «نفح الطيب»[٣٠].

ولا نملك من كتاب «الجغرافية» لمحمد بن أبي بكر الزهري المتوفي بعد سنة ٥٤٥هـ/١١٥١م سوى قطعة صغيرة يظن أنها جزء من مختصر الكتاب الأصلي الذي بناه على أساس كتاب الجغرافية أو الخريطة المأمونية للعالم التي وضعها سبعون من فلاسفة العراق للخليفة المأمون[٣١].

كما أنه لا توجد من كتاب «نظام المَرْجان في المسالك والممالك» لأحمد بن عمر بن أنس العُذْري الدلائي المتوفى سنة ٤٧٦هـ/١٠٨٣م أو ٤٧٨هـ/١٠٨٥م ببَلَنسيه سوى مجموعة أوراق غير مرتبة أو مرقمة نشر عبد العزيز الأهواني ما يخص الأندلس منها باسم «ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك» في مدريد سنة ١٩٦٥.

ولم يبق من مؤلفات محمد بن يوسف الورّاق المتوفي سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م إلا نقولٌ احتفظ ببعضها أبو عبيد البكري وابن عذارى، وكان الورّاق قد ألّف للحكم المستنصر كتابًا ضخمًا في ممالك إفريقية ومسالكها استصفاه أبو عبيد البكري في

---

[٣٠] حسين مؤنس: تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، مدريد ١٩٦٧، ٢١، ٥٩-٧٢.

[٣١] M. Hadj Sadok, "*Le Kitab al-Djarafiyya de Abu Abd Allah al- Zuhri*" BEO XXI (1963), pp.7-312.

كتابه: «المسالك والممالك»، ورغم أنه ينسب إليه أحيانًا ما قتبسه منه فإنه لم ينسب إليه في أحيان أخرى ما أخذه عنه مما جعلنا لا نتبين بدقة نصيب الورّاق من كتاب البكري، خاصة أن البكري -كما يشير حسين مؤنس -لم يكن مجرد ناقل ل كان جغرافيًا متصرفًا يُعدِّلُ فيما ينقله ويزيد عليه وينقص نه[٣٢]. ومحمد بن يوسف الورّاق هو أول من كتب في الغرب لإسلامي كتابًا بعنوان «المسالك والممالك»، ومن المقتبسات التي قلها عنه البكري يتبين أنه هو الذي ابتكر مزج الجغرافيا التاريخ، أي الوقوف عند كل موضع وقعت فيه واقعة تاريخية الحديث عنه بالتفصيل[٣٣].

أما أبو عبيد البكري، عبد الله بن عبد العزيز بن محمد لمتوفى سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م فقد اعتبره دوزي Dozy «أكبر غرافي أخرجته الأندلس قاطبة»[٣٤]، وهو مؤلِّف موسوعي نتظمت مؤلفاته في الأساس العديد من المصنفات اللغوية الأدبية، لذلك فقد اعتبر كراتشكوفسكي أن كتابه «معجم ا استعجم» ليس كتابًا في الجغرافيا بقدر ما هو كتاب لغوي، صد به ضبط المواضع نتيجة لشيوع التصحيف فيها[٣٥]، ولكن

---

[٣] حسين مؤنس: المرجع السابق ٧٣.

[٣] حسين مؤنس: المرجع السابق ٧٥.

[٣] كراتشكوفسكي: المرجع السابق ٢٩٦ .

[٣] كراتشكوفسكي: المرجع السابق ٣٠١ .

في الوقت نفسه عرّف بها وحدّدها وهو ما أضفى عليه كما يقول الدكتور عبد الله الغنيم صفته الجغرافية، فالمكان هو المحور الذي يدور حوله معجم البكري[٣٦].

وألّف البكري كتاب «معجم ما استعجم» في مقتبل حياته العلمية وهو أول من رتّب المعاجم على الترتيب الألف بائي. ورغم صدور طبعتين للكتاب الأولى بعناية المستشرق الألماني فستنفلد في جوتنجن بين سنتي ١٨٧٠ -١٨٧٧ اعتمادًا على مخطوطات كمبردج ولندن ولايدن وميلانو، والثانية بعناية مصطفى السَّقا في القاهرة بين سنتي ١٩٤٥ - ١٩٥١ اعتمد فيها في الأساس على نسخة المكتبة الأزهرية في القاهرة وهي نسخة قديمة ناقصة كتبت سنة ٥٩٦هـ بخط أندلسي جميل وصفها السقا بأنها «في الغاية من الصحة والضَّبط والوضوح ولو كانت كاملة لفاقت جميع الأصول الموجودة من هذا الكتاب، وأن على هامشها ما يفيد أنها قوبلت على أصل بخط المؤلف». كما أشار السّقا إلى أن هوامش النسخة حافلة بتعليقات تحتوي على زيادات وتصويبات كثيرة، أهمها تلك التعليقات المنقولة عن كتاب «التعليقات والنوادر» لأبي علي بعد الهجري ولكنه لم يستفد منها وأغفلها تمامًا، وعندما راجع الدكتور عبد الله الغنيم نسخة الأزهر وجد أن هذه التعليقات وهي أكثر من ثمانين

[٣٦] عبد الله الغنيم: مصادر البكري ومنهجه الجغرافي/ الكويت ١٩٩٦، ٢٦.

تعليقًا عبارة عن مواضع جديدة مضافة إلى الكتاب كتب في الهامش أمام موضعها من الترتيب المعجمي[٣٧].

واعتمد بنو سعيد المغربي على كتاب « المُسهِب في فضائل (أو غرائب) المغرب» لعبد الله بن إبراهيم بن وَزْمَر الحَجَّاري المتوفى سنة ٥٥٠هـ/١١٥٥م واتخذوه أساسًا لكتابهم الكبير «المُغْرِب في حُلَى المَغْرب» وأسماه علي بن سعيد «جاحظ المغرب»[٣٨].

ويندر أن نجد مؤلفًا أندلسيًا كتب بعد الحجّاري دون أن يشير إليه، مما يدلّ على أن كتابه كان مرجعًا وحُجّة. ومن المؤسف أن بني سعيد خلطوا كلامه بكلامهم وغيّروا وبدّلوا فيه ونسبوا إليه ما يزيد على ٢٥٠ نقلاً ولكننا لا نعرف إن كان النقل أمينًا أو مع تعديل وحذف وإضافة[٣٩].

كذلك فإن المَقَرّي أورد له في الفصل الذي خصه لجغرافية الأندلس في أول كتابه «نفح الطيب» ما يزيد على عشرين اقتباسًا كبيرًا تمثل أساس هذا الفصل. ونقل المقرّي في سائر كتابه «نفح الطيب» فقرات مطوّلة من «مُسهب» الحجّارى يتصل بعضها بالجغرافيا العامة للأندلس ويتصل بعضها الآخر بأوصاف

---

[٣٧] عبد الله الغنيم: المرجع السابق ٢٩ .

[٣٨] حسين مؤنس: المرجع السابق ١٤٩ .

[٣٩] نفسه: ١٤٩.

المدن والنواحي وخواصها[٤٠]. وما يتصل بالجغرافيا العامة ينفرد به المَقري أما ما يتصل بالنواحي فنجده في «المُغْرب» لبني سعيد كل فقرة في موضعها من ترتيب الكتاب[٤١].

ويعتقد حسين مؤنس أن الفقرات الخاصة بالوصف الجغرافي العام للأندلس كانت موجودة أيضًا في «مُغْرب» بني سعيد في الفصل الناقص من مخطوطته المنشورة المسمى «وَشْي الطِّرش في حُلَى جزيرة الأندلس»[٤٢].

واستخدام المقري المتوفى سنة ١٠٤١هـ/١٦٤١م لكتاب الحَجّاري يدل على أن الكتاب ظلّ متداولاً إلى هذه الفترة المتأخِّرة وفُقِد بعد ذلك بقليل، مثل كثير من النسخ التي ذكر أنه رآها واستخدمها وضاعت عنّا اليوم، ومنها أجزاء من «تاريخ ابن خلدون» ومن «الإحاطة في أخبار غرناطة» للسان الدين بن الخطيب[٤٣].

ومن مراجع بني سعيد الهامة التي لم تصل إلينا أيضًا الكتاب الهام المفقود للجغرافي ابن فاطمة الذي عاش في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، ومن أسف أننا لا نعرف

---

[٤٠] المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت - دار صادر ١٩٦٨، ٨ : (الكشاف) ٣٧.

[٤١] حسين مؤنس: المرجع السابق ١٥٦.

[٤٢] نفسه ١٥٦.

[٤٣] المقري: نفح الطيب ٦: ٢٩١، ٧: ١٠٥ -١٠٦.

حتى اسم هذا الرجل الذي يعد كتابه أحسن ما كتب المسلمون عن المناطق الواقعة جنوب الصحراء الكبرى[٤٤]. ويكاد ابن سعيد وابن خلدون أن يكونا أكثر من اعتمدوا عليه ونقلوا عنه. وتدل هذه النقول على أنه كان على علم دقيق بأحوال إفريقيا وأهلها جنوب الصحراء فهو من أهل السودان الغربي وطاف في رحلات متعددة بالسواحل الإفريقية كلها حتى وصل إلى الصومال والحبشة ثم أوغل داخل القارة ورأى منابع النيل ويدل كلامه وملاحظاته على ذلك دلالة صريحة [٤٥].

أما أهم الجغرافيين العرب في الغرب الإسلامي فهو دون شك الشريف الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس المتوفى في سَبْتة مسقط رأسه سنة ٥٦٠هـ/١١٦٠م، وكتابه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» يعد أشهر كتاب عربي في الجغرافيا في أوروبا عامة وفي أوساط المستشرقين خاصة. وإن لم يكن أدق كتب الجغرافيا العربية، وجاءت شهرته من أنه من تأليف جغرافي عربي قضى معظم عمره في صقلية، أي في مدينة أوربية تأثرت بالحضارة الإسلامية إلى حد بعيد، ولأنه يحتوى تبعًا لذلك على أوفر المعلومات عن أوربا في حينه. وقد ألّف الإدريسي كتابه هذا بناء على طلب روجر الثاني Roger II ملك صقلية. وظلّ الإدريسي لوقت طويل هو الممثل الوحيد للأدب

---

[٤٤] كراتشكوفسكي: المرجع السابق ٢٣٦.

[٤٥] حسين مؤنس: المرجع السابق ٥٠٧.

الجغرافي في العربي في الدوائر العلمية الأوربية رغم أنه أبعد من أن يكون أكبر الجغرافيين قاطبة داخل الإطار العام لتطور الأدب الجغرافي العربي[٤٦].

وإذا كان كتابه «نزهة المشتاق» قد نشر أكثر من مرة أهمها النشرة التي أصدرها المعهد الجامعي الشرقي بنابولي (١٩٧٠ -١٩٨٤)، فإن كتابه الآخر «أنس المُهَج ورَوْض الفُرَج» الذي ألّفه لغليوم الأول بن روجر الثاني Guillaume I^er^ ملك صقلية (١١٥٤ -١١٦٦م)[٤٧] والذي اكتشف نسخة منه في مكتبة حكيم أوغلي علي باشا في إستانبول المستشرق يوسف هوروفيتس J.Horovilz تحت رقم ٦٨٨ لم يُنْشر بعد، وقد ذكر المؤلف في مقدمته أنه يقتصر فيه «على الاختصار وترك الهذر والإكثار» مع استناده إلى نفس المصادر التي يذكرها في مقدمة «نزهة المشتاق». وقد كشف حديثًا عن نسخة أخرى للكتاب في مكتبة حسن حسنو بإستانبول برقم ١٢٨٩. وتحتوي نسخة حكيم أوغلي على أطلس مكون من ثلاث وسبعين خارطة

---

(٤٦) كراتشكوفسكي: المرجع السابق ٣٠٣ -٣٠٤.

(٤٧) Oman, G.," *A propos du second ouvrage géographique attribue au géographe arabe al–Idrisi*' Le Rawḍ al- Uns wa Nuzhat al-Nafs ',Folia Orientalia 12 (1970)pp.187-193.

عبد الله يوسف الغنيم :« كتاب أنس المهج وروض الفرج للشريف الإدريسي»، مجلة البيان -رابطة الأدباء بالكويت (مايو ١٩٧١)، ٢٤ -٢٩.

نشرها Muller سنة ١٩٢٦وسمّاها «أطلس الجيب». ولم يَقم أحد حتى الآن بدراسة العلاقة بين مصنفي الإدريسي وإن كان الدكتور فؤاد سزجين قد نشر نسختي الكتاب بطريقة الفاكسيميلي سنة ١٩٨٤م.

كتب الخطط (الطبوغرافيا المحلية)

وهي مصادر في غاية الأهمية حيث اشتملت مقدمات الكتب التي تناولت تاريخ المدن الإسلامية الكبرى على وصف طبوغرافي لهذه المدن. وقد نشرت أغلب هذه الأوصاف الطبوغرافية مثل التي وردت في مقدمة «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي ومقدمة «تاريخ مدينة دمشق» للحافظ ابن عساكر بل كانت موضع دراسات متخصصة. مهما يكن من أمر فالتاريخ المختلط بالوصف الطبوغرافي فيها يُلْقي ضوءًا على الحاضر كما يُفسّر المعالم الأثرية.

ولم تُفْرد مؤلفات خاصة للخطط سوى في مصر حيث نما وتطور بها هذا الفن منذ العصر الفاطمي وبلغ أوج ازدهاره في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي على يد المؤرخ الطبوغرافي الشهير تقي الدين أحمد بن علي المقريزي(٤٨). وأول من

---

(٤٨) Fu'ad Sayyid, A., *"L'Evolution de la composition du genre des khitat en Egypte musulmance"*. An 1st. XXXIII (1999), pp.1-11

ألف في خطط مصر كتابًا لم يصل إلينا هو الحسن بن أحمد ابن زولاق المتوفى سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م في بداية العصر الفاطمي. ثم تبعه أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القُضاعي المتوفى سنة ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م بكتابه «المختار في ذكر الخطط والآثار»، وكتب القُضاعي كتابه قبل سنى الشدة المستنصرية في أواسط القرن الخامس الهجري التي غيّرت الكثير من معالم مصر الفسطاط، لذلك يقول عنه المقريزي إنه «قد دُثر أكثر ما ذكره ولم يبق إلاّ يلمع أو موضع بَلْقَع مما حلّ بمصر من سني الشدة المستنصرية»(٤٩). ولم يُفقد هذا الكتاب مثل غيره من مصادر العصر الفاطمي إلاّ في فترة متأخرة فقد نقل عنه نقولاً مطولة كل من القلقشندي والمقريزي في القرن التاسع الهجري، بل إنه ظل متداولاً حتى العقود الأولى للقرن العاشر الهجري حيث نقل السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ/ ١٥٠٥م رواية فتح مصر في كتابه «حُسْن المحاضرة» عن نسخة من كتاب القُضاعي بخط القُضاعي نفسه(٥٠).

ومن كتب الخطط المصرية التي لم تصل إلينا كذلك كتاب «خطط مصر» لمحمد بن بركات بن هلال النحوي المصري المتوفى عام ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م عن عمر يناهز المائة، وإن كان المقريزي قد اطلع على نسخة منه بخط الشريف محمد ابن

(٤٩) المقريزي: الخطط ١:٥.

(٥٠) السيوطي: حسن المحاضرة ١/ ١٢٧.

أسعد الجوّاني[٥١]. وقد ألف الجوّاني نفسه المتوفى سنة ٥٨٨/ ١٠٩٢م كتابًا في الخطط عنوانه «النقط بعجم ما أشكل من الخطط» لم يصل إلينا وإن نقل المقريزي عن نسخة منه بخطه[٥٢].

وكان أول من وضع كتابًا في وصف خطط القاهرة القاضي محيي الدين أبو الفضل عبد الله بن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢هـ/١٢٩٣م، وعنوان كتابه «الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة»، وحتى وقت قريب كان كتاب ابن عبد الظاهر في عداد الكتب المفقودة إلى أن أشار إلى وجود نسخة منه أضيفت حديثًا إلى مكتبة المتحف البريطاني الدكتور عبد الله يوسف الغنيم[٥٣]، وقد نشرت هذا النص الهام في القاهرة عام ١٩٩٦م.

كذلك فقد كتب القاضي تاج الدين محمد بن عبد الوهاب ابن المتوج المتوفى سنة ٧٣٠هـ/١٣٣٠م كتابًا في خطط مصر الفسطاط وعنوانه «إيقاظ المُتَغَفِّلْ واتِّعاظ المتأمِّل» ذكر المقريزي أنه كتاب كبير قطع فيه مؤلفه على سنة خمس وعشرين وسبعمائة[٥٤].

---

(٥١) المقريزي: المقفى الكبير ٦: ٤٣١.

(٥٢) المقريزي: الخطط ٢: ٢٨٨.

(٥٣) عبد الله يوسف الغنيم: المخطوطات الجغرافية العربية في المتحف البريطاني، الكويت -المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ١٩٨٠، ٨٥.

(٥٤) المقريزي: الخطط ١: ٣٤٢.

وكتب بعد ذلك صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيْدُمُر العلائي المعروف بابن دُقماق المتوفى سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٧م كتاب «الانتصار لواسطة عقد الأمصار» وصل إلينا منه جزءان هما الرابع والخامس يمثلان مسودة الكتاب بخط المؤلف نفسه، ويعالج هذان الجزءان الحديث عن الفسطاط والقاهرة، وتبدو قيمة هذا المؤلف خاصة بالنسبة للفسطاط حتى اعتبره جورج سالمون G. Salmon أفضل دليل يمكن عن طريقه إعادة البناء الطبوغرافي لكل من الفسطاط والعسكر والقطائع عواصم مصر الإسلامية التي سبقت القاهرة(٥٥).

وهذه المسودة محفوظة الآن في دار الكتب المصرية تحت رقم ١٢٤٤ تاريخ وقد نشرها فولرز Vollers سنة ١٨٩٣من نشرة سقيمة في حاجة إلى إعادة نشرها مثل غيرها من الكتب التي نشرت في القرن التاسع عشر وفق القواعد العلمية لنشر التراث.

كان هؤلاء المؤلفون يمهدون الطريق إلى الاكتمال الذي بلغه هذا الفرع من الأدب الجغرافي العربي في مؤلف شيخ مؤرخي مصر الإسلامية تقي الدين أحمد بن علي المقريزي المتوفى سنة ٨٤٥ هـ/ ١٤٤٢م «المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار» الذي يكاد يكون الأثر الأكبر في مجهود حياته العلمية والذي يرتبط بالتاريخ وبالجغرافيا التاريخية على حد سواء، وقد أعددت دراسة

---

(٥٥) Salmon, G., *Essai sur la topographie du Caire*, le Caire-IFAO1902 p.II

مستقلة عنه ونشرت لي مؤسسة الفرقان الغرّاء مسودة الكتاب التي وجدتها بخط المقريزي نفسه سنة ١٩٩٥.

ومن أهم مصادر الخطط المصرية كتاب نشر جزءًا منه في أكسفورد سنة ١٨٩٥م المستشرق Evetts عن نسخة محفوظة في المكتبة الوطنية بباريس برقم ٣٥٧ منسوبة إلى من يُدعى أبا صالح الأرمني، وهو كتاب يشتمل على وصف طبوغرافي لكنائس وأديرة مصر المهمة ومواضعها موزعة توزيعًا جغرافيًا. وفي سنة ١٩٨٤م نشر الراهب صمويل السرياني نشرة جديدة للكتاب اعتبر فيها القسم الذي نشره Evetts الجزء الثاني للكتاب. ويشتمل الجزء الأول الذي نشر لأول مرة على كنائس وأديرة الوجه البحري وقسم عن القاهرة، أما الجزء الثاني فيشتمل على كنائس وأديرة قسم من القاهرة والوجه القبلي.

اعتمد صمويل السرياني في نشرته التي نسخها بيده وعلق عليها على مخطوطة جديدة لم يذكر مصدرها ولم يقدم لها وصفًا كوديكولوجيًا، كان الجديد الذي قدمته هذه النشرة المتواضعة هو تحديد مؤلف هذا الكتاب الحقيقي وهو شخص غير معروف أيضًا يدعى الشيخ المؤتمن أبو المكارم سعد الله ابن جرجس بن مسعود، أما أبو صالح الأرمني الذي نسب إليه الكتاب قبل ذلك فليس إلا مالك الجزء الثاني من النسخة

المحفوظة في باريس. وكتب أبو المكارم القسم الأساسي من كتابه بين سنتي ٥٥٥هـ/١١٦٠م و ٥٨٣هـ/١١٨٧م[٥٦].

واستقرت المخطوطة التي اعتمد عليها الراهب صمويل السرياني الآن في المكتبة الوطنية البافارية في Bayerischen Staatsbibliothek ميونيخ تحت رقم ٢٥٧٠ وكانت قبل ذلك في ملك أحد أقباط طنطا هو جرجس فلتاؤس عوض، وعرف علي باشا مبارك هذه المخطوطة واطّلع عليها واستفاد منها كثيرًا في الجزء السادس من كتابه «الخطط التوفيقية الجديدة»[٥٧].

وهذا الكتاب -في حاجة إلى إعادة نشره بالقواعد العلمية المعروفة لنشر وتحقيق المخطوطات لأهمية موضوعه وندرته.

وما زالت بعض الكتب التي تناولت خطط القاهرة بعد المقريزي مخطوطة لم تنشر مثل كتاب «التحفة الفاخرة في ذكر رسوم خطوط القاهرة» لشخص يدعى آقْبُغا الخاصكي ألفه السلطان الأشرف قانصوه الغوري، وتحتفظ المكتبة الوطنية في باريس بنسخة منه تحت رقم ٢٢٦٥ وهي لا تعدو أن

---

[٥٦] تاريخ الكنائس والأديرة في القرن الثاني عشر الميلادي لأبي المكارم سعد الله الذي نسب خطأ إلى أبي صالح الأرمني، إعداد وتعليق الراهب صمويل السرياني، مصر -دير السريان ١٩٨٤.

[٥٧] علي مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة ٦: ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩.

تكون نسخة من الجزء الثاني من خطط المقريزي الذي يبدأ بذكر الحارات مع بعض الخلافات الضئيلة في الأسلوب.

وكتاب « قطف الأزهار من الخطط والآثار» لمحمد بن محمد بن أبي السرور البكري الصديقي المتوفى سنة ١٠٦٠هـ/ ١٦٥٠م الذي اختصر فيه خطط المقريزي ولكنه أضاف إليه ما آلت إليه بعض المواضع وما استجدّ منها في العصر العثماني، منه نسخة في دار الكتب المصرية برقم ٤٥٧ جغرافية وأخرى برقم ٥٣ بلدان تيمور.

كتب الزيارات

ومن السمات المميزة لهذه الفترة ظهور عدد من المؤلفات التي تناولت المدن والمواضع المقدسة والتي تشد إليها الرحال للزيارة، وهي ليست مؤلفات جغرافية تمامًا وإنما تتناول الأماكن الإسلامية المقدسة وأضرحة الأولياء ومشاهد آل البيت ورباطات الصوفية حيث نجد فيها تفاصيل لغوية أو تاريخية حول أصل أسماء هذه المواضع. والغرض من هذه المؤلفات أن تكون دليلاً يرشد الأتقياء والورعين إلى كيفية زيارة هذه المواضع.

ومن أهم أمثلة هذا النوع من الأدب الجغرافي كتاب «الإشارات إلى معرفة الزيارات» لعلي الهروي المتوفى سنة ٦١١هـ/

١٢١٤م، و«الدارس في تاريخ المدارس» لعبد القادر ابن محمد النعيمي المتوفى سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م.

ونشأ هذا النوع من التأليف في أول الأمر في أوساط الشيعة إلا أن أهم كتب «الزيارات» وأكثرها تطورًا في طريقة تأليفها وعرضها هي كتب الزيارات الخاصة بالقاهرة وقرافتها الكبرى. وقد أحصى الباحث يوسف راغب كتب الزيارات الخاصة بالقاهرة وقرافة مصر في مقال نشره سنة ١٩٧٣، وبلغ عدد هذه المؤلفات واحدًا وعشرين مؤلفًا فقد قسم كثير منها(٥٨)، ونشر قسم آخر في نشرات سقيمة في حاجة إلى إعادة نشرها مرة أخرى مثل :« الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة في القرافتين الكبرى و الصغرى» لابن الزيات المتوفى سنة ٨١٤هـ/ ١٤١٢م، و«تحفة الأحباب وبغية الطلاب في الخطط المزارات» لنور الدين الحسن بن علي السخاوي أحد علماء القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي.

وما زال هناك كتاب «مصباح الدياجي وغوث الراجي وكهف اللاجي» لابن عين الفضلاء المتوفى سنة ٦٩٦هـ/ ١٢٩٧م ومنه نسختان في دار الكتب المصرية برقم ١٤٦١ تاريخ و٨٧ بلدان تيمور. وأحدث ما نشر من هذه الكتب كتاب «مرشد

---

(٥٨) Raghil, Y., "*Essai d'inventaire chronologique des Guides a l'usage des pelerins du Caire*", REI XLI,(1973) pp.259-80 .

الزوار إلى قبور الأبرار» للموفق بن عثمان المتوفي سنة ٦١٥هـ/ ١٢١٨م بتحقيق محمد فتحي أبو بكر في القاهرة سنة ١٩٩٥م.

كتب الموسوعات

ازدهر نمط الموسوعات في العصر المملوكي كرد فعل لما تعرضت له الثقافة العربية الإسلامية من ضياع في أعقاب الغزو المغولي وسقوط الخلافة الإسلامية في بغداد. وإذا كانت مؤلفات الجاحظ وابن قتيبة وأبي الفرج الأصبهاني تمثل نمط التأليف الموسوعي القديم، فإن الموسوعات التي ظهرت في العصر المملوكي بداية بموسوعة ابن العطواط الكتبي وانتهاءً بموسوعة القلقشندي تمثل خير ما أنتجه هذا العصر والتي أفرد للجغرافيا دائمًا مكانة مرموقة فيها. فقد أسفر النشاط الهائل لعلماء المسلمين على مدى عدة قرون عن تأليف عدد ضخم من الكتب في كل حقل من حقول المعرفة، بحيث أن عمر العالم المختص لم يكن يكف لقراءة كل ما كتب في ميدانه، ناهيك عن دراسته. ومن هنا كانت الحاجة إلى طلب الكتب الموسوعية المختصرة[٥٩]، وإن كان ابن خلدون قد عارض هذه

[٥٩] روزنتال، فرانز: مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي، ترجمة أنيس فريحة ومراجعة وليد عرفات، بيروت ١٩٦١، ١٦٦.

الظاهرة في «مقدمته» وعدّها دليلاً على التدهور الذي وصلت إليه الحياة العلمية في عصره[٦٠]!

ظهرت كل هذه الموسوعات في مصر كتبها عمال وعلماء حكومة سلاطين المماليك بغرض خدمة كتبة الدواوين للاستفادة بها في مجال عملهم، ولكن واقع الأمر أنها أفادت جمهورًا أعظم من المثقفين لأنها عالجت مسائل أعم وأكثر شمولاً في جميع فروع العلم التي يريد المؤلف أن يعرّف بها.

والظاهرة الملفتة للنظر أن مؤلفي هذه الموسوعات لم يروا في أنفسهم علماء، بل كانوا في حقيقة الأمر كتّابًا نابهي الشأن في ديوان الإنشاء المماليكي واكتسبوا خبرة كبيرة في هذا المجال. وأدّت وحدة الوسط الذي نشأت فيه هذه «الموسوعات» إلى تشابهها في الترتيب، وهو ترتيب يعكس أحيانًا وبوضوح تام أثر التدريب الصارم في الشؤون الديوانية[٦١]. ويبدو ذلك واضحًا أكثر ما يكون في مؤلف القلقشندي «صبح الأعشى».

أول موسوعات هذا العصر «مباهِج الفِكَر ومناهِجُ العِبَر» ألفها جمال الدين محمد بن إبراهيم بن يحيى الكتبي الوراق المعروف بالوطواط المتوفى سنة ٧١٨هـ/١٣١٨م؛ ولم يكن الوطواط من عمال الحكومة الذين مارسوا العمل في دواوينها بل

---

[٦٠] ابن خلدون، المقدمة، نشرة علي عبد الواحد وافي، د. ت، ٣: ١٢٤٢.

[٦١] كراتشكوفسكي: المرجع السابق ٤٣٥ -٤٣٦.

كان -كما يدل على ذلك لقبه -من المشتغلين بتجارة الكتب ونسخها مثل ياقوت الحموي، يقول الصفدي:« له معرفة بالكتب وقيمها» ، «وملكت بخطه تاريخ ابن الأثير المسمى بالكامل وقد ناقش المصنف في حواشيه وغلّطه وواخذه» [٦٢] .

و«مباهِج الفِكَر» موسوعة في العلوم الطبيعية والجغرافيا معروضة بأسلوب أدبي وموضحة بالشواهد من شعر ونثر. وتتقسم إلى أربعة فنون: الفلك والأجرام السماوية، والجغرافيا، والأجناس، والحيوان، والنبات.

وأهم فنون هذا المصنف النقلي هو الفن الثاني الذي خصصه الوطواط للجغرافيا، أمدنا فيه بمعلومات بالغة القيمة عن نظام الزراعة، وجغرافية القطر المصري بصفة خاصة.

ولعب مصنف الوطواط دورًا كبيرًا في تطوير نمط التأليف الموسوعي، حيث نقل عنه مرارًا معاصرة النويري واستعار منه طريقة التبويب إلى «فنون» محتفظًا أحيانًا بمحتويات الكتاب نفسها وخاصة في القسم الخاص بالنبات.

وللأسف فإن هذا الكتاب الهام لم يطبع منه سوى قسم صغير خاص بجغرافية مصر نشره في الكويت سنة ١٩٨١م عبد العال عبد المنعم الشامي.

---

[٦٢] الصفدي: الوافي بالوفيات ٢/ ١٦.

وتوجد مخطوطات الكتاب في المكتبة المارونية بحلب ومنها نسخة مصورة على الفوتوستات في دار الكتب المصرية برقم ٣٥٩ طبيعة وأخرى منسوخة عنها برقم ٣٢٣ف. كما توجد أجزاء أخرى من الكتاب في دار الكتب تحت رقم ٣٢٤و ٤٢٠ طبيعة، وفي المكتبة التيمورية بدار الكتب وفي مكتبة "البودليان" بأكسفورد برقم March 560. وتحتفظ مكتبة الفاتح بإستانبول تحت رقم ٤١١٦ بنسخة كاملة للكتاب في جزأين كتبت في أغلب الظن في حياة المؤلف نشرها بطريقة الفاكسميلي فؤاد سزجين سنة ١٩٩٠م.

أما أهم الموسوعات التي أنتجها عصر المماليك على الإطلاق فكتاب «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» لأحمد ابن يحيى بن فضل الله العمري المتوفى سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٩م، رغم أنها لم تلق ما يناسبها من الشهرة ووصفها الصفدي -معاصر العمري - بأنها «كتاب حافل ما يعلم أن لأحد مثله»[٦٣].

قسّم العمري كتابه إلى قسمين كبيرين جعل أحدهما: «في ذكر الأرض وما اشتملت عليه برًا وبحرًا»، والثاني «في سكان الأرض من طوائف الأمم» وكل من القسمين ينقسم بدوره إلى أقسام أطلق عليها العمري اصطلاحًا «النوع»، وهو نفس الاصطلاح الذي استخدمه معاصراه الوطواط والنويري.

---

[٦٣] الصفدي: الوافي بالوفيات ٨/ ٢٥٥ .

ويهمنا هنا من هذه الموسوعة القسم الأول الذي خصصه للأرض بنوعيه: «ذكر المسالك» و«ذكر الممالك». فهذه الموسوعة مصدر من الدرجة الأولى لدراسة عصر المماليك وعلى الأخص المعلومات التي يوردها عن البلاد التي ربطتها صلات دبلوماسية منتظمة أو متقطعة بدولة المماليك.

وأوضح العمري في مقدمته المنهج الذي اتبعه في القسم الجغرافي من موسوعته يقول: «ولم أقتصر بذكر الأقاليم عند ذكري الممالك مقصد الجغرافيا، كالأول والثاني الثالث، ولا بما نطلق عليه المسميات كالعراق وخراسان وأذربيجان، بل أذكر ما اشتملت عليه مملكة كل سلطان جملة لا تفصيلاً، على ما هي عليه المدنية التي هي قاعدة الملك... أو ما لا بد من ذكره معها، والغالب في تلك المملكة من أوضاعها، والأكثر من مصطلح أهلها»[٦٤].

«ولم أقصد في المعمورة سوى الممالك العظيمة، ... وقنعت بما بلغه ملك هذه الأمة، وتمت بكلمة الإسلام على أهله النعمة، ولم أتجاوز حدها، ولا مشيت خطوة بعدها... وإن كان في العمر فسحة وفي الجسم صحة... لأذيلن بممالك الكفار هذا التصنيف».

---

[٦٤] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، تحقيق أحمد زكي باشا، القاهرة ١٩٢٤، ٦.

ولم ينشر من القسم الجغرافي من «المسالك» سوى الجزء الأول بتحقيق العالم المصري أحمد زكي باشا في القاهرة سنة ١٩٢٤، وما زال بقية القسم الجغرافي يحتاج من ينهض لنشره وتوجد مخطوطات في مكتبات عديدة، ولكن أهمها نسختين: نسخة مكتبة آيا صوفيا بإستانبول وهي نسخة في ٢٤ مجلدًا ملفقة من نسختين مختلفتين تنقص الجزء الأول وتحمل الأرقام من ٣٤١٥ إلى ٣٤٣٩، ونسخة مكتبة أحمد الثالث رقم ٢٧٩٧. ويشتمل الجزء الأول من هذه النسخة بين صفحة ٣٤٢ -٣٤٣ على رسم الربع المعمور وهو أول أثر يصل إلينا لخريطة العالم المأمونية، وهذه النسخة بخط المؤلف كتبها سنة ٧٤٠هـ/١٣٤٠ م، وقد نشر فؤاد سزجين الكتاب من نسخة ملفقة بطريقة الفاكسميلي سنة ١٩٨٨م.

كتب الجغرافيا الإدارية

يثير الانتباه في عصر المماليك كذلك انتشار نمط الجغرافيا الإقليمية الإدارية La Geographie Administrative Regionale الذي نما نموًا مطردًا في أوساط عمال دولة المماليك. وهي مراجع إدارية واقتصادية عملت من أجل كُتّاب الدواوين لعل أقدمها كتاب «المنهاج في أحكام علم خراج مصر» الذي كتبه في نهاية العصر الفاطمي القاضي علي بن عثمان بن يوسف المخزومي المتوفى سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م. ويوجد لهذا

الكتاب تأليفان ، تأليف أول في آخر عصر الفاطميين نحو سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م والنظام الفاطمي ما زال سائدًا ، ثم أضاف إليه إضافات ومراجعات في سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م أو بعد ذلك بقليل بعد أن مضى وقت طويل على النظام الأيوبي ودخلت العديد من التحسينات عليه. وهذا الكتاب يُعَدّ مصدرًا لا نظير له عن النظم الإدراية والزراعية والمالية في مصر في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي. ونشر كلود كاهن منتخبات من النسخة الوحيدة للكتاب المحفوظة في المكتبة البريطانية برقم Add.23483 سنة ١٩٨٦م، ولكن الكتاب بتمامه في حاجة إلى نشر علمي وفقًا لقواعد تحقيق النصوص المعروفة.

وقد نُشرت سائر كتب هذا الفن وهي «قوانين الدواوين» لابن مَمّاتي المتوفى سنة ٦٠٦هـ/١٢٠٩م، و «لُمع القوانين المضية في دواوين الديار المصرية» لعثمان بن إبراهيم النابلسي المتوفى بعد سنة ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م، ومع ذلك فهناك كتابان في غاية الأهمية في حاجة إلى نشر علمي جديد أولها كتاب «تاريخ الفيوم وبلاده» للنابلسي السابق الإشارة إليه، ثم كتاب «التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية» للشيخ شرف الدين يحيى ابن المقر بن الجَيْعان المتوفى سنة ٨٨٥هـ/١٤٨٠م. فقد عرفت مصر هذا النوع من المؤلفات المتعلقة بمسح الأراضي حينًا في شكل رسمي جاف وحينًا آخر موضحة بمعلومات إضافية، خاصة بعد عمليات «الروك» وهي إعادة فك زمام الأراضي الزراعية وربطه والتي

بدأت بـ «الروك الأفضلي» سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م ، ثم «الروك الحُسامي» سنة ٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م، وأخيرًا «الروك الناصري» سنة ٧١٤هـ/١٣١٤م.

فقد نشر برنارد موريتز B.Moritz الكتاب الأول في القاهرة سنة ١٨٩٩م اعتمادًا على مخطوطة دار الكتب المصرية وهي نسخة مؤرخة سنة ٨٥١هـ/١٤٤٧م في غاية السِّقم، ولم يراجع النسخة الثانية المحفوظة في آيا صوفيا بإستانبول برقم ٢٩٦٠ والمؤرخة سنة ٦٩١هـ/١٢٩٢م والتي تحمل عنوان «إظهار صَنْعَة الحيّ القَيُّوم في ترتيب بلاد الفيوم»، فالكتاب مصدر من الطبقة الأولى حول طريقة جمع الضرائب في العصر الأيوبي ويقدم لنا بإسهاب معلومات ثمينة حول الحياة الاقتصادية والاجتماعية لأحد الأقاليم المصرية في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي.

ونشر موريتز Moritz أيضًا الكتاب الثاني في القاهرة نشرة لا تختلف كثيرًا عن نشرة كتاب النابلسي، وحَدَّد مؤلفه في مقدمة كتابه منهجه فيه، يقول:« فهذا كتاب أذكر فيه ما بإقليم مصر من البلدان وعِبْرَة كل بلد وكم مساحتها من فدان، أولاً بذكر الإقليم على وجه الإجمال، وأذكر عِبْرَة الأقاليم المذكورة على ما استقر عليه الحال في أيام الأشرف شعبان، وإن تغيّرت عبرة بلدة عما كانت عليه ذكرت عبرتها الآن». ومرجعه الرئيسي في ذلك هو «تقويم البلدان المصرية في

الأعمال السلطانية» الذي تم تأليفه بالديوان السلطاني حوالي عام ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م في أيام السلطان المملوكي الأشرف شعبان.

وتوجد من الكتاب نسخة نفيسة لم يرها موريتز، وهي نسخة خزائنية كتبت برسم خزانة الأمير يَشْبَك السيفي الدودار في زمن السلطان الأشرف قايتباي في شعبان سنة ٨٨٣هـ محفوظة في مكتبة " البودليان" بأكسفورد برقم ٦٩٧ (Huntingdon) توجب إصدار طبعة جديدة للكتاب.

ويدخل في نفس هذا الإطار مؤلف خليل بن شاهين الظاهري المتوفى سنة ٨٧٢هـ/١٤٦٨ «زبدة كشف الممالك» والذي يعد القسم الذي خصصه لنظام البريد في عهد المماليك أقيم ما في الكتاب بأجمعه وخاصة تعداده لمنازل البريد ومحطاته التي يقدم لنا عنها تفاصيل ذات أهمية كبرى[٦٥]. وقد نشر بول رافيس P. Ravasse هذا المختصر في باريس سنة ١٨٩٤م. ولكن من حسن الطالع فقد كشف أخيرًا في إيران عن نسخة من أصل كتاب ابن شاهين بعنوان «كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك» في مجلدين تقع في أربعين بابًا بينما تقع «الزبدة» في اثني عشر بابًا فقط، ويعكف على نشره الآن الدكتور سهيل زكّار بجامعة دمشق.

---

(٦٥) كراتشكوفسكي: المرجع السابق ٥١٢.

كتب العجائب والغرائب

أهم كتب العجائب والغرائب التي لم تنشر بعد، هي: مؤلفات إبراهيم بن وجف شاه وهو مؤلف مصري اختلف الباحثون في تحديد العصر الذي عاش فيه، وإن كان يبدو اعتمادًا على نسخة من كتابه «العجائب الكبير» محفوظة في لينينجراد مؤرخة في سنة ٦٠٧هـ أنه عاش قبل هذا التاريخ.

وينسب إليه حاجي خليفة الكتب الآتية: كتاب «العجائب الكبير»، ومختصر يسمى «عجائب الدنيا»، و«أخبار مدينة السوس»، و«جواهر البحور ووقائع الدهور في أخبار الديار المصرية»[٦٦] الذي يبدو أنه هو نفسه كتابه «تاريخ مصر» الذي ينقل عنه المقريزي[٦٧] وابن إياس[٦٨] فيما يخص تاريخ الفترة الفرعونية.

ويبدو مما نقله عنه ابن إياس أن ابن وجف شاه خصص في كتابه «تاريخ مصر» فصلاً لكل مدينة هامة في مصر تناول فيه تاريخها القديم، وهي توضح لنا ميل ابن وجف شاه إلى تسجيل الأخبار الغريبة وعلى الأخص في مجال كشف الكنوز بعد

---

[٦٦] حاجي خليفة: كشف الظنون (طبعة ليبزج) ١/ ١٩٠؛ ٢/ ١٥٠؛ ٦٤١؛ ٤/ ١٨٦؛ ٥/ ١١٤.

[٦٧] المقريزي: الخطط ١/ ١١١، ١٢٩.

[٦٨] ابن إياس: بدائع الزهور ١/ ١٠٥.

الفتح الإسلامي للبلاد. ومع ذلك فلا يمكننا تقديم وصف أشمل لمحتويات هذا الكتاب -الذي لم يصل إلينا - في ضوء المعلومات المتوافرة عنه حتى الآن.

وتوجد مخطوطات من مؤلفاته الأخرى وعلى الأخص «كتاب العجائب الكبير» في لينجراد برقم ٧٤٠، و«عجائب الدنيا» في المتحف البريطاني ١٥٢٦.

وإذا كان المؤلفون المصريون أطلقوا عليه اسم إبراهيم بن وجف شاه، ولقبوه بالأستاذ وبالعلامة، فإن المؤلفين الأندلسيين ابن سعيد وأمية ابن أبي الصلت عرفوا مؤلفاته أيضًا ولكن سموه «الوصيفي».

أدب المرشدات البحرية (الراهنامجات)

يرى كراتشكوفسكي أن الأدب الجغرافي العربي استنفد طاقته الخلاقة بشكل نهائي خلال القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، ولم يبق منه سوى النماذج المقتصرة على الجغرافيا الإقليمية ووصف الرحلات. وفي الوقت الذي شهدت فيه نهاية القرن الخامس عشر الميلادي نجاح البرتغاليين في الطواف حول القارة الإفريقية وكشف كولومبس الطريق إلى أمريكا، فإن العرب كانوا بعيدين تمامًا عن هذه الأحداث أو على الأقل لم يقدّروها حق قدرها.

ولكن فاسكوداجاما لم يتمكن من اكتشافه الطريق البحري إلى الهند بدون الإفادة من التجربة العملية للعرب من خلال استخدامهم للبوصلة والخارطات البحرية، فقد دله على الطريق من ملندي إلى كاليكوط مسلم من كجرات يدعى المعلم كانا[٧٠].

ولكن الأدب الجغرافي العربي وجد مجاله في ميدان آخر في هذه الفترة هو ميدان «الجغرافيا الملاحية». وظهرت مؤلفات هذا الفن في المنطقة الجغرافية للمحيط الهندي والبحار والخلجان المتفرعة منه. ولم تبرز الجغرافيا الملاحية في تلك الظروف التاريخية فجأة، بل كانت لها جذور ترتبط بتلك المجموعة من القصص والأسفار البحرية التي ترجع إلى القرنين الرابع والخامس للهجرة/ العاشر والحادي عشر للميلاد من أمثال قصص التاجر سليمان وأبي زيد السيرافي. ويطلق على هذا الأدب الجغرافي «أدب المرشدات البحرية» أو «الراهنامج» وهي تشتمل على خبرة الربابنة في جميع المسائل الملاحية بما فيها مرشدات الطرق البحرية[٧١].

وكان موطن هذه «الراهنامجات» هو سيراف وعُمان، ورغم تقدمها، فإن ما وصل إلينا منها يرجع إلى القرنين التاسع والعاشر للهجرة/ الخامس عشر والسادس عشر للميلاد وندين به لاثنين من المؤلفين هما :ابن ماجد، وسليمان المَهْري: ولم يكشف

---

[٧٠] كراتشكوفسكي: المرجع السابق ٦٠٨ -٦٠٩.

[٧١] كراتشكوفسكي: المرجع السابق ٦١١.

عن الأصول العربية لمصنفات الربان أحمد بن ماجد السعدي البنجدي إلا في عام ١٩١٢م. وتبلغ مؤلفات ابن ماجد المعروفة حوالي أربعين مؤلفًا صيغ أغلبها شعرًا ولم يُنشر منها سوى كتاب «الفوائد في أصول علم البحر والقواعد» و«ثلاثة أزهار في معرفة البحار» و«حاوية الاختصار في أصول علم البحار».

وسليمان المهري لم يصل إلينا من مؤلفاته سوى خمسة كتب محفوظة في مخطوطة باريس رقم ٢٥٥٩، وهي من حيث مضمونها تكرر إلى حد كبير مادة ابن ماجد، نشر منها: «تحفة الفحول في تمهيد الأصول وشرحها»، و«العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية»، و« قلادة الشموس واستخراج قواعد الأسوس»، و«المنهاج الفاخر في علم البحر الزاخر»[٧٢].

❖ ❖ ❖

مما سبق يتضح لنا أن الكتب الرئيسية لمصادر الجغرافيا العربية عرفت طريقها إلى النشر والدراسة على أيدي المستشرقين منذ أواسط القرن التاسع عشر. ولم يسهم العلماء العرب في هذا النشاط سوى في العقود الأخيرة فقط، كما أنه لم يشارك من الجغرافيين العرب في هذا النشاط سوى باحثين معدودين؛ لأن قضية النشر العلمي للمصادر الأصلية ينظر إليها المؤرخون والجغرافيون العرب على الأخص على أنها أعمال غير

---

[٧٢] كراتشكوفسكي: المرجع السابق ٦٣١.

إبداعية؛ علمًا بأنها المدخل الرئيسي للتعرف الحقيقي على مدى إسهام الجغرافيين العرب في تاريخ الجغرافيا الإنسانية.

وجميع المصادر التي نشرت في القرن الماضي في حاجة إلى إعادة نشرها نشرًا جديدًا وفقًا للقواعد العلمية لنشر وتحقيق النصوص اعتمادًا على المخطوطات الجديدة التي ظهرت لها، وعلى الدراسات الجزئية التي تناولتها هي ومؤلفيها، وعلى الأخص ما كتبه كل من: جابرييل فران وكراتشكوفسكي وأندريه ميكيل، ومقبول أحمد، وحسين مؤنس، وفؤاد سزجين.

وتنبّه المستشرقون كذلك منذ القرن الماضي إلى أهمية بعض المصادر الجغرافية من خلال نقول الجغرافيين المتأخرين عنها، فقاموا على قدر ما أتاح لهم الباقي منها بجمعها ونشرها ودراستها وتقييم محتواها. وهو عمل يجب استكماله عن طريق إعادة بناء الكثير من المصادر القديمة بغرض نسبة المعلومات الموجودة في هذه المصادر إلى عصورها الحقيقية التي ترجع إليها.

فضياع العديد من التراث الجغرافي المكتوب جعل من الصعب علينا تتبع واقع تطور هذا التراث بدقة بدون إعادة بناء هذه المصادر التي ضاعت عنا أصولها، وإن بقيت منها نقول مطولة عند المتأخرين.

كما أن العديد من المصادر الجغرافية غير المنشورة، والموجود لها مخطوطات في مكتبات العالم المختلفة لا تستحق دائمًا الاهتمام بنشرها؛ لأنها في أغلبها مصادر نقلية لا تجدد دائمًا معلوماتنا الجغرافية، فكتاب «نَشْق الأزهار في عجائب الأقطار» لابن إياس المتوفى سنة ٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م مصنف نقلي ثانوي للغاية، فمادة الكتاب نقلية صرفة، ولكنه يرجع أحيانًا إلى مصادر فقدت اليوم مثل كتاب:« أخبار النوبة» لابن سُلَيْم الأسواني، وربما يكون قد رجع إلى مسودة للإدريسي غير معروفة لنا (من نسخ في دار الكتب المصرية ٤٣٩ جغرافيا والوطنية بباريس ٢٢٠٧، ٢٢٠٨، ٢٢٠٩، ٢٢١٠، ٢٢١١، ٣٥١٣، المتحف البريطاني ٧٥٠٣).

تجربة صغيرة في نص جغرافي

إحسان عباس

لم أكن أعرف كتاب «الروض المعطار» في صورته الكاملة، ولكني كنت قد عرفت أنه قاموس جغرافي مما استخرجه منه المستشرق الفرنسي لافي بروفنصال Levi Provençal من أسماء الأماكن الأندلسية، حين قام بتحقيقه وترجمته إلى الفرنسية (١٩٣٧ط. القاهرة)، ثم ممّا قام به من بعد المستشرق الإيطالي أمبرتو رتزيتانو حين استخرج منه الأماكن الصقلية ونشرها في مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٨ (١٩٥٦م ص١٢٩- ١٨١).

إن اختيار هذين المستشرقين للاعتماد على الروض المعطار جعلني أظن - خطأً - أن هذا الكتاب قد يكون كتاباً جغرافيا ذا أهمية استثنائية، ولهذا حفزني عملهما إلى مزيد من التعرف على هذا الكتاب. كانت صورته العامة في نفسي أنه قاموس جغرافي ربما كان مرتبًا على ترتيب حروف الهجاء عند أهل المشرق، وكل ما أعرفه عن مؤلفه أنه قد

يكون هو الفقيه العدل أبو عبد الله محمد ابن عبد الله بن عبد المنعم الصنهاجي الحميري.

تنامت لدي الرغبة في الوصول إلى حقيقة الكتاب وحقيقة مؤلفه، حتى إذا كنت في إستانبول (سنة١٩٦٨م) كان من بين اهتماماتي الكثيرة تصوير مخطوطة للروض وجدتها في مكتبة بيرم باشا، التابعة لنور عثمانية (ورقم المخطوطة ٤٤ وهي تضم ٤٠٩ ورقات). ومن غير أن أعرف شيئًا عن العلاقة بين الروض وكتاب نزهة المشتاق للإدريسي، صورت من هذا الكتاب الثاني نسختين وجدتهما في بعض مكتبات السليمانية، وعدت بهذه الحصيلة أدراجي إلى بيروت. ثم كان الحصول على نسخة ثانية من الروض هدفًا ملحًا، ومن حسن الحظ أن وجدت في مكتبة صديقي الشيخ زهير الشاويش نسخة مصورة من الكتاب عن نسخة محفوظة بمكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة.

وبدأ البحث عن ترجمة لمؤلف الكتاب، وتحديد العصر الذي عاش فيه، بعد أن قرأت الكتاب في إحدى النسختين، وسجلت ملاحظات تفيدني لدى الدخول في خطوات جادة للتعرف على المؤلف وطبيعة الكتاب، مفيدًا في كل ذلك من المقدمتين اللتين كتبهما المستشرقان المذكوران لنشرتيهما.

كانت الصعوبة في العثور على ترجمة المؤلف تتمثل في اختصار المصادر لنسبه الطويل نسبيًا، وكانت لدي نسخة خطية

من كتاب الإحاطة للسان الدين بن الخطيب مصورة عن نسخة المكتبة الكتانية، ومن حسن الطالع وجدت فيها ترجمة لمحمد بن عبد الله بن عبد المنعم صاحب الروض، وفيها توضيح أنه كان سبتيًا وأنه جاء في وفد من أهل بلده إلى غرناطة حين قرر السبتيون أن يكون بلدهم تابعًا لبني نصر أصحاب غرناطة، وأن هذا الوفد أدركهم موتان عند مغادرتهم المغرب، ويبدو أن ابن عبد المنعم كان من الناجين، ولكن إلى أجل يسير. وأكد هذه الحقائق وغيرها كتاب «اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار» (ص:٥ باريس ١٩٣٢)، وفي سبيل مزيد من الاطلاع استشرت مصادر أخرى[1].

ها قد تأكد لدينا أن المؤلف سبتي وأنه من رجال المائة الثامنة وأن ابن حجر حدد وفاته (في ذي القعدة سنة ٧٢٧هـ) وأنه درس على شيخين من سبتة هما أبو إسحاق الغافقي وأبو القاسم بن الشاط، وأنه كان مثل أستاذيه نحويًا يداوم قراءة كتاب سيبويه، لغويًا يستظهر صحاح الجوهري، مقرئًا ولا بد أن تكون له ترجمة في طبقات القراء، مفسرًا ولا بد أن يرد ذكره

---

[1] انظر: ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (٤:١٥١ت. محمد سيد جاد الحق، القاهرة)؛ والسيوطي، بغية الوعاة (١:١٦٤ت. محمد أبو الفضل إبراهيم)؛ وابن القاضي، جذوة الاقتباس (٣١٦ الرباط)، لكن أكثر ما جاء في هذه المصادر مستمد من الإحاطة مع بعض التصرف والإيجاز.

في طبقات المفسرين، محدثًا حافظًا، وأن قبره بسبتة بشهادة صاحب «اختصار الأخبار».

ولكن ما هو الموقف من أخبار أخرى تناقض ما وصل إليه البحث والتنقيب:

١ - أنه ليس سبتيًا في نظر المقري صاحب نفح الطيب، وإنما هو أندلسي، إذ يقول صاحب النفح «لنرجع إلى صاحب الروض المعطار فإنه أفقه بتاريخ الأندلس إذ هو منهم وصاحب البيت أدرى بالذي فيه» وصاحب النفح متأخر الزمن، وقد ظن أن مؤلف الروض أندلسي لاهتمام هذا المؤلف اهتمامًا خاصًا بذكر الأماكن الأندلسية.

٢ - أنه استنتاجًا ليس سبتيًا، لأنه حين تعرض لذكر سبتة في الروض، لم يقل فيها جملة واحدة من عند نفسه، وإنما نقل ما قاله البكري فيها وما جاء عنها في كتاب «الاستبصار» ثم ما قاله الإدريسي؛ وهذا الاستنتاج لا يثبت للجدال لأنه يفترض أن ابن عبد المنعم جغرافي متمرس وهو ليس كذلك، وليست لديه جرأة أن يقول شيئا من عند نفسه ولو في بلده.

٣- أنه لم يكن من رجال القرن الثامن وأدرك التاسع لأنه يذكر في مادة «أيلة» أن السلطان الأشرف قانصوه الغوري آخر ملوك الجراكسة، أصلح فيها طريق الحجاج. والسلطان الغوري توفي سنة ٩٢٢هـ، وهذه العبارة يمكن

أن تعد إضافة من متأخر، لأنها لم ترد في إحدى النسختين، ووردت غير مكتملة في النسخة الأخرى.

٤ - أن حاجي خليفة يجعل وفاته سنة ٩٠٠هـ في كشف الظنون، ولكن مما يضعف هذا أن المؤلف (في طبعة فلوجل من هذا الكتاب) يذكر وفاته مرة أخرى في غير هذا العام، وقد ثبت لدي أن حاجي خليفة ذكر وفاة أبي حيان التوحيدي عند ذكر أحد كتبه في عام، فلما ذكر له كتابًا آخر ذكر لوفاته تاريخًا مختلفًا. إن هذا الأضطراب في كشف الظنون يجب أن يكون مدخلاً لرفض بعض تواريخ الوفيات فيه.

ومن ثم تنهار جميع الفروض التي خالفت ما توصلنا إليه في نسبته وتاريخ وفاته، ولكن ما صلته بالروض المعطار؟

لم يذكر أي مصدر ترجم له أن له مؤلفًا بهذا الأسم، ولم يصفه أي منها بأنه كان ذا ثقافة جغرافية، وإن كانت تلك المصادر قد وقفت عند مهارته في الشطرنج. ومن اطلع على كتابه لا يستطيع أن يقول إنه جغرافي لأنه لم يرحل ولم يسجل مشاهداته، ولكن الكتاب في المخطوطتين اللتين اطلعت عليهما يحمل اسمه، وكذلك هو الحال في المخطوطات التي اطلع عليها بروفنصال. والقلقشندي صاحب صبح الأعشى (توفي:

٨٢١) ينقل عنه، لأن مادته ميسرة بعد أن كانت أصعب منالاً في مصادرها الأصلية.

لقد خيل إليّ أن ابن عبد المنعم وجد لديه نسخة من «نزهة المشتاق» للإدريسي فشمر عن ساعد الجد لاستخراج أسماء الأماكن المشهورة منها، ثم قام بترتيب هذه الأماكن هجائيا واستعان بالمسالك والممالك للبكري وغيره على نقل ما يحتاج إليه من أخبار لم ترد عند الإدريسي. أو وردت ووجد فيها اختلافًا في المصادر الأخرى؛ ومن الأدلة القوية على أنه ينقل من نسخة خطية، ولا يأخذ العلم بالسماع (أو بالقراءة على شيخ) أنه حين يجد الأسماء مصحفة لا يعرف وجه الصواب فيها، وينكشف جهله بسهولة لأنه يرتب الأسماء حسب الترتيب الهجائي، والأمثلة على ذلك غير قليلة في الروض: إذ يضع «علوة - بالعين المهملة» في حرف الغين (أي غلوة) لأنه وجدها كذلك، ويتحدث عن حبرون (بالحاء المهملة بعدها باء) في مادة جيرون (حتى أوهم من نقلوا عنه في هذه المادة)، ويجعل (باب) ، (يابة) في حرف الياء ويقرأ «الزبداني» بالياء فيجعلها «الزيدان»، ويقول بعد حديث طويل عن سلا الواقعة على مقربة من الرباط، حين يذكر سلا التي في بلاد التكرور يقول «ولا أدري هل سلا هذه هي التي ذكر أنها على ضفة النيل وشماله ببلاد السودان». (الروض: ٣١٩).

وقد اتبع في كتابه منهجًا يدل على أن تقديره لدور الجغرافي كان ضئيلاً.

١) إذ اشترط في منهجه أن يذكر المكان إذا كان مشهورًا، والجغرافي يذكر المكان المشهور وغير المشهور، ولعل سبب هذا الشرط إحساسه أنه مقدم على علم قد يوقعه عدم معرفته به في أخطاء.

٢) أن يكون اسم المكان مما اتصل به قصة أو حكمة أو خبر مشهور، وذلك يعني أنه يبحث عما يجلب للقارئ التسلية أو ما يتعلق بها.

هذا، وقد أوقعه عدم تعمقه في الشؤون الجغرافية- أوقعه في التكرار إذا وجد اسم المكان يكتب في صورتين مختلفتين (الياج - لياج)، وكذلك أوقعه في تكرار الأخبار لأنه وجد الخبر في نزهة المشتاق، ثم وجده بشيء من الاختلاف في المسالك والممالك للبكري، فما كتبه في مادة «دامغان» مكرر في مادة «قومس».

فعلى الرغم من كل ذلك، فإن الروض المعطار حافل بالفوائد، وقد أفادني خطؤه مثلما أفادني صوابه. كل ما هناك أنني أقبلت على بذل الجهد الذي خصصته لإخراجه بغير ما انتهيت إليه من فتور في الحماسة، وشيء من خيبة الأمل.

مخطوطات الخيمياء: نموذج المدونة الجابرية

سيد نعمان الحق

يعرف المؤرخون مجموعة كبيرة من الأعمال العربية التي ترجع إلى العصور الوسطى، وتنسب إلى شخصية طالما لفها لغموض، هو جابر ابن حيان. وهذه الأعمال المثيرة متناثرة في مخطوطات عديدة حول العالم، والموقف الأكاديمي السائد هو ن أغلب تلك النصوص وربما تكون كلها موضوعة Apocryphal)، وأن مؤلفها المزعوم ربما كان شخص لا وجود ه، وأن هذه الأعمال يغلب عليها معالجة موضوع الخيمياء Alchemy).

شغل عدد من الباحثين المحدثين بتحديد الهوية الحقيقية ؤلف (أو مؤلفي) تلك الأعمال، وكان أول تقدم حقيقي في هذه لقضية في النصف الأول من القرن العشرين، على يد بول كراوس (Paul Kraus)، الذي يظل مؤلفه الضخم جابر بن ءيان: «مساهمة في تاريخ الأفكار العلمية في الإسلام» (القاهرة

١٩٤٣) حتى يومنا هذا، بلا منازع في شموله ودقته العلمية[1]. توصل كراوس إلى أنه باستثناء رسالة واحدة منسوبة إلى جابر، هي كتاب الرحمة الكبير، فإن مجمل مدونة جابر (Corpus Jabirianum) هي من عمل مجموعة من المؤلفين ينتمون إلى الطريقة الإسماعيلية، وأن تلك الأعمال لم تكتب في القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي كما كان شائعًا، وإنما ظهرت إلى الوجود كأجزاء متعددة، عبر حقبة تمتد حوالي مائة عام، تبدأ في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي أو ربما بعد ذلك.

ينطوي هذا البيان المختصر الذي سقناه في الفقرة السابقة على أنواع متعددة من الأسئلة والإشكاليات ذات المغزى العميق عند المؤرخ الذي يأخذ على عاتقه مهمة إصدار نشرة محققة (Critical edition) من الرسائل الجابرية، أولها أن دراسات حديثة وجدت كثيرًا مما يستوجب النقد في منظور كراوس[2]؛ وقد بيّنت ذلك باستفاضة في إحدى دراساتي - وهي الدراسة الموسعة الوحيدة عن جابر باللغة الإنجليزية - أن منظور كراوس يحتاج

---

(١) Paul Kraus, *Jābir ibn Ḥayyān: Contribution ă l'Histoire des Idées Scientifiques dans l'Islam*. Cairo: Imprimerie de l'Institut Francais d'Archeologie Orientale, 1942 (vol.II) /1943 (vol.I)

(٢) انظر مثلاً: F.Sezgin. Geschichte der و E.J. Holmyard, Alchemy arabischen London: 1957, Schreifttums vol, IV Leiden 1971.

إلى إعادة فحص[٣]، وقبل ذلك فقد أثار بيير لوري (Pierre Lory) احتمال وجود نواة صغيرة من الأعمال الأصلية لجابر حيث نمت حولها باقي النصوص الدخيلة[٤]، مما يعيد طرح سؤال: من هو مؤلف المدونة الجابرية؟ متى عاش ذلك المؤلف أو أولئك المؤلفون؟ والسؤال الأشد صعوبة في التناول هو: من الذي كتب كل نص من نصوص تلك المدونة؟ وإذا كانت هناك بالفعل نواة صغيرة من الأعمال الأصلية فكيف نتعرف عليها؟ وأخيرًا هل حقًا ما استقر في التراث العربي من أن جابر بن حيان اسم لشخص تاريخي عاصر الإمام الشيعي السادس جعفر الصادق (المتوفى ١٤٧هـ/٧٦٥م) وكان من مريديه؟

ليست هناك إجابات ميسرة على الأسئلة التي طرحناها، كما لا يمكن تجاهلها أو اعتبارها هامشية بالنسبة لمحقق النصوص الجابرية، فهذه النصوص لا يمكن فهمها في فراغ تاريخي، وإنما نتساءل عن الوسط التاريخي الذي أحاط بها وما هو سياقها المنهجي في تاريخ الفكر؟ إذا لم يتمكن المحقق من تحديد تاريخ رسالة ما بدرجة مقبولة من الثقة، فكيف يتسنى

---

(٣) S.N. Haq. *Names, Nature, and things: the Alchemist Jābir ibn Ḥayyān and his Kitāb al-Aḥjār (book of Stones)* Boston / Dordrecht / London: 1994; 1995.

(٤) P. Lory. *Gabir ibn Ḥayyān l'Elaboration de l'Elixir Suprême* Damascus: 1988, pp.12-13.

له تنقيح النص؟ وكيف ينتقي حين يختلف النص من مخطوطة لأخرى؟ وما الذي ينير له السبيل حين يفتقر النص إلى الوضوح ؟ أيّ المصادر التاريخية يلجأ إليها؟ ويعرف الباحثون أن نشر نص محقق لا يقتصر على مهمة لغوية؛ بل هو بحث في تاريخ وموضوع النص.

وليس ما ذكرناه إلا جزءًا يسيرًا من الصعوبات التي يلقاها من يتصدى لتحقيق المدونة الجابرية؛ فاتساع نطاق المادة المعالجة في ذلك النص يشكل كذلك عقبة يصعب على المحقق تجاهلها. يوصف موضوع المدونة الجابرية عادة بأنه الخيمياء، وعلينا هنا أن نتخلى عن التصور الدارج للخيمياء على أنها تعنى أساسًا بتحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب، وأنها تشكل ماضي ما قبل التاريخ لعلم الكيمياء، فالنصوص تزخر بالأدلة التي تنقض هذه النظرة. فمن جهة تعالج الكتابات الجابرية نظرية وممارسة الإجراءات (التدابير) الكيميائية، وتصنيف المواد، والطب وعلم الصيدلة والتنجيم والسحر وعلم خصائص المادة (علم الخواص)، وعلم التكوين ويتخلل كل هذا فقرات مطولة عن المنطق والفلسفة واللغات الطبيعية والشكلية والفلك والحساب والهندسة والموسيقى وعلم الكون، من جهة أخرى تحوي تلك الكتابات مقطوعات كبيرة تعالج مواضيع دينية وسياسية وأجناس التكوين الشيعي وكمّاً مختلطًا من الدعاية المذهبية، وكذلك حديثًا عن اختفاء الإمام وعودته كمخلص في

اية الزمان، هذا إلى جانب تاريخ المقدسات الشيعية، وموضوع ـق الخلافـة الشـائك سياسـيًا، وتفسـيرًا للقـرآن بـرؤى شـيعية اصة.

كمـا تشـير المدونـة الجابريـة إلى عـدد مـن المرجعيـات أو تطـف منهـا، وبعـض تلـك المصـادر تاريخيـة بينمـا بعضـها ـطوري، فيظهـر زوسـيم (Zosimus) مـثلاً في كتـاب الحجـر[٥] يموقريطس (Democritus) في المجردات[٦] وهرمس (Hermes) في حجـر[٧] وأغـاثودمون في القـرار[٨]، ومـن المرجعيـات التي تـذكر غـًا سقراط الذي يشار إليه على أنـه أبـو الفلاسـفة ومعلمهـم في جميـع[٩] وكـذلك أفلاطـون[١٠] والمـدعو أبولونيـوس الطيـاني[١١] Pseudo (Apollonius of Tany وبلينـاس. وفي كـل أجـزاء المدونـة

E.J. Holmyard ed. *The Arabic works of Jābir ibn Ḥayyān*. Paris: 1928,19:12. Cf 18:4; 23:2.

ديموقريطس هو أحد الذين يفرد لهم جابر رسالة مصححات خاصة، كتاب ـصححات ديموقريطس MS Jārullāh , 1641, f248b, etc.

Ibid 90:10 etc كتاب استقصاء الأس، Holmyard ed.,18:17

Kraus, op. cit., vol. II,p.44,n.4.

P.Kraus ed. *Jābir ibn Ḥayyān*: Textes choisies. Cairo: 1935.

تفرد لأفلاطون رسالة مصححة ويذكر في مواقع أخرى لكن يبدو أن جابر لم ـكن مطلعًا على أي من أعماله الأصلية فالتيموس الذي يستشهد به في مصححته ـيف الصلة بالنص الذي نعرفه.

فمثلاً الأحجار (انظر هامش ٤) مهدى إليه.

الجابرية نجد تضمينًا لنصوص من كافة أعمال أرسطو[١٢] ومن تفاسير اسكندر الأفروديسي (Alexander of Aphrodisias)[١٣] وثميستيوس (Themistius)[١٤] وسيمبليسيوس (Simplicius)[١٥] وبورفيرس (Porphyre)[١٦]، كما نجد حضورًا بارزًا لجالينوس Galen حيث يستشهد بتوسع بكل من De pulsibus و De pulsibus ad tirones في كتاب إخراج[١٧] و De compositione medicamentorum secundum في كتاب التجميع[١٨] و De simplicum medicamentorum temperamentis et facultibus في كتاب الحاصل[١٩] و De elementis secundum في السبعين[٢٠]

---

(١٢) انظر نعمان الحق (مرجع سابق) لدراسة مستفيضة حول استشهاد جابر بأرسطو، وقد كتب جابر مصححه خاصة بأرسطو.

(١٣) في عمل لاحق كتاب البحث MS Jārullāh, 1721, fI Ia.

(١٤) Ibid., f48 a.

(١٥) في كتاب السر المكنون MS Paris 5099, f46b - f56b.

(١٦) في التجميع تحرير كراوس ٣٤٩:٩ .

(١٧) Kraus ed. 51: 4-5.

(١٨) Ibid., 374:11.

(١٩) MS Paris 5099, fI I5a.

(٢٠) MS Jārullāh 1554, f196a

كذلك De usu partium في السبعين[٢١] و De facultybus naturalibus كتاب البحث[٢٢].

ولا يكتفي بالاستشهاد بكل من أرشميدس وأقليدس نما تخصص لكليهما رسالة منفصلة، كما هو الحال سقراط وأفلاطون وأرسطو وبالیناس وغيرهم[٢٣]، بالإضافة إلى ك يحفظ الحاصل نصًا طويلاً من Placita philosophorum التي كتبها بلوتارك Pseuds Plutarch، وبالطبع تحفل المدونة الجابرية شارات إلى الإمام الشيعي جعفر الصادق (المتوفى ١٤هـ/٧٦٥م)، والذي يقول المؤلف إنه معلمه وأستاذه وسيده لد كتب الكتاب عملاً بإرشاده[٢٤].

هذه الطبيعة الموسوعية، والاستشهاد الواسع بالمصادر وغلة في القدم؛ وضخامة المادة التي تعالجها تلك النصوص، عل من الصعب رسم صورة أكثر إحاطة وشفافية لمحتوياتها؛ ـثلاً يتضح أن هذه الكتابات يجب أن تعالج من زاويتين

Ibid., f8 Ia

MS Jārullāh 1554, f21a' f31a

انظر نعمان الحق (مرجع سابق) لدراسة أكثر استفاضة حول بالیناس. في المدونة جد تعقيب على لإقليدس بعنوان كتاب شرح إقليدس ولكنه مفقود، أما الكتاب كرس لأرشميدس فعنوانه شرح كتاب وزن التاج لأرشميدس.

يقول جابر في الحاصل أنه كتب كتابه وقد أطلق عليه سيده كتاب النتائج (MS Paris 5099,f. 9) كتاب المجيد يقول أن سيده أمره بتأليف هذه الكتب وحدد لها نيبًا لا يسمح بالخروج عليه (Kraus ed., 79:9).

مختلفتين على الأقل: (أ) من منظور التاريخ الديني للإسلام، (ب) باعتبارها مسألة في تاريخ العلم. ولكن في كلتا الحالتين، كثيرًا ما يضطر الباحث إلى تحسّس طريقه في الظلام، فالتاريخ البكر للخيمياء يلفّه الغموض، وكذلك شأن الأصول التاريخية للمذهب الشيعي في الإسلام، ويدرك المؤرخون المعاصرون جيدًا مدى الجدل والتخبط والفوضى التي تحيط بهذين الموضوعين.

يضاف إلى كل ما سبق الصعوبات اللغوية التي تعترض محاولة فهم النص الجابريّ، فرغم أن الكاتب يتجنب الاستعارات الغامضة التي تميز كتابات الخيميائيين الهلينيين وبعض كتابات الخيميائيين المسلمين اللاحقين مثل ابن أميل وذي النون المصري (المتوفى ٢٤٥هـ/٨٥٩م) إلا أن أسلوبه فقير وغريب وغير متجانس، وكثيرًا ما نجده يخرج على القواعد النحوية المعروفة، وأهم من ذلك مشكلة المصطلحات التي لا تعين معاجمنا على فهم معناها، فلكي نفهم اللغة التي يستخدمها جابر، نضطر إلى اللجوء إلى ما لدينا من كتابات غيره من الخيميائيين وعلماء النبات وعلماء مفردات الأعشاب الطبية، وهي عملية مضنية. كما أنها قد لا تكون مجزية، فإذا كان جابر هو أول خيميائي في الإسلام- وهو احتمال ليس بوسعنا استبعاده- فإن محاولة استيضاح معانيه بالاستعانة بكتابات لاحقة ليس إلا عملاً معكوسًا لا يرجى منه الكثير في

لإجابة على تساؤلاتنا، وخاصة فيما يتعلق بتحديد زمن كتابة لنص، أما أعمال الخيميائيين السابقين له فلا تجدي كثيراً في لقاء الضوء على جابر، لأنها يكتنفها الغموض كذلك.

وهناك عقبة كؤود هي نمط الباطنية الخاص بجابر، معروف أن الخيمياء تمارس عادة تحت ستار من السريّة، لذا نجد في مواضيع عديدة من النص الجابري تحذيرات- تنسب إلى ستاذه المزعوم جعفر- من وقوع هذه الكتابات في أيدي من لا ستحق أو لا يتحمل المسؤولية[٢٥]. فقد كان القدامى يستخدمون كنى وأسماء حركية، إلا أن باطنية جابر تأخذ الشكل الذي طلق عليه هو تبديد العلم، أي مبدأ بَعْثَرة المعرفة: فالحقيقة لا كشف أبداً كاملة في مكان واحد، وإنما يهدف الكاتب إلى قسيمها إلى أجزاء صغيرة وتوزيعها في مجمل النص الضخم؛ يقول كاتب في الخواص[٢٦]، إن كتبه كثيرة وعلمه مفرق عليها، لذا نليس هناك أي رسالة تكتمل بمفردها وإنما تظل كل منها طبيعتها جزئية.

---

[٢٥] يخبرنا جابر في كتاب الخواص الكبير أن سيده قد استاء منه لإنه كتب ما كتب في الحاصل ولولا أن اطمأن إن الكتاب لن يقع في أيدي من لا يستحقونه لأمره بتدميره، واستنكر عليه نشر ما نشر على العامة. (Kraus ed., 311:3-6) ثم يعود يقول أن سيده سمح له أن يفعل ما يشاء ويكشف ما يشاء من العلم طالما سيطلع عليه من يستحق فقط (Ibid).

[٢٦] Qu. Kraus, *Jābir ibn Ḥayyān*, vol. I, p.XXVII, n.1.

ويشدد الكاتب دائمًا على ضرورة أن يرجع القارئ إلى أعمال أخرى من أعماله حتى يستوعب المعنى والمغزى الكامل للموضوع المعالج في الرسالة التي هو بصددها، وتلك الأعمال بدورها تحث القارئ على اللجوء إلى غيرها، وهكذا.

يقول كراوس: كثيرًا ما يدرج جابر هامشًا طويلاً عن مرجع من المراجع في وسط رسالةٍ مَا دون ما مبرّر[٢٧]، فمثلاً في الميزان الصغير، يحث الكاتب قارئه على تجميع كلّ كتبه وقراءتها، فيجب أن تُقْرأ الكتب معًا حتى يتكشف للقارئ سرّ الخليقة وصَنْعة الطبيعة من خلال الدراسة المطولة[٢٨].

إلى جانب الإحالات المستفيضة إلى أجزائها المختلفة فإن المدونة الجابرية ترد عليها تعليمات واضحة عن الترتيب الذي يتحتّم اتباعه عند قراءة الكتابات المختلفة، بل ويحدد عدد مرات القراءة الواجبة لكل كتاب منها، فطبقًا لكتاب ميدان العقل لن يجني القارئ فائدةً ما لم يكن قد سبق له قراءة عدد من الرسائل الجابرية الأخرى[٢٩]، وتجب قراءة الأفاضل بعد كل الآخرين[٣٠]، بينما نقرأ في الحجر أن المهمة لا يمكن إنجازها

---

(٢٧) Ibid., p. XXV.

(٢٨) Kraus ed., 442: 14-15

(٢٩) Ibid., 209: 3ff.

(٣٠) Ibid., 209:9

ون قـراءة الحـدود، وأن قراءتـه تختلـف عـن قـراءة أي كتـاب
خر، فبينما غيره من الكتب تقرأ مرة واحدة كل شهر، يجب
ن يظل الحدود تحت نظر القارئ طول الوقت[٣١]. ويذكر
حجر أيضًا أن الحاصل يفيد في التعليم أكثر من الأفاضل،
يبرر ذلك بأن الأفاضل كالعبير الذي يفوح من الأشياء، بينما
حاصل مثل جوهرها، وغيابه يكون كغياب المصدر[٣٢]. إذن
لى الذي يسعى إلى معرفة الحقيقة الكاملة حول تعاليم
كاتب أن يضع أمامه كل الكتابات الجابرية. ومن الناحية
نظرية فإنه ممكن إعادة بناء كل النصوص الجابرية، ولكن
لى المستوى العملي تظل تلك المهمة مستحيلة.

ربما يفسر تطبيق مبدإ تبديد العلم بلا هوادة حقيقة أن
لؤلف ينتقل من موضوع لآخر دون ضرورة يفرضها عليه
سياق، ففي المجيد يعتذر الكاتب لقارئه ويرجو ألا يغضبه
خروج من حوار حول الخيمياء دون استكماله وتغيير الموضوع
ى الدين هكذا، فمن طبيعة الرسائل الجابرية أن تتعامل مع
واضيع متفرقة في نوع من النسيج المرقع الذي تشكله حوارات
تعددة، وفي مثل تلك الحالة يجب أن يكون من يتصدى لتحرير
لك النصوص ذا كفاية في كم موسوعي من الموضوعات، مما

---

(٣١) MS Paris 5099, f59a.

(٣٢) Haq ed. *In Names, Natures, and Things*, 5: 11-1.

يشكل وضعًا مثاليًا لا يمكن تحقيقه عمليًا. فالحجر على رأي بالينـاس، وهـو النص الـذي سبق لـي تحقيقه وتحريره[٣٣] يعالج اللغة والمنطق والنحو والموسيقى والعروض والهندسة ونظرية الاتزان والفلسفة الطبيعية والتوليد الاصطناعي والتدابير الكيميائية وعلم الكون وما وراء الطبيعة، وهذه ليست حالة شاذة، فالمدونة الجابرية مليئة بالاستطراد وتغير وجهات النظر ونقاط الانفصال، وكذلك أنصاف الحقائق.

من الصعوبات التي تواجه المحقق الذي يرغب في تفسير النصوص الجابرية، عدم الاتساق في تلك النصوص، ففي تصنيف المواد على سبيل المثال، يعد الزئبق مرة من الأرواح[٣٤] (Spirits) ومرة أخرى من المعادن[٣٥] ويحل محله أحيانًا الزجاج[٣٦] وأحيانًا السبيكة الصينية الخارصيني[٣٧]، وأحيانًا يصنف الزئبق دون لبس، بينما في أحوال أخرى يثير التردد، ففي استقصاء الأس يكتب جابر أن هناك شكًا بالنسبة للزئبق وأنه روح بين الأرواح ونفس بين النفوس[٣٨] مثال آخر من السبعين ففي

---

(٣٣) Haq, op. cit.

(٣٤) Ms Jārullāh, f. 202., مثلاً في الغزل

(٣٥) Ibid., f. 137 مثلاً في كتاب المنافع

(٣٦) Ibid., f. 202. مثلاً في الغزل

(٣٧) Qu. Kraus, *Jābir ibn Ḥayyān*, II, 19.n.11 مثلاً في الخواص الكبير.

(٣٨) Holmyard ed., 67: 16 - 17 .

بعض التأملات العددية يعطي العدد ١٨ مكانة خاصة، بينما يعلن في كتب الموازين أن العدد ١٧ هو أساس كل شيء في الطبيعة[٣٩]. ومثل هذه التضاربات يصعب تفسيرها.

وبرغم ما أوردناه من تحديات، لا يسعنا أن ندع هذه الكتابات يطويها النسيان، فهي تحوي مادة خصبة ومثيرة تفيد مؤرخي العلوم والأديان والفلسفة والثقافة والمذاهب الباطنية، وكذلك الباحثين في الأنثروبولوجيا، ويشعر المرء بالإحباط إذ يذكر أن صدور عمل كراوس الفذ تبعته مدّة من الإهمال النسبيّ، وأن حقل الدراسات الجابرية - الذي جذب إليه عدداً من أفضل الباحثين في جيل سابق - شبه مهجور اليوم. فلا نجد بين أيدينا سوى كتابين فقط يقدمان تحقيقاً لنصوص جابرية، كتاب بيير لوري وهو كتاب صغير يحوي ١٤ رسالة قصيرة[٤٠]، وتحقيقي لكتاب الحجر على رأي بليناس الذي اعتمدت فيه على كل المخطوطات المتاحة[٤١]، ولا يمكننا أن *Geschichte der*

---

[٣٩] في كتاب الإحاطة الذي ينتمي إلى السبعين، يقدم جابر عرض نقدي للمذاهب المختلفة فيما يختص بنسب الخواص الأرسطية الأربعة في المواد الطبيعية، ويعبر عن ترجيحه لأصحاب الطبيعي الذين يؤمنون بأن نسبة أوزان النار إلى الأرض إلى الماء إلى الهواء في كل شيء هي ١:٤:٥:٨ ومجموع هذه النسب ١٨ (MS Jārullāh 1554, f81 a) ويبدو هذا متناقضاً مع مذهب الرقم ١٧ الذي يوجد في كتب الموازين.

[٤٠] Lory. Op. cit.

[٤١] MS Paris 5099; MS Tehran Dānishgāh 491; MS Talʿat at Kimiyāʾ.

arabischen *E.J. Holmyard . Alchemy*. نسمي ذلك حصادًا جيدًا، إذ لا يمثل إلا جزءًا ضئيلاً من مدونة ضخمة.

جواهر نامه نظامي

إيراج أفشار

حسب ثبت المصادر المرفقة، ثَمَّة ستة وثلاثون نصًا بالعربية، وعشرة بالفارسية كُتبت حول الجواهر وعلم الجواهر وعلم المعادن حتى بدايات القرن الحادي عشر/ الهجري، السابع عشر الميلادي. علمًا بأن هذا الثبت لا يورد سوى أهم ما أُلّف من أعمال في هذه المجالات. وأقدّم في هذه الورقة النص الفارسي لكتاب جواهر نامه نظامي الذي أُلّف عام ٥٩٢هـ بوصفه أقدم المؤلفات بالفارسية، وهو كتاب ما زال غير منشور، ولما كان يستند إلى تجربة واستنتاجات مؤلّف كان يحترف مهنة صقل وهندمة الحجارة الكريمة وصياغة الذهب، فإنني أقوم بتحقيق هذا الكتاب معتمدًا على خمسة مخطوطات، آملا أن أتمكن من نشره في السنة أو السنتين المقبلتين.

وهذا الكتاب الذي يأتي ثانيًا بعد كتاب «الجماهر في الجواهر» لأبي الريحان البيروني (ت ٤٤٠هـ) باللغة العربية، هو أول مؤلّف معروف باللغة الفارسية عن الحجارة الكريمة والجواهر والمعادن والممزوجات والتلاويح (المينا والمواد التي

يمكن تليينُها وتطلى بها السطوح المعدنية، وخاصة الذهب والفضة).

ولكتاب «جواهر نامه نظامي» أهمية كبيرة لأن المؤلف وأباه وابنه كانوا جواهريين يعملون في صقل الحجارة الكريمة وصياغة الذهب. وقد سجل المؤلف في كتابه قدرًا كبيرًا من تجاربه الشخصية ومعلوماته، إضافة إلى ما سمعه من تجار الجواهر والجواهريين، كما ورد في كتابه تحت مادة «بجاد» Bijade، وهي مادة الياقوت الأحمر الذي يشبه البلخش (الياقوت الأحمر الوردي) حيث كتب:« روى أحد السادة [الذين ينحدرون من سلالة النبي محمد ﷺ] من منطقة بدخشان». ومثل هذه العبارات الأصيلة تعطي النص قيمة رفيعة. وقد روى هذه التفاصيل والإفادات المؤلفان الفارسيان الآخران اللذان كتبا عن الجواهر بعد عصر النيسابوري مؤلف كتاب جواهر نامه نظامي دون ذكر للمصادر (انظر القسم المتعلق بكتب الجواهر المنْحولة). أما النيسابوري فإنه عندما كان يعرض تجاربه وما توصل إليه، فقد استعمل عبارات مهذبة تدل على التواضع الجمّ مثل « هذا المسكين الوضيع » أو «هذا العبد الذليل».

وقبل أن أبدأ مناقشتي ودراسة هذا الكتاب وعرضه ثم تحقيقه[1]، أذكر إنه كان هناك مصدران يشيران إلى كتاب «جواهر نامه نظامي»، أما الأول فهو مقال عن الألماس كتبه محمد علي تربيت عام ١٣١٦هـ/١٩٣٧م، يقتبس من كتاب «جواهر نامه نظامي» الذي ذكره باسم «جواهر نامه» مضيفاً إلى ذلك عبارة «كُتب في عام ٥٩٢هـ، يوجد مخطوط منه»[2]، أما المصدر الثاني فهو وصف موجز للمؤلف كتبه الشيخ آغا بزرك طهراني في كتابه «الذريعة إلى تصانيف الشيعة»[3] ١٣٢٣هـ/١٩٤٤م تحت مَدْخل «جواهر نامه» دون نسبة نظامي التي ترد تحديدًا في أربعة من المخطوطات الخمسة الموجودة[4]. وقد انتقلت الإفادة إلى كتاب «الأدب الفارسي»[5] من هذا المصدر.

وبعد التوقف عند هذين المصدرين وقفت على نسخة من الكتاب في مكتبة ملك بطهران أثناء قيامي بفهرسة مخطوطاتها ، ولما كنت في الوقت نفسه أقوم بتحقيق وطباعة «عرائس الجواهر ونفائس الأطايب» الذي ألفه أبو القاسم

---

(1) جوهر نامه نظامي مأخذ تسوخ نامة وعرائس الجواهر، مجلة يغما، ٣٤(١٣٥٠) ص٣٥-٤٣، أيضًا مجموعة كمينه، طهران، ١٣٥٤، ص١٨٨- ٣٠٠.

(2) انظر مجلة مهر، ١٥ (١٣١٤) ص١١، أيضًا مجلة آينده ١٩(١٣٧٣): ٤٩٤.

(3) الذريعة إلى تصانيف الشيعة، طهران، ١٣٢٣، مجلد ٥: ٢٨٣.

(4) إشارة من حسين مدرسي طباطبائي، مجلة راهنماي، كتاب١٥(١٣٥١) ص٣٢٨- ٣٣٧.

(5) C.A. *Storey, Persian Literature* , vol II, Part 3, London 1977, p. 449

القاشاني[٦] عام ٧٠٠هـ، لاحظت تماثلاً وأوجه شبه محيّرة في الموضوع وفي صياغة العبارات بين النّصين. إلى جانب ذلك أصبح واضحًا لي أن محتوى كتاب «تنسوخ نامه» بقلم خواجه نصير الدين الطوسي[٧] مأخوذ من كتاب «جواهر نامه نظامي». ولذلك فإنه عندما ثبت أن المصدر الرئيسي لهذين المؤلفين المرموقين كان كتاب جواهر نامه نظامي، كتبتُ عن هذا الانتحال الصرف[٨].

وفي ذلك الوقت لم يكن متوفرًا ومعروفًا لديّ سوى مخطوط مكتبة ملك[٩]. وهو مخطوط رديء التجليد، غير مكتمل وأثرت فيه الرطوبة، ومفتقر إلى اسم المؤلف. أما العنوان كما هو مكتوب فهو «جوهر نامه» وليس جواهر نامه. وعثرت فيما بعد على أربع مخطوطات أخرى، يعاني كل منها من عيوب وفراغات، وإن كان كل منها يملأ بعض فراغات الآخر، ميسّرًا إمكانية تحرير النصّ وتحقيقه؛ وبذلك أمكن أن نعرض هنا معلومات جديدة قيّمة عن المخطوطات الخمس.

---

[٦] تحقيق وتقديم إيراج أفشار، طهران، ١٣٤٥.

[٧] تحقيق وتقديم محمد تقي مدرّس رضوي، طهران ١٣٤٨.

[٨] انظر حاشية عدد ١.

[٩] فهرست كتابهای خطي كتابخانة ملي ملك، تأليف إيراج أفشار، ومحمد تقي درنش بروه، طهران، ١٣٥٤، ج٢، ص١٩٦- ١٩٧.

عنوان المؤلَّف:

إن العنـاوين في المخطوطـات الثلاثـة الموجـودة في (تركيـا وقُـمْ وطشـقند) هـي «جواهرنامـه نظـامي». أمـا في مخطـوط (مكتبة) ملك بطهران، فإن العنـوان المكتـوب خطـأ هـو «جوهـر نامـه نظـامي»، والسـبب كمـا يبـدو هـو في إعـادة كتابـة العنـوان خطـأ، وأن الرطوبة قد شوّهته، وأما مخطـوط لاهـور فيفتقـر إلى العنوان. ولا بد من ملاحظة أن النسبة إلى «نظامي» تشير إلى اسم الوزير الذي أُهدِيَ إليه هذا الكتاب.

المؤلِّف:

واسـم المؤلِّـف في مخطـوطي تركيـا وطشـقند مـع المقدمـة الموجودة حدّد على أنه فريد الملّة والدّين ... محمد بن أبي بركـات الجوهري النيسابوري[١٠]. كمـا أن الاسـم نفسـه مـدوّن في كتـاب «الذريعـة». ولم تبـق سـوى بعـض الألقـاب للمؤلـف موجـودة في مخطوط مالك في حين أن الإسم بقي مفقودا.

والجــدير بالــذكر أن اســم هــذا الجــواهري ورد في مصـدرين اثـنين؛ الأول: هـو «عـرائس الجـواهر ونفـائس الأطايـب» لأبي القـاسـم القـاشـاني الـذي كُتِب سنة ٧٠٠هجرية، راويًـا منـه إحدى النـوادر في القسـم الـذي عنوانـه مرواريـد أو اللؤلـؤ. غيـر أن

---

(١٠) نسخة طاشكند : الجوهر.

المؤلّف لم يحدّد أنه يتحدّث عن محمد بن أبي البركات الجوهري مؤلف كتاب «جواهر نامه نظامي»، الذي كان المصدر الرئيسي للقاشاني في كتابة مؤلّفه[11].

أما المصدر الثاني فهو كتاب «غرائب الدنيا» المنظوم شعرًا للشيخ آذري الإسفراييني المتوفى عام ٨٦٦هـ، والذي يقول في هذا الصدد: «يروي بركات في كتابه «الجواهر» عن الثقاة العدول، أنه في أقاصي حدود الهند وفي تخوم الصين، هناك صحراء في أعماق سحيقة من الأرض .... وعندما وصل الإسكندر إلى الشرق جرى إعلامه عن المَنْجَم (المعدن) وموقعه».

وقد عرّف محمد علي تربيت الذي يروي أبيات الشعر هذه[12]، «بركات» هذا بأنه طبيب للخليفة المستنجد بالله، أي أبو البركات هبة الله بن علي بن ملك البلد فيلسوف العراقين، توفي عام ٥٦٠هـ[13]، في حين أنه لم يُنْسب إليه أي كتاب في موضوع الأحجار الكريمة. ولاشك في أن ما قصده الشيخ آذري

---

(11) عرائس الجواهر ونفائس الأطائب، تأليف أبي القاسم كاشاني، تحقيق وتقديم إيراج أفشار، طهران، ١٣٤٥، ص١٢٧.

(12) مجلة مهر، ٥(١٣١٤): ١١.

(13) الأعلام، الزركلي، الطبعة الأولى، ٩/ ٤٣ .

بـ «جواهر بركات» هو كتاب«جواهر نامه نظامي» هذا، وذلك عن طريق الحدس والتخمين، استنادًا إلى:

١- أنّ جميع محتوى الشعر تمّ العثور عليه في القسم الذي عنوانه «ألماس» في كتاب «جواهر نامه نظامي».

٢- ممّا لا شك فيه أن محمد بن أبي البركات ألف كتابًا في علم الأحجار الكريمة. وأن إعطاء اسم الأب بدلاً من اسم الابن كان من الاستعمالات غير المستغربة المتبعة في ذلك الوقت كقولنا على سبيل المثال منصور الحلاج، بدلاً من الحسين بن منصور الحلاج، وجرير الطبري بدلاً من محمد بن جرير الطبري. ولا شك في أن الرخصة الشعرية يمكن أن تفسّر الاقتصار على اسم والد المؤلف بدلاً من اسمه الكامل ونسبته.

تاريخ المؤلف:

هناك ستة تواريخ في نص كتاب جواهر نامه نظامي- حسب الترتيب الزمني التالي- يمكن أن تلقي الضوء على الحقبة التي عاش فيها المؤلف :

أ- ٥٥٥هـ، في هذا العام كان في كرمان تاجر يروي نادرة للمؤلّف عن دورق من البلور [مادة ١ بلّور]

ب- ٥٦٦هـ، في هذا العام كان في يد أحد من التجار قطعة من جزع بشكل سفينة [مادة : جزع]

ج- ٥٨٨هـ، في هذه السنة أحضر علاء الدين تكش إلى سَرَخْس من أجل تغيير الخطوط والمعالم الرئيسية في زمرّد ريحاني به صورة لرجل وطير، ولتحويلها إلى عبارة لا إله إلا اللّه [مادة زمرد].

د- ٥٨٨هـ، في هذه السنة، أمره السلطان الغوري محمد ابن سام بنقش اسمه على خاتم من الياقوت [مادة ياقوت].

هـ- ٥٩٢هـ، سنة تأليف الكتاب كما حدّدها المؤلف في مقدمته.

و- ٥٩٣هـ، يقول النص ما يلي: "في شهور عام ٥٩٣هـ، روى لي أحد أصدقائي الأكفاء وكان تاجرًا بأنّ..."[3]. وفيما يتعلّق بالوضع والسياق فإن كلمة خمسمائة ربما تكون قد أُسْقِطتْ [مادة زمرد].

ففيما يتعلق بالتاريخ الأقدم ٥٥٥هـ، لا بد أن عُمْر المؤلّف لم يكن ليقل عن عشرين سنة ليتمكن من الدخول في مفاوضات مع تاجر. ولذا فقد يكون وُلد عام ٥٣٥هـ، وأن عمره كان يزيد عن الستين سنة عند تأليف الكتاب.

وكان هذا الجوهري معاصرًا لبعض الملوك والحكام
ذين أشار إليهم [إذا ما حانت الفرصة لذلك] وهم :

١- الملك السلجوقي سنْجر بن ملكشاه (٥١١- ٥٥٨)

٢- الملك الغُوري محمد بن سام (٥٥٨- ٥٩٩) الذي أتى المؤلف على ذكره ثلاث مرات: مرّتين باسم محمد بن سام ومرة واحدة باسم السلطان الغوري.

- علاء الدين تكش الخوارزمشاهي (٥٦٨- ٥٩٦)، وكما سبق أن قلنا ، فقد أمره هذا الملك بالحضور إلى سرخس.

- الملك المؤيد اي ابه Ayebe أحد قادة السلطان سنجر الذي فتح نيسابور وضواحيها عام ٥٤٨هـ، والذي هُـزِمَ وقُتِلَ فيما بعد على يد تكش في عام ٥٩٦هـ، وكان الملك المؤيد في كرمان عام ٥٥٨هـ .

- طغان شاه ابن الملك المؤيد.

- ملكة خاتون أم سلطان شاه، أحد حكام خوارزم، التي كانت قد جاءت إلى مسقط رأسِ الجوهري.

ومن بين المغامرات التي خاضها في حياته، رحلاته التي لا كاد يُعرف عنها شيء يذكر. ونحن على يقين من أنه ذهب في حلة إلى سرخس بناءً على دعوة علاء الدين تكش، حيث أشار بها هو نفسه. كما ذهب في رحلة أخرى إلى كرمان. وعلى

الأقل فإن رحلته مع علاء الدين تكش الذي كان في كرمان عام ٥٥٨هـ حدثت بها؛ أضافة إلى ذلك - وكما سبق أن قلنا- فقد تحدث الجوهري عن لقائه مع تاجر من كرمان عام ٥٥٨هـ.

كذلك زار مناطق مثل كيش (قيس) والبحرين، وبصورة خاصة شيلاف (سيراف) وذلك بالنظر إلى كون المعلومات المفصلة غير العادية التي قدمها عن اللؤلؤ والمواضيع المتعلقة به أظهرت أنه كان هناك لمدة من الزمن ودوّن معلومات عن أسعار اللآلىء والشروط الخاصة المتداولة هناك من الخبراء المحليين بالذات. وربما يكون قد سافر أيضا إلى مسقط كما يتبيّن من طابع ما دوّنه.

الشخصية المُهدَى إليه الكتاب:

أُهديَ المؤلّف إلى صدر الدين أبي الفتح مسعود بن بهاء الدين علي ابن القاسم الأبهري، وزير علاء الدين تكش، الذي كان عدوًا لدودًا للإسماعيليين الذين اغتالوه[١٤]، وأن الألقاب التكريمية المغولية قتلغ بلكا ألغ التي وردت في المقدمة معناها «مدبر الأمور السعيد الموثوق العظيم الحكيم» .

---

[١٤] دستور الوزراء، تأليف خوان مير، تحقيق وتقديم سعيد نفيسي، طهران، ١٣١٧، ص٣٣١- ٣٣٢.

ترتيب المخطوطات حسب أهميتها :

١- مخطوط قُم في مكتبة مرعشي (١٥٠ صفحة). عند
:عي على نسخته الفوتوغرافية لأول مرة، لاحظت أنها تعود
السيد باقر ترقّي (رقّت) الذي كان جامع كتب ومصادر في
ران. وهو الآن ملك لمكتبة آية الله مرعشي[١٥]. وقد تم نسخ
طوط في القرن السابع هـ/ الثالث عشر م، بخط أشبه بخط
يق. وهو نسبيًا قليل الأخطاء. وبه فراغات في البداية والوسط
هاية، تجليده رديء. تتوقف نهايته في القسم الخاص بالمينا.
اتخذت هذه النسخة أساسًا للتحقيق الذي قُمتُ به.

٢- مخطوط تركيا: مكتبة بايزيد رقم ١/١٩٤٤، (١٩٤
حة)، خطه أشبه بخطوط النسخ، في القرن الثامن الهجري/
ـع عشر الميلادي[١٦]. وقد أكملت الفراغات في أجزاء منه
لوط تعود إلى القرنين /١٥- ١٦م. أما الفراغ في النهاية فهو في
م «ختو» وهو مصطلح يعني إما القرن لنوع من البقر في عزب
ين أوالبقرة نفسها.

٣- مخطوط طهران: مكتبة مالك الوطنية رقم ٣٦٠٩،
١ صفحة)[١٧]، وخطها من النسخ والتي تعود إلى القرن الثامن

جلة شهاب، مجلد ٣، عدد ٤ (١٣٧٦) ص ٥٣.
ختارات من المخطوطات العربية النادرة في مكتبات تركيا، إعداد رمضان
ن، تقديم أكمل الدين إحسان أوغلو، إستانبول ١٩٩٧، ص ٧٢٨.
كتابخانة مركزى دانشكاه، طهران، ميكروفيلم ٣٤٥٧.

الهجري/الرابع عشر الميلادي. وقد أثّرت الرطوبة في صفحاتها. وأعيدت كتابة الكلمات الباهتة والمطموسة. ويحفل المخطوط بأخطاء في القراءة وأغلاط بسبب عدم معرفة الناسخ بالموضوع وبالمصطلحات الفنية، وكذلك بسبب عجزه عن قراءة الأجزاء المطموسة، وواقع الأمر أنه مخطوط مظلل. ولو لم يكن يعاني من هذا الضرر لأمكن اختياره أساسًا للتحقيق، وقد دوّنت مقالتي التي سبق ذكرها استنادًا إلى هذه النسخة، لأنها كانت أول النسخ التي وقعت عيني عليها، غير أنني لم أُغفل الإشارة إلى نواحي النقص. الفراغ في النهاية في قسم التلاويح (المينا وما شاكلها من مكونات الطلاء)، ومن مزايا هذا المخطوط أنه يحوي صورة توضيحية لعملية « دود دان»، أي عملية الحرق البطيء في فرن بهدف الطلاء بالميناء وما شابهها، ولا توجد هذه الصورة في المخطوطات الأخرى. وهناك ختم على الصفحات ١١(b)، و٢٠(b) و٣٢(b)، و٤٣(b)، و٥٨(b)، و٧٢(b)، و٧٥(b)، و٩٠(b)، و١٠١(b)، و١٠٢ (b)، ١٣٤(b)، و١٥٥(b)، وهي مطموسة لسوء الحظ[١٨].

٤- مخطوط طشقند، مكتبة معهد المخطوطات رقم ١٤٢٣، (١٦٥ صفحة). منسوخ بخط النستعليق. وهناك انقطاع مفاجيء في مادة «ختو»، وبه أخطاء عديدة في القراءة والرسم.

---

[١٨] شكرًا جزيلاً، لتلطف Z Vessel.

و مكتمل في الأجزاء الوسطى، ويمكن أن يكون ذا فائدة خطوطات غير المكتملة[19].

٥- مخطوط لاهور: مجموعة محمود شيراني رقم ٤١٠٧/ ١٦ وقد أهديت لجامعة البنجاب. ويتألف من ١٩٥ صفحة. وهو سوخ في القرن الحادي عشر الهجري/ السادس عشر الميلادي. ه فراغات (في الفصل الأول من المقدمة)، وفي الأجزاء سطى، وينتهي بالمادة «زئبق». وتفيد الجملة الختامية: «تمّ كتاب بعون الملك الوهاب»؛ أنه قد انتسخ من نسخة تنتهي بهذا سم[20].

٦- مخطوط محمد علي تربية. وفي مقالته عن «الألماس» يقدّم تربيت أي معلومات حول نوعيّة مخطوطه. ويقتصر على ديم اقتباس قصير عن الألماس من كتاب جواهر نامه. ولا رف شيئًا على الإطلاق عن مكان وجود المخطوط. وقد رأى مد أمين رياحي في تعليقاته على الفصل الخامس على سبيل خمين، أنه قد يكون مخطوط مالك. ولدى مقارنة اقتباس بيت اتضح أنّ الاختلاف اختلاف في قراءة النصوص. وبناء على

فهرست مخطوطات شيراني، تأليف محمد بشير حسين، لاهور ١٩٧٣، مجلد ٢، ٥٤٤.

انظر الحاشية عدد ٢.

ذلك فإن مخطوط تربيت مختلف عن مخطوط مالك، وأن صاحب المخطوط الأول ما زال غير معروف[٢١].

٧- مخطوط الذريعة، وهو نسخة راجعها الشيخ آغابزرك طهراني في كتابه الشامل الموسوم بـ «الذريعة إلى تصانيف الشيعة» وقدّم لها وصفاً موجزاً، ولكنه لم يخبرنا عن المكان الذي رأى فيه المخطوط.

المحتويات:

يبدأ النيسابوري كتاب «جواهر نامه نظامي» بتعميمات حول الكائنات وأنواع وطبيعة ميلادها وبقائها. ويورد في المقدمة سبب تأليف الكتاب وإهدائه إلى الوزير المذكور. ويشرح الكيفية التي جمع بها مادة الكتاب وألّفه على الوجه التالي: « ليس ثمة من خدمة تليق بمقام الوزير إلا خدمة علمية تحمل من النفع ما يؤهلها للتشريف والتقدير والجدارة بالتقدم لجنابه، وسأحاول بذل قصارى جهدي في تحقيق هذه الخدمة المتواضعة كل التواضع. وبالنظر لما أسلفت شرحه، فقد حاولت تأليف كتاب علمي. وعندما حاز هذا الجهد البالغ التواضع على رغبة جنابه ورضاه، أصبح لزامًا عليّ تصنيف كتاب مختصر جامع لما

---

[٢١] الذريعة إلى تصانيف الشيعة، طهران ١٣٢٣، مجلد ٥، ٢٨٣، أيضًا مجلة راهنماى كتاب ١٥(١٣٥١): ٣٢٧- ٣٢٨ (مع الشكر لتلطف حسين مدرسى طباطبائي).

توصل إليه أهل العلم السابقون حول دراسة الأحجار الكريمة، إضافة إلى ما اكتسبته أنا من خلال تجاربي الشخصية في الجوهرات وصقل الحجارة الكريمة ونقشها، مضيفاً إليها طرائف ومُلَحًا سمعتها من الثّقاة ومن التجار».

وبناءً على ذلك فإن عملية التأليف هذه مبنية على:

١- ما توصل إليه العلماء السابقين من نتائج

٢- تجارب المؤلف الشخصية في علم الجواهر، وصقل الحجارة الكريمة ونقشها، ومما كان قد تناهى إلى سمعه من ثقاة التجار.

أما ما قصده من عبارة «العلماء السابقين»، فهو اقتباسات استخلصها وترجمها من كتاب «الجماهر» للبيروني، الذي ذكر بدوره مرارًا أسماء جابر بن حيان، ويعقوب الكندي، ونصْر الجواهري بأنها موارد للمعلومات. ويتضح بجلاء من محتوى كتاب «جواهر نامه» وترتيبه أن النيسابوري كان قد استخلص وترجم قدرًا كبيرًا من كتاب «الجماهر». ويمكن القول أن ثلث الكتاب مأخوذ منه. وفي معرض ترجمة المواد واقتباسها، ذكر المؤلّف مرات تولّى توضيحها أن «الأستاذ أبي الريحان». وذكر كتاب «الجماهر» ثلاث مرات، غير أنه تنبغي الإشارة إلى أن الجوهري النيسابوري أحدث كثيرًا من التغيير لترتيب البيروني، في كل فصل، وقسم حسب ذوقه

ونـواحي الملاحظـة المباشـرة وعلـى الأرجـح حسـب درجـات أهميـة المواضيع. زد على ذلـك أنـه أضـاف معلومـات شتى ومـا سمعـه مـن الآخرين وذلك في ثنايا ما اقتبسه عن «الجماهر» .

ويقسم كتاب «جواهر نامه» إلى أربع مقالات :

١- المقالـة الأولى في خصـائص العناصـر المعدنيـة وبهـا أربـع مقالات.

٢- المقالة الثانية: في اللآلىء والجـواهر ومـا شـابهها ، وأسـعارها والمعلومـات والنـوادر والطرائـف الـتي تـدور حولها. وقـد تنـاول البيروني ٣٢ نوعًا من الحجـارة الكـريمـة ، إضـافة إلى وصـف موجز للطلاء بالمينا في النظام الموازي. لكن كتـاب «جـواهر نامـه» تحـدث عـن ٥٢ مـن الجـواهر ، إلى جانـب فصـلين في نهاية هـذه المقالـة عـن خصـائص الحجـارة الكـريمـة مقتبسـة من أرسطو ، مـع تقـديم جـواهر ذات قيم تشخيصيـة خاصـة ، وقـد اقتـبس المؤلـف بعضًـا مـن هـذه النقـاط مـن الجمـاهر في الجواهر مضيفًا إليها ما توصل إليه شخصيًا من نتائج.

٣- المقالة الثالثة: قسـمها إلى عشـرة أقسـام، حـول المعـادن مثـل الكبريـت والزئبـق والـذهب والفضـة والنحـاس والقصـدير والرصـاص والحديـد والخارصـين (أحـد المعـادن السـبعة) والحديـد الصـيني (وهـو سـبيكـة تسـتعمل في صـنع المرايـا). ويذكـر أن الكبريت والحديد الصـيني مفقـودان في كتـاب

البيروني. أما كتاب «جواهر نامه نظامي» فقد تحدث في هذا القسم عن المعمولات والممزوجات وهما عمليتان لصنع السبائك، وأتى على ذكر سياق النحاس والقصدير، والرصاص والنحاس، ومزيج من جميع المعادن الرئيسة. وقد سبق أن بحث البيروني هذه في مقالته الثالثة. وأضاف كتاب جواهر نامه «الشبه» وهو المرجان الأسود، مع أن البيروني بحثها في مقالته الأولى تحت اسم السَّيج. ومن الجدير بالذكر أن مؤلف «جواهر نامه» أورد عنوان هذه المقالة باللغة العربية في صيغة «المقالة الثالثة في شرح الفلزّات».

٤- المقالة الرابعة: وموضوعها أنواع المينا والطلاء وتصنيع كل منها ومركباته. وينطوي الجزء الرئيس لهذه المقالات على وصف التلاويح. ويقع وصف البيروني الذي يدور حول «المينا وفي ذكر القصاع الصينية» في ما مجموعه أربع صفحات غير أن الجزء المناظر في كتاب «جواهر نامه نظامي» لا يقل عن عشر صفحات في كل من المخطوطات المتوفرة.

الجديد في كتاب «جواهر نامه نظامي»:

ذكرت إن النيسابوري أورد في المقالات الأربع ما تمت مناقشته في المقالات الثلاث من كتاب البيروني، مغيّرًا في محتويات كل قسم حسب رؤيته. وننظر على سبيل المثال، إلى

عناوين ترتيب الموضوع في المؤلَّفَيْن (انظر الملحق/٣). فقد حذف النيسابوري بشكل كليّ أحيانًا بعض الموضوعات أو اختصرها. حيث أنه لم يضمّن كتاب «جواهر نامه نظامي» أيه أشعار أو شذرات أدبية من قبيل التي ضمّنها البيروني مؤلفه. بل أن النيسابوري أغفل بيتين من الشعر ذكرهما البيروني حول الياقوت مع أنهما مناسبان للترجمة الفارسية. ولم ينتبه المؤلف للنواحي الحرفية وغير البارزة اللهم تلك التي تتعلق مباشرة بتلك الجواهر ومعادنها. ولم يلتفت إلا للمناقشات العلمية ذات العلاقة الدقيقة بدراسة المواد دون الاهتمام بغير ذلك. ومؤلف النيسابوري حافل بالأشياء الجديدة والمعلومات الفريدة تمامًا في بابها. ويمكن تصنيف هذه ضمن الفئات التالية:

لقد قدم لمعرفته وعلمه الشخصي بعبارة «العبد الضعيف»، «الفقير» و«الأضعف» التي كُرِّرت زهاء عشرين مرة. وكانت هذه المعلومات حصيلة تجاربه الشخصية، إضافة إلى الخبرات التي اكتسبها من رحلاته بما فيها تلك الخبرة المتصلة باللآلىء وأثمانها، حيث عرفها من أسفاره إلى كيش وقلغتو. وكان عمل البيروني يفتقر إلى المعلومات عن اللآلىء في هذين المكانين. كما تُعْرض معرفة البيروني باللؤلؤ في كتابه، طبعة

كرنكوف، في حوالي خمسين صفحة، بينما جاء الموضوع نفسه في جواهر نظامي في ما يقرب من تسعين صفحة.

ومن مزايا النيسابوري في هذا القسم سرده لأربعين نوعًا من اللآلىء. وقد وصف وشرح أنواعها وأحجامها وأوزانها. واشتمل على قدر من المعلومات أكثر مما أورده البيروني وخاصة حول أثمانها. وكتاب «جواهر نامه نظامي» ثريٌّ بالمصطلحات الفارسية عنها. وفيه عرض بالتفصيل لأساليب ثقبها ، مختتمًا قوله فيها بما يلي :

«ومن المعتاد في بغداد ممارسة عمليات ثقب اللآلىء ونظمها في خيوط. وجرت العادة في السابق على القيام بذلك في خوزستان وسيلاف (سيراف). وفي سالف الأيام كان التجار يبتاعون اللآلىء من كيش والبحرين ويجلبونها إلى خوزستان وسيراف، ونظم اللآلىء في خيوط إلى جانب قطع أخرى من الحليّ مع إدخال أية تعديلات ضرورية وممكنة عليها. وفي تاريخ كيش والبحرين القديم لم يوجد ثقابون ونظامون لخيوط اللآلىء».

وتوجد مجموعة من هذه الإفادات التاريخية والفنية في كتاب «جواهر نامه نظامي»، ولنا أن نقارن بين كتابي «جواهر نامه» و «الجماهر» بعد نشرهما. ولا مشاحة في أن هذا النص الفارسي قد يقدّم عونًا لا يقدر لأيّ طبعة جديدة من كتاب

«الجماهر» وهو مصدر موثوق بصوره خاصة حول المصطلحات الفارسية التي استخدمها البيروني.

ومن المصطلحات الفارسية المستخدمة في كتاب «جواهر نامه نظامي» كلمات عاميّة من مناطق نيسابور ومدن خراسان، مثل داش (فرن)، ودا شخال (فخّار صلب) وكِشته (قطع مجففة من الفواكه). وفي مناقشته للفظ داشخال أشار إلى صناعة أباريق الفُقاع أو البيرة. وفي ذلك فائدة لأولئك المهتمين بتاريخ هذه المخلفات التاريخية وصناعتها، وقد كتب يقول:

«إذا شُوي الصلصال على درجة حرارة عالية، فإنه سيتحول إلى قطعة من الفخار. وإذا ما شُوي على درجة حرارة مرتفعة جدًا فإنه سيتحول إلى قطعة من الفخار شديدة الصلابة كالحجارة تسمى الداشخال في نيسابور، ويتخذ منها أباريق للبيرة».

وفي رأيي أن من أهم الأقسام في كتاب «جواهر نامه»، تلك التي تتحدث عن اللآلىء والفيروز. وتمكن النيسابوري من جمع قدر كبير من المعلومات من الأشخاص الذين يعملون في مهنة الغوص وثقب اللآلىء ونظمها والمتاجرة بها في سيراف وكيش وخارْك والبحرين، وتقييمهم حسب نظرة خبير ضليع بالجواهر. وكانت نيسابور - وهي أهم مصدر للفيروز بمناجمها الكثيرة- مسقط رأس المؤلف، ولذلك نجح في تقديم اسم كل

منجم من مناجم الفيروز، موضحًا الفروق بين فيروز نيسابور وفيروز الأماكن الأخرى مثل خُجند، ذاكرًا أسعارها بالتفصيل.

وكان النيسابوري جواهريًا وصاقلاً للأحجار الكريمة، فمكّنه ذلك من امتلاك السيطرة على الحجارة الكريمة من الناحية العلمية، كما يُثبت ذلك جيدًا محتوى كتابه. وكان ضليعًا إلى حد بعيد في جواهر كل منطقة حتى تلك الآتية من تركستان وسجستان والهند وسيلان. غير أن المكان الذي كان يركّز عليه هو خراسان، وبخاصة نيسابور وكرْمان وسيراف. وفي هذا النص نجده يقدم من المعلومات عن خراسان ما يقارب خمسين مرة، سواء تلك التي يقتبسها من البيروني أو يقدمها بنفسه.

أسماء الجواهر المنْحول:

كما سبق لي أن قلت، هناك كتابان عن دراسة الجواهر تم تدوينها بعد ظهور كتاب «جواهر نامه نظامي» وكانا يستندان إلى مؤلّف النيسابوري دون أية إشارة إليه، أو إشارة اعتراف وشكر لمؤلفه. وقد سبق لي أن بحثت ذلك بتفصيل في إحدى المقالات. أما الكتاب الأول فهو «تنسوخ نامه إيلخاني» الذي كتبه خواجه نصير الدين الطوسي (٦٦٣هـ)، والثاني هو «عرائس الجواهر ونفائس الأطايب» للمؤرخ الشهير

أبي القاسم القاشاني عام ٧٠٠هـ، وتم تحقيق كل من المؤلفين. وقد قام محمد تقيّ مدرّس رضوي بنشر الأول بينما قمتُ بنشر الثاني. ويتضح أن محتوى مؤلف النيسابوري دخل إلى مؤلفات لاحقة في علم دراسة الجواهر إما مباشرة أو من خلال هذين الكتابين. الأمر الذي لا نتحدث فيه بالتفصيل هنا.

المراجع:

- حكيم محمد سعيد: كتاب البيروني عن المعادن. وهو من أكثر الكتب شمولاً في المعرفة بالأحجار الكريمة. إسهام خاص في سلسلة المشروع، بقلم حكيم محمد سعيد، إسلام آباد، ١٩٨٩م .
- كين، م . لوم. جنكنز: جواهر الموسوعة الإسلامية. ملحق ليفريزون ٣- ٤ ، ١٩٨١م، ص ص ٢٥٠- ٢٦٢.
- بورتر إيف: « نصوص فارسية حول الخزف »، علوم العالم الإيراني في العهد الإسلامي » دراسات جمعها وقدمها ز- فيسيل و هـ. بيكباغبان وب ثييري دي كريسول دي إيبيس. طهران ١٩٩٨م ص ص ١٦٥- ١٨٩.
- ريتر، هلموت: بحث « كتاب الأحجار الشرقية »من« كتب الأحجار الشرقية وطرق صناعة الفسيفساء الفارسية» تأليف ريتر، وج. روسكا، وف.سار، وأ. ويندرليش ، إستانبول ١٩٣٥م .
- روسْكا جوليوس: كتاب الأحجار لأرسطو، مشفوعًا بدراسة نقدية تحقيقية بحسب المخطوطة العربية في المكتبة الوطنية، تحقيق وترجمة، هيدلبرغ ، ١٩١٢، ٢٠٨س (ترجمة لوقا، ص ٩٣ - ١٢٥).

- روسكا جوليوس : علم المعادن والأدبيات العربية

- ستوري س . أ : الأدب الفارسي، لندن ١٩٧٧، المجلد ٢، الجزء ٣ ، ص ص ٤٤٩- ٤٥٥.

الملحق/١

الأعمال المهمّة حول علم الجواهر والمعادن

مرتبة حسب تواريخ تأليفها

١- يحيى بن ماسويه، كتاب الجواهر وصفتها، وفي أي بلد هي، وصفات الغواصين والتجار، تحقيق عماد عبد السلام رؤوف، القاهرة، ١٩٧٦م.

٢- أرسطوطاليس: كتاب الأحجار، ترجمة لوقا ابن إسرافيون ص ص ٩٣- ١٢٥ (انظر ثبت المراجع تحت باب رشا)

٣- الحسن بن أحمد الهمذاني، أبو محمد: الجوهرتين العتيقتين المائعتين من الصفراء والبيضاء

أ- طبعة ش تول Ch. Toll ظهرت تحت عنوان:

Die Beiden edelmetalle Gold und Silber, Herausgegeben und Ubersetzt ch. Toll, Uppsala 1968.

ب- تحقيق حمد الجاسر (الرياض) ١٩٨٧

٤- البيروني، أبو الريحان: الجماهر في الجواهر

أ- تحقيق أ. كرنكوف، حيدر آباد ١٩٣٣م

ب- تحقيق يوسف الهادي، طهران ١٩٩٨م

٥- أحمد التيفاشي: أزهار الأفكار في جواهر الأحجار، تحقيق محمد يوسف حسن ومحمود بسيوني خفاجي، القاهرة، ١٩٧٧م.

٦- نصير الدين الطوسي: كتاب تنسوخ نامه، تحقيق محمد تقي مدرس رضوي، طهران ١٣٤٨ش/١٩٦٩م

٧- أبو القاسم القاشاني: عرائس الجواهر ونفائس الأطايب، تحقيق إيراج أفشار، طهران ١٣٤٥ش/١٩٦٦م

٨- محمد بن إبراهيم بن سعيد الأنصاري السنجاري، ابن الأكفاني: نُخب الذخائر في أحوال الجواهر، تحقيق أنستاس ماري الكرملي، القاهرة ١٩٣٩م

٩- مجهول ٨٢٨- ٩٢٣: جواهر نامه، تحقيق تقي بينش، طهران ١٣٤٣ش/ ١٩٦٤

١٠- علاء بن حسين البيهقي: معدن النوادر في معرفة الجواهر، تحقيق محمد عيسى صالحية، الكويت ١٩٨٥م .

الملحق/٢

المؤلفات الفارسية والعربية الرئيسة حول علم الجواهر والمعادن (مخطوطة أم مطبوعة)

الرقم	تاريخ التأليف	العنوان	المؤلف	اللغة	تاريخ النشر	المصدر
١		خواص الأحجار ونقوشها	هرمس الهرامسة	عربية		برلين
٢	القرن٢هـ/٨م	علل المعادن	جابر بن حيان	عربية		محمد علي تربيت
٣	ت ٢٤٣هـ	الجواهر وصفاتها	يحيى بن ماسويه	عربية	١٩٧٦	
٤	ت ٢٥٦هـ	أنواع الجواهر (كتاب الأحجار)	يعقوب بن إسحاق الكندي	عربية		طبقات الأطباء
٥	القرن ٣هـ/٩م	كتاب الأحجار لأرسطو طاليس	لوقا بن سيرابيون	عربية	١٩١٢	ششن ٧٠٧
٦	ت ٢٦٤هـ	خواص الأحجار	حنين بن إسحاق	عربية		تربيت، BN
٧	ت ٣٣٤هـ	الجوهرتين العتيقتين	أبو محمد الحسن ابن أحمد الهمذاني	عربية	تول ١٩٨٦	
٨	٣٨٥هـ	كتاب الأحجار	الصاحب بن عباد	عربية	الجاسر ١٩٧٨	ششن ٥٣٣
٩	حوالي ٤٠٠هـ	رسالة في الأحجار	ابن الجزار القيرواني	عربية		التيفاشي
١٠	ت ٤٤٠هـ	الجماهر في الجواهر	أبو الريحان البيروني	عربية	الهادي ١٩٩٧	كرنكوف ٢٣
١١	ت ٤٤٠هـ	نزهة النفوس والأفكار في خواص المواليد	أبو الريحان البيروني	عربية		مكتبة البودليان

١٢	٥١٤هـ	زيادة على كتاب الأحجار للصاحب ابن عبّاد	ابن القطاع السعدي	عربية		شتشن ١٣٤
١٣	٥٩٢هـ	جواهر نامه نظامي	أحمد بن أبي البركات	فارسية		خمسة مخطوط
١٤	٥٩٥هـ	تفسير منافع الأحجار لأرسطوطاليس	محمد بن عبد الملك على الأرجح ابن زهر الإشبيلي			شتشن ٧٤١
١٥	٦٢٦هـ-٦٤٢م	كنز التجار في معرفة الأحجار	بيلك بن محمد قبجاقي	عربية		بروكلمان ١: ٦٥٢
١٦	٦٥١هـ	أزهار الأفكار في جواهر نامه	شهاب الدين أحمد التيفاشي	عربية	١٩٧٧	ترجمة فارسية إيفانوف ١٦١٦
١٧	٦٦٣هـ	تنسوخ نامه ايلخاني	نصير الدين الطوسي	فارسية	١٣٤٨/١٩٧٠	
١٨	٦٩٠هـ	خواص الأحجار في التواقيت	عز الدين إبراهيم السويدي	عربية		برلين/ ترييت
١٩	القرن ٧هـ/١٣م	الباهر في أحوال الجواهر		عربية		ك.الظنون ٩١٢ شتشن ٨٤
٢٠	٧٠٠هـ	عرائس الجواهر ونفائس الأطايب	أبوالقاسم قاشاني المؤرخ	فارسية	١٣٩٥/١٩٦٧	
٢١	٧٤٩هـ	نخب (نخبة) الذخائر في أحوال الجواهر	محمد بن إبراهيم بن سعيد الأكفاني	عربية	١٩٣٩م	مجلة المشرق

٢٢	القرن ٨هـ/١٤م	الجواهر والأحجار	ينسب إلى عطارد			ششن ٥٩٦وBN
٢٣	القرن ٨هـ/١٤م	رسالة في الأحجار	شمس الدين محمد الدمشقي الغساني	عربية		ششن ٥٢٢
٢٤	ت ٨٤٥هـ	المقاصد السنية في معرفة الأجسام المعدنية	تقي الدين المقريزي	عربية		تربيت
٢٥	٨٨٦هـ	جواهر نامه سلطاني	غياث الدين منصور الدشتكي	فارسية		سيبهسالار ٣٣٢
٢٦	القرن٩هـ/١٥م	درر الأنوار في أسرار الأحجار	عيسى الرومي المرجوشي	عربية		الخديوية، تربيت
٢٧	القرن ٩هـ/١٥م	(جواهر نامه نظامي)	زين الدين محمد جامي	فارسية		أهداه إلى شاهرخ مركزي٣٠٦٨(١)
٢٨	ت ٩١١هـ	المقالة الياقوتية في أنواع الجواهر	جلال الدين السيوطي	عربية		تربيت
٢٩	بعد ٩١٥هـ	معدن النوادر في معرفة الجواهر	علاء بن حسين البيهقي	عربية	١٩٨٥	
٣٠	بعد ٩٣٥هـ	جواهر نامه همايوني	محمد بن أشرف الحسيني	فارسية		
٣١	القرن ١٠هـ/١٦م	جواهر نامه	شاه مبارك بن مبارك شاه قزويني	فارسية		تربيت

٣٢		جواهر نامه (مترجم من العربية)	منسوب إلى أفلاطون	فارسية		ملك ٢٥٩٦ (١١)
٣٣	ت ١٠٢٥هـ	تحلية البصائر لتمشية الجواهر	أحمد شناوري	عربية		تربيت
٣٤		نزهة الأبصار في خواص الأحجار		عربية		ششن ٩٢١
٣٥		جواهر نامه منظوم	رشيد عباسي	فارسية	١٠٠٠	ملك ٥٦٦(١)
٣٦		منتخب جواهر نامه أصل		فارسية	١٣٤٣/١٩٦٦	فرهنك أيران زمين

❖ "تربيت" مختصر لمقال م.ع. تربيت الذي عنوانه "الماس"

الملحق/٣

جدول لترتيب الموضوعات في كتاب البيروني:

«الجماهر»، وكتاب: «جواهر نامه نظامي»

الياقوت		اللؤلؤ	
البيروني	النيسابوري	البيروني	النيسابوري
تعريفات	تعريفات	تعريفات	تعريفات
قيم الجواهر	علة التكوّن	أسماء اللآلىء عند اللغويين	المواضع
أخبار في اليواقيت	ذكر المعادن	مائيات اللؤلؤ الرطب	ذكر الصدف
الأصفر	منافع وخواص	صفات اللآلىء	الصيد وأماكن الغوص
الأكهب	عيبها		أنواع اللآلىء
الأخضر	أشباه	قيم اللآلىء	قيم اللآلىء
	ياقوت زرد (الياقوت الأصفر)	أوزان	جلاء اللآلىء الفاسدة
	ياقوت الكهب	مائيات المرجان منفصل في كتاب النيسابوري	خواص اللآلىء

	الياقوت الأحمر البني غريب اللون		
		ذكر البحر واليمّ	نظم اللآلىء
	الياقوت الأبيض	الأصداف ومواضع اللآلىء	ثقب اللآلىء
	جلاء الياقوت		أخبار وحكايات
	أسعار اللآلىء	أماكن الصيد والغوص	
	أخبار وحكايات	أعماق وأماكن الصيد والغوص	
		أوقات الغوص	
		كيفية الغوص	
		أخبار في اللآلىء	

مقالة ابن رشد حول الطعوم

أهي جزء من كتابه المفقود « كتاب النبات » ؟

ماورو زونتا Mauro Zonta

لم تكن دراسة النبات كعلم قائم بذاته فرعاً من المعرفة واسع الانتشار بين مسلمي العصور الوسطى. فقد كانت غالبية الأبحاث أو الرسائل التي أُلّفت باللغة العربية خلال تلك الحقبة أقرب ما تكون إلى قوائم باسماء النباتات وأوصافها، تقدم المعلومات عن خصائصها الطبية أو كيفية زراعتها؛ منها إلى دراسة منهجية منظمة للنبات هادفة إلى تصنيفه وفق معيار علمي. وضمن هذا السياق العام كانت المؤلفات «العلمية» القليلة عن النبات ذات أهمية خاصة. وقد كرس بعض جهابذة الفلاسفة الأرسطوطاليسيين من المسلمين في العصور الوسطى أحد مجالاتهم في الكتابة لدراسة نظرّية في النباتات كثيراً ما جاءت على نمط الرسالة الموسومة «عن النباتات» المعزوة إلى أرسطوطاليس. أما نص هذه الرسالة التي كانت في حقيقة الأمر خلاصة وافية لكتاب أرسطوطاليس الأصلي «عن النباتات» وأجزاء من مؤلّف ثيوفْراسْطُسْ الذي عنوانه «تاريخ النباتات »، وهي الرسالة التي صنفها نقولا الدّمشقي في القرن الأول قبل

الميلاد، فقد تُرجم إلى العربية حوالي عام ٩٠٠م، موفراً بذلك نموذجاً جيداً يقتدي به ما كتب بالعربية عن النبات، إذ كان مصدر إلهام لابن سينا عندما تناول النباتات في فصله عن الموضوع في كتابه «الشفاء»، وكذلك كان بالنسبة لابن باجه في مصنفه «كلام في النبات»، وكلا الكتابين موجودٌ وقد جرى تحقيقهما: الأول عام ١٩٦٥م[١] والثاني عام ١٩٤٠م[٢]. كما أن أبا الفرج ابن الطيب البغدادي أحد شرّاح أرسطو المرموقين في القرن الحادي عشر ألّف «كتاب النباتات»: وقد نُشِر جزءٌ من الكتاب - الذي يبدو أنه كبير - في مجلد، سنة ١٩٨٩م وقد درسه هندريك جوان دروسارث لولُفْس Hendrik Joan Drossoort Lulofs و. أ. ل. ج. بورتْمان E.L.J.Poortman، ويركّز عما كُتِب في العصور الوسطى عن كتاب «النبات»[٣] المعزو إلى أرسطوطاليس. وأخيراً ثمة دراسة علمية للنبات، مستلهمة من

[١] ابن سينا: الشفاء، الطبيعيات ج٧، النبات، تحقيق ع. منتصر، س. زايد، ع. إسماعيل، القاهرة ١٩٦٥.

[٢] م. آسن بلاسيوسM. Asin Palacios: النبات لابن باجه، مجلة الأندلس، العدد ٥، ص٢٥٥- ٢٩٩، مدريد ١٩٤٠.

[٣] هـ.ج. دْروسارْت لولُفْس H.J.Drossaart Lulofs، و أ.ل.ج. بورتمان E.L.J. Poortman، نيقولا الدمشقي، عن النبات، خمس ترجمات:
Verhandelingen der Koninklyke Nederlandse Akademie van Westenschappen, Afd. Lerrerkunde'n.r. 139, Amsterdam-Oxford-NewYork 1989, 219-231.

مصادر يونانية، موجودة في الرسالة الحادية والعشرين من «رسائل إخوان الصفا» التي سبق أن حُقّقتْ أكثر من مرة[٤].

وتؤدّي هذه الحقائق بالمرء إلى الاعتقاد بأن ابن رشد أيضاً، وهو أشهر شرّاح أرسطوطاليس باللغة العربية، لا بد أن يكون قد كتب مؤلفاً لعلم النبات. والواقع أن هناك بقايا ضئيلة من هذا المؤلّف ما زالت موجودة على ما يبدو وإلا أنه لم يُعْثر على نصه الكامل حتى الآن. وحقيقة الأمر أن المرء لا يقع على أيّ ذكر لكتاب من هذا القبيل في قوائم الكتب العربية التي ألفها ابن رشد. ويذكر آخر وأحدث من كتب عن حياة ابن رشد وآثارة العلمية والفكرية ميغويل كروز هيرنانديز Miguel Cruz Hernandez كتاباً عنوانه «تلخيص كتاب النبات» من بين هذه الكتابات[٥]، غير أن هذه المعلومة الببليوغرافية ناتجة عن خطأ: إذْ يذكر كروز هيرنانديز أن المخطوط العربي الوحيد الذي يحوي هذا العمل الفكري هو في مكتبة السليمانية في إستانبول، ويحمل رقم (١١٧٩) وهو في الواقع مخطوطة سبق أن أشار إليها لأول مرة موريس بويجز Maurice Bouyges قبل أكثر

[٤] انظر كتاب إخوان الصفا وخلان الوفا، الجزء الثاني، ص١٠١- ص١١٨، بومباي ١٣٠٥- ١٣٠٦هـ (١٨٨٨- ١٨٨٩م).

[٥] م. كروز هيرنانديز «أبو الوليد محمد بن رشد»، طبعة ثانية منقحة، قرطبة ١٩٩٧ ص٥٢، ٤٤٤ . إضافة إلى ذلك هناك قيد مادة عن كتاب النبات لابن رشد موجود في كتاب علم اللاهوت عند ابن رشد (دراسات ووثائق). مدريد- غرناطة، ١٩٤٧، ص ٧٤- ٧٥ .

من سبعين عاماً[٦] أنّه لا يحتوي إلا على نص الترجمة العربية لكتاب «النبات» المنسوب إلى أرسطو طاليس. ولكن بغضّ النظر عن هذه الإدخالات الببليوغرافية، فإن أفضل مُعالجة تتناول «كتاب النبات» لأبن رشد تأتي في كتاب دروسارْتْ لولُفْسDrossart Lulofs المتقدم ذكره آنفا حيث كرّس بعض صفحات لدراسة الأدلّة الحالية المتعلقة به[٧]. وسأناقش هنا جميع ما لدينا من معلومات حول مؤلّف ابن رشد المفترض وذلك استناداً لما جمعه دروسارث لولُفْس من موادّ.

والظاهر أن ابن رشد نفسه يعمد إلى اقتباس ما كتبه في النبات في الكتاب الخامس من موسوعته الطبية «الكليات في الطبّ»، حيث يكرّس ثلاثة فصول (٢٩، ٢٨، ٢٧) لدراسة خصائص الطعوم، والروائح والألوان، وهي مواضيع ثلاثة تشغل حيزاً بالغ الأهمية في الدراسات العربية للنبات. وفي الفصل السابع والعشرين بصورة خاصة يقدم ابن رشد وصفاً مسهباً للطّعْم المُرّ كما يراه هو بالذات؛ ثم ينقل آراء الأطباء حوله، ومن ثمّ يتوصل إلى استنتاج يقول فيه:(ما قلناه حول الطعْم المرّ سبق أن

---

(٦) M. Bouyges, *Sur le De plantis d'Aristote-Nicolas à propos d'un manuscript arabe de Constantinople*, Mélanges de I'Université Saint-Joseph'9 (1923) 71-89

(٧) قارن دروسارت لولُفْس وبورتمان، نيقولا، ٣٦٣- ٣٧١.

ورد شرحه في «كتاب النبات»[٨]، ومما لا مراء فيه أن ابن رشد لا يُشير هنا إلى كتاب «حول النباتات» المعزوّ إلى أرسطوطاليس، لأن الكتاب كما عرفه العرب وكما وصل إلينا لا يحوي أيّة إشارة إلى هذا الموضوع، كما أن نص هذه العبارة وفْقَ ما جاءت في النسخة اللاتينية من «الكليات» وهي (... الذي سبق أن ذكرناه عن المر في كتابنا الذي عنوانه «عن النباتات»[٩])؛ يَدْفع المرء بقوة إلى الاعتقاد بأنّ الفيلسوف كان يقصد هنا مؤلَّفاً له هو شخصياً عن النباتات. وإذا كان الأمر كذلك فلا بد للمرء من أن يلاحظ أن من غير المستغرب وجود بحث عن الطعوم في كتاب عربي حول النبات كما جاء في القسم الثامن من كتاب «الفلاحة النبطية»، حيث يتناول إنتاج النباتات إلى جانب دراسة لأصول وأسباب ما تتَسّم به النباتات من مذاقات وروائح وألوان[١٠]. ويبدو أن الطعوم تحديداً قد دُرِسَتْ من حيث الخصائص المتنوّعة للفَواكه وأخلاط الخُضار أو أمزجتها.

---

[٨] انظر ابن رشد : كتاب الكليات في الطب، تحقيق ج.م.فورنياس بستييرو، وج ألفاريز دى موارلسي، المجلد الأول، ص ٨- ٩، ص ٣١٢، مدريد ١٩٨٧.

[٩] قارن دروسارث لولفس- بورتمان، نيقولا، ٣٦٦ .

[١٠] Cfr. T.Fahd, *Genese et cause des saveurs d'après l'Agricultue Nabatiènne*, Revue de I'Occident musulman et de la Mediterranée' 13-14 (1973), 319-329

وفي مقدمة طبعة مؤلّفات أرسطوطاليس جنباً إلى جنب مع شروحات ابن رشد بالترجمة اللاتينية عام ١٥٥٠ في البندقية، وهي الطبعة التي قام بها جونتاس Juntas، نجد اقتباساً لرسالة من أحد أعيان تلك المدينة واسمه برناردو نافاغيرو[11] Bernardo Navagero وكان نافاغيرو قد عثر أثناء وجودة في القسطنطينية لدى بعض الأطباء المسلمين واليهود على كمٍّ يُعْتدُّ به من الكتب الفلسفية العربية، ذكر من بينها «الشرح الكبير لكتابين عن النبات» لابن رشد.

والواقع أن هذا العنوان لا يُقْصدَ به شرحٌ أو تعليق لأبن رشد، بل مجرد نسخة من الترجمة العربية لمؤلّف أرسطوطاليس المفترض في النبات. ويدعم هذه الفرضية أمران: أولهما أنه لا بد من ملاحظة أن هذا الكتاب المعزوّ إلى أرسطو طاليس كما جاء في المخطوطات العربية في القرون الوسطى كثيراً ما يحمل عنوان «تفسير نيقولاوس». وأن نافاغيرو ربما خلط بين كلمة تفسير مع عنوان «تفسير» الذي كثيراً ما يطلق على «تعليقات ابن رشد المطولة» على أرسطوطاليس. أما ثانيهما: فيبدو أن كتاب النبات لابن رشد، بقدر ما نستطيع التوصل إليه من المعلومات المتوفرة عنه، لم يكن «شرحاً مطولاً» لكتاب أرسطوطاليس المُدّعَى، إذ من شأن ذلك أن يعني ضمناً أنه جرى تعليق حَرْفّي

[11] ڤارن دروسارت لولفس وبورتمان، «نيقولا» ص ٣٦٣ .

على كل جملة في الأصل، لكن ذلك لا ينتج عن الاقتباس الذّاتي الموجز الوارد في كتاب «الكليات»، كما أن العنوان الذي يُفترض أن ابن رشد نفسه أعطاه للكتاب وهو «كتاب النبات»، يُدخله ضمن مجموعة المختصرات الجامعة لشتى الكتب، والمسماة «المجموعة الأرسطوطاليسية» التي خَطَّها قلم ابن رشد ذاته، وهي مجموعة كثيراً ما تطلق عليها عناوين متشابهة في الببليوغرافيات العربية في القرون الوسطى وفي بعض المخطوطات. وقد جرت العادة أن لا ينحصر أي مختصر جامع يصنعه ابن رشد في مجرد خلاصة لما كتبه أرسطوطاليس، بل على إعادة صياغة كافية وافية لمحتويات ما كتبه أرسطو يقدمها لنا ابن رُشْد ومعها بعض مواضيع لم توجد في النصّ الأصلي[١٢] لأرسطو.

وعلى أي حال، فقد توصل دْروسارْتْ لولُفْسْ إلى نتيجة مؤادها: أن هناك نبذة مما كتبه ابن رشد في النبات جرى اقتباسها في ترجمة عبرية في مصنف «آراء الفلاسفة» الذي ألفه شيم توف ابن فلاقويرا Shem Tov ibn Falaquera وهو موسوعة فلسفية علمية عبرية كُتبتْ في إسبانيا حوالي عام ١٢٧٠م. وطبقاً لما يقوله فإن النُّبْذة المذكورة متناظرة مع الفصل الثالث من الكتاب الرابع في موسوعة فلاقويرا التي تتناول الخصائص

---

[١٢] حول هذه المسألة انظر أيضاً ملاحظات في كتاب دروسارت لولفس وبورتمان ص ٣٦٧.

العامة للنباتات[١٣]. وهذا الفصل مستهلّ بالنص التالي: «قال ابن رشد»: ويفصّل القول بأن طبيعة النباتات تقررها أشياء أربعة: ١- المكان الذي تنمو فيه؛ ٢- المنطقة الجغرافيّة التي تعيش فيها ٣- فصل نموّها ٤- ما تؤديه من أعمال. ويتبع هذه العبارةَ العامةَ تَصْنيفٌ تجريبّيٌ غير نهائي لهذه المعايير. وتقسم النباتات إلى تامة وناقصة، كما تفتقر هذه الأخيرة إلى الخصائص المعروفة للنباتات، مثل الأزهار والأوراق. وفي القسم الأخير من النّبْذة قائمة ببعض الخصائص المميزة في نمو الخضار، مثل القول في إن بعض النباتات لا تنتج ثماراً لأنها أسْمن من أن تستطيع ذلك. ويتعرض الفصل بإسهاب واضح لبعض محتويات الكتاب المنسوب لأرسطوطاليس في علم النبات. وقد استنتج دروسارْثْ لولُفْسْ، بعد أن لم يجد أي تناظر بين كتابه هذا وأيّ من أعمال ابن رشد الموجودة حالياً، أن النبذة مستقاة من كتاب ابن رشد المسمى «كتاب النبات»[١٤]، والواقع أن أول أربعين سطراً من فضل فلاقويرا تتواءم مع نبذة من الفصل الثلاثين من الجزء الخامس من «كتاب الكلّيّات» الذي يعالج خصائص

---

[١٣] قارن تحقيق هذا الفصل الموجود في دروسارت لولفس- بورتمان، «نيقولا» ص٤٤٠- ٤٤٣.

[١٤] م. زونتا Zonta: «علم المعادن والنبات والحيوانات في الموسوعات العبرية» نهجان وصفي ونظري في تناول المصادر العربية «مجلة العلوم والفلسفة العربية»/٦ (١٩٩٦) ص ٢٦٣- ص٣١٣ ولا سيما ص ٢٩٣.

النباتات ضمن الاطار العام لمعالجة الأنواع البسيطة منها. ومهما يكن من أمْر، كما سنبيّن لاحقاً، فإن هذه الحقيقة لا تستبعد أن فلاقويرا هنا إنما كان يقتبس من كتاب ابن رشد المفقود في النبات. أما الكتاب الرابع من موسوعة فلاقويرا الموسومة بـ «آراء الفلاسفة» حيث يوجد الفصل المشار إليه آنفا، فمكرسّ بصورة خاصة لدراسة في النبات تمثّل مجموعة في غاية الطرافة حول مختلف المذاهب عن هذا الموضوع، قال بها الفلاسفة العرب في العصور الوسطى. وعلى غرار غالبية آثار فلاقويرا فإنه يتألف في معظمه من متقبسات[15]. والفصل الأول خاصة- الذي نشره دْروسارْتْ لولفس[16] - خلاصة لكتاب «النباتات» المنسوب لأرسطوطاليس: إذ يشرح كيف توجد الحياةُ في النّباتات؛ وما يوجد في أرواحها أو ما لا يوجد من خصائص تتصل عادة بالحياة من قبيل التغذية وتشكُّلُها، ومختلف أماكن نموّ النباتات. أما الفصل الثاني- الذي لم يُنْشَرْ بعد- فمكرسّ لتوليد النباتات وَمَلَكاتها، فأولاً: ثمة عرض لملكات الروح الإنباتية (وهو مستقىً من «رسائل أخوان الصفا»)، وثانياً: هناك وصف للمعالم المميزة الكيماوية لشتى أجزاء النباتات ويستند جُلُّها على كتاب ابن رشد «التلخيص» و«الشرح الأوسط» لكتاب أرسطو

---

(15) قارن جدول محتويات هذا الكتاب ومصادره الموجودة في كتاب زونتا علم المعادن...، ص٢٩١- ص٢٩٣.

(16) انظر دروسارت لولُفس وبورتمان «نيقولا» ص ٣٨٨- ص٤٠٥.

في الأنواء؛ وثالثاً: مناقشة لكل من المَوْقعين اللذين تحتلهما النباتات والحيوانات بين الكائنات الحيَّة (وهو مأخوذ كذلك من إخوان الصفا). ولا يبدو أن هذه الفصول تقدم لنا أيّ عون من أجل إعادة تركيب رسالة ابن رشد البحثية حول النباتات، غير أننا نجد في الفصل الرابع من مصنَّف فلاقويرا، وهو غير منشور أيضاً، مواضيع تسير جنباً إلى جنب مع محتويات مؤلَّف ابن رشد، كما جاءت نتيجةً للاقتباس المباشر في كتاب "الكلّيـاّت"، والحق أن هذا الفصل يعرض معالجة للطعوم والروائح والألوان، ويتوافق مع التعاليم الواردة في بعض أعمال ابن رشد الموجودة، لا سيما أن الحديث عن الروائح والألوان يكاد يماثل ما جاء في الفصلين الثامن والعشرين والتاسع والعشرين من الكتاب الخامس من «الكليات»، زد على ذلك أن بعض الجمل التي تتناول الطعوم بالشرح قريبة الشبه بالعبارات ذات الصلة الواردة في الفصل السابع والعشرين، إضافة إلى ما في شرح ابن رشد لأرجوزة ابن سينا[١٧]. والبحث في الطعوم واسع إلى

---

(١٧) هناك إشارات بين حين وآخر إلى نظرية الطعوم، موجودة في الأعمال الفلسفية الأخرى لابن رشد (انظر على سبيل المثال مختصره لكتاب ارسطوطاليس «في الحواس» كما نُشرَ في كتاب غاتجي H. Gätje, *Die Epitome der Parva Naturalia des Averroes* فيسبادن ١٩٦١، والنص العربي ص٢١- ٢٣ [المبني على كتاب الحواس ٤٤٢ أ١٢- ٢٩] وكتابه «التفسير أو الشرح الطويل» على كتاب أرسطوطاليس عن الروح كما نُشرَ في كتاب ف.س.كروفورد F.S. Crawford «الشرح الطويل ابن رشد القرطبي لكتاب أرسطوطاليس عن الروح»، كامبردج، =

درجة ما حيث يغطي أربع صفحات من مخطوط بارما Parma، (مكتبة بلاتينا، parmense 3156) الذي هو واحد من مخطوطين اثنين كاملين لمؤسوعة فلاقويرا (الآخر موجود في مكتبة جامعة لايدن مجموعة OR 4758) كما يبدو أن النظريات الموجودة فيه لافتة للنظر حيث يركّز الموضوع على الطعوم بوصفها خصائص كيمياوية للنباتات في حد ذاتها أكثر مما يهتم بها على أنها انطباعات إحساس بشري. أما ما يحمل على رؤية المرء لها على أنّها من مؤلفات ابن رشد، فهو أيضاً ان الفصل الرابع الذي يحويها يأتي مباشرة بعد الفصل الثالث الذي يطرحه فلاقويرا نفسه على أنه مُقْتَبَسٌ مأخوذ من ابن رشد.

وسأقدم هنا ترجمة انجليزية لمناقشة الطعوم الواردة في هذا الفصل بناء على النصّ المحفوظ في مخطوط بارما. أما عن الملاحظات فسأعقد مقارنة لما ورد فيه من نظريات وتعاليم مع شبيهاتها الموجودة في كتاب ابن سينا «القانون» الجزء الثاني، الرسالة الأولى، الفصل الثالث[١٨]، إلى جانب ما يوجد منها في كتب ابن رشد الطبية التي سبق ذكرها.

= مساتشوستس، ١٩٥٣، ص٢٩١- ص ٢٩٣ غير أن هذه معالجات شديدة الإيجاز وغير منتظمة. وحول تصنيف يوناني للطعوم انظر أيضاً كتاب ثيوفْراسْطُسْ Theophrastus «حول مبادئ النباتات»، الكتاب السادس، الفصل الأول.

(١٨) سأُشيرُ إلى النصّ المنشور في كتاب ابن سينا «القانون في الطب» المجلد الأول بولاق ١٢٩٤هـ (١٨٧٧- ١٨٧٨م).

مخطوط بارما، المكتبة البلاتينية، parmense 3156.

لا بد من أن نتحدّث عما يدل على طبيعة النباتات، فنقول إن الأشياء التي تدلّ على طبيعة النباتات هي: الطعْم والرّائحة واللون. ونبدأ بالطعْم فنقول إنه لما كانت جميع الأجسام مكونةً من العناصر الأربعة، وأن نِسَب العناصر ليست ذاتها في تركيب الأجسام، فإن خصائص عديدة تنتج عن اختلاف هذه النسب. كما أن للطعوم خصائص متنوعةً عديدة بسبب اختلاف هذه النِّسب. وبسبب تعدّد الطعوم، نحتاج إلى أداة للتّمييز بين ما هو جيّد وما هو ليس كذلك، وهذه الأداة هي اللّسان. ونظراً لشدّة حساسيّة اللّسان، فقد وُجدت فيه أعصاب كثيرة.

ويتألّف أصل كلّ طعم من عنصرين: ١- عنصرٌ مائي رَطْب، ٢- وعنصر ترابّي جاف. وفي وسع المرء مشاهدة ذلك في الثّمار في بداية تولُّدها، فالثمار تكون رَطْبة مائية، كالبطّيخ والخِيار وما شاكلهما، ومع مرور الوقت وتلقّي الثمار الرطوبةَ من الماء، والمادة من التراب، والرقة من الهواء، تتوسّع الثّمار وتَنْمو وتتناقص ترابيتُهَا وتتصلّب رطوبتها، وتكتسبَ مذاقات عديدة وِفْق طبيعة النبات الذي تنتج عنه، وحَسَبَ نِسبْة برودتها وحَرارتها، ونوعيّة رطوبتها الماديّة التي قد تكون كثيفة أو رقيقة أو متوسّطة. وبسبب ذلك فإن الثّمار تنتقل من أنواع مختلفة للطعوم إلى أنواع أخرى: إذ ينتقل بعضها من الحَرافَة إلى

الحلاوة، بينما تمرّ أخرى عبْر مذاق ثالث، كالعنب الذّي ينتقل من الحرافة إلى الحلاوة مروراً بالحُموضة[١٩].

والطَّعم هو الذي يؤثّر في حاسة الذوق، وقد يكون ذلك التأثير لذيذاً أو منفّراً. وكلّ ما يتذوقه اللسان يُحْدِثُ تأثيره في حاسّة الذوق أو لا يُحدث، وما لا يُحدث تأثيراً في حاسة الذّوق فعديمُ الطعْم أو تَفِهٌ.

أما التَّفِهُ أو عديم الطعم، فيقسم إلى صنْفين: ١- جسم بسيط كالماء والعناصر الأخرى لأنه لا طَعْمَ له، ٢- جسم مركّب وينقسم إلى ثلاثة أنواع: ١- ما هو ذو جوهر مائي كالقصب الرطْب ٢- وما هو ذو جوهر ترابي وهو جاف مثل التّوت، وما يطلق عليه النشا بالعربية وما يشابههما، ٣- ما هو ذو جوهر لَزج وهو رطب كالزيت والزلال والدهْن الحيواني.

وأما ما يُحدث تأثيراً في حاسة الذّوق، فيقسم إلى نوعين: ١- اللاذ ٢- المُؤْذي. واللاذ يتناسب مع ما هو سارّ لنا ويشبه المزاج في جسم الإنسان [F. 135r]. ومزاج الجسم البشريّ بارد ورطب بقدر متوسط. وبسبب ذلك فإن السارّ يولّد في اللسان شعوراً بالسّرور كالذي يحدثه الماء الدافئ في يوم بارد، عند

---

[١٩] من أجل ترجمة تختلف قليلاً للنبذة أعلاه انظر زونتا «علم المعادن» ص٢٩٦- ص٢٩٧ .

سكبه على شيء لديه هذا المزاج. وإذا ما غلب عليه جوهر الماء فإنّ السارّ يجعل اللّسان أمْلساً ويشيع فيه متعةً واضحة، ويدعى ذلك «حلواً»، أما إذا غلب عليه جوهر الهواء، فإنه يُحدث الأثر ذاته لكن دون متْعة واضحة، ويمسى ذلك «دسماً»، ولذا، فإن كل طعام إما حلو أو دسم[٢٠] أو كلاهما معاً. وكل طعام مخلوط بمذاق واحد فقط لا يشبه الطعام بل هو عقار؟

وتدل الحلاوة على مرحلة وسط بين الحرارة والرطوبة، ولذا فإنها ملائمة لتغذية الجسم البشري أكثر من الطعوم الأخرى[٢١]. ولذلك قال جالينوس Galen: من المستحيل ألاّ يحتوي كل مغذّ بذاته على مقدار من الحلاوة قَلّ أو كثُر[٢٢] حسب قُربْه أو بُعْده عن التغذّي. ولا يعني ذلك أن ما هو أحلى يكون أكثر تغذية، رغم أنه يستحيل حسب رأي الاطباء خلوٌّ أي طعام من

---

[٢٠] يضيف المخطوط هنا كلمة «مُنّ».

[٢١] انظر ابن رشد، الكليات، ٣٨٩، ١٤-١٥، فورنياس ألفاريز Forneas-Alvarez: «أما الحلو فهو يدلّ على مزاج معتدل الحرارة، وهو بالجملة مناسب للمزاج الإنساني كما يقول جالينوس».

[٢٢] يشير ذلك إلى عبارة في كتاب جالينوس عن «الأدوية المفردة» الجزء الرابع. انظر زونتا «علم المعادن» ص ٢٩٧ ملاحظة ١٠٧ .

الحلاوة، لأن التغذية تحتاج إلى أشياء أخرى غير الحلاوة[٢٣]. لذلك قال جالينوس إن التّغذية لا تقتصر على ما هو لاذ للحواسّ، بل تشمل أيضاً ما تتلقاه الحواسّ وتهضمه ويتحوّل إلى طبيعة ما هو مُغذًّى. أما ما هو ضار فهو ما يؤدّي إلى الأذى عن طريق قَضْمه، والقضمُ هو إذابة شيء بمفرده، وما يذيب شيئا ويُحْدِثُ تأثيره إما بتقسيم الكثير أو بتجميع الكثير، وما يذيب بتقسيم الكثير فهو حار، وما يذيب بتجميع الكثير فهو بارد.

ويقسم الحار إلى نوعين:١- ترابي ٢- ناريّ. ويقسم النّوع الترابي من الحارّ إلى صنْفين: يزيل أحدهما ويحرف كل ما يمسك به اللسان عن طريق تفتيت أجزائه ويسمى هذا «مالحاً»، والآخر أقوى ويفتّت أجزاءه بأسلوب أكثر قوة ويسمى «مُرًا». ويقوم النوع الناري من الحار بالقضم اعتماداً على حرارته فقط، ويسمى «حاراً». ويقسم البارد إلى نوعين: ١- ترابي ٢- مائي. وإذا ما وقع النوع التّرابي من البارد على اللّسان فإنه إما أن يثيره أو يجفّفه، أو يُحْدِث العكس أي يقسمه بقوة- ويسمى «شاّعر»، كالأثر الذي يُحدثه أكل التين الفجّ- ويَدعى ذلك

---

[٢٣] انظر ابن سينا في «القانون» طبعة بولاق ١:٢٣٠، ١- ٣ «ليس يجب أن يكون ما هو أحلى أغذى، ولا ما هو ألذّ أغذى، وإن كان لابدّ من أن يكون في كل غذاء عند الأطباء حلاوة ما، لأن الغذاء يحتاج إلى شرائط أخرى غير الحلاوة».

«بالحرّيف»، أو أثر أقل من ذلك ويسمى «المثير»[٢٤]. والفرق في الشدّة بين «الحريف الحاد» «والمثير» فرق جليّ. كما يعْني «المثير» ذلك النوع الذي يشمل كليهما. أما البارد المائي الذي يؤدّي إلى الفوران فيطلق عليه «الحامِض».

ويتضح الآن أن المذاقات ثمانية. والمذاقات وما هو عديم المذاق هي: عديم الطعْم أو التّفِه، والدسم، والمرّ، والحلو، والمالح، والحادّ، والمثير، والحامض، والحرّيف[٢٥].

وينجم التَّفِه عن خليط من مزاج معتدل وجوهر معتدل. أما المُرّ فيأتي من خلطْ المزاج الحارّ والجوهر الكثيف، وينتج الحادّ عن خلط بين مزاج حار وجوهر رقيق، وينبثق المثير عن خلط مزاج بارد مع جوهر رقيق ممتزجَيْنْ مع الترابية. والحرّيف نابع من خلط مزاج بارد وجوهر كثيف، ولذلك كله صلة

---

[٢٤] انظر ابن رشد «الكليات»، ٣١٢، ١٩ و٣١٣، ١ فورنياس - ألفاريز: « وأما الطعوم التي تدلّ من الأدوية على مزاج بارد، فهي العَفصة والقابضة والحامضة والتفهة».

[٢٥] انظر أيضاً ابن سينا «القانون» طبعة بولاق ٢٢٨، ٢٩- ٣٠:« الطعوم البسيطة كلها تسعة، وهي وإن كان لابدّ كلها ثمانية طعوم وواحد هو عدم الطعم وهو التّفهُ المسيخ الذي لا يكون له طعم ولا يدرك منه طعمٌ البَتة»؛ ابن رشد «الكليات»، ٣١١، ١٢- ١٤ فورنياس - ألفاريز حيث جاء: «أشهر أصناف الطعوم هو الحلو والدسم والمالح والمرّ والحرّيف والعِفصُ والقابض والحامض والتّفه» قارن كذلك ابن سينا «الأرجوزة» الأبيات ٥٠- ٥٣، حيث توجد قائمة بالطعوم الحلو والمرّ والحاد والحريف والحامض والمثير والذي لا طعم له، والتَّفه واللاذ .

بالمزاج المعتدل للإنسان[٢٦]. وبمعرفة هذا يعرف الإنسان طبيعة النباتات ومزاياها، ومن أجل ذلك سنواصل شرح هذا الموضوع.

والتّفِهُ جوهرٌ مائي، وله علاقة بنوع الحلو، ولكن بسبب امتزاج الرطوبة المائية به تتناقص حلاوته إلى حد بعيد[٢٧]. ولهذا فإن الثمّرة الموجودة في أعالى النَّبتة حلوة بينما الثمرة القريبة من الأرض تِفهة لغلبة الجَوْهر المائي عليها نتيجة لكثرة الرطوبة التي تصل اليها. وَيحْدث ذلك على سبيل المثال في القمح والبازلاء والشعير والفول، لأن هذه جميعاً تكاد تخلو من أيّ مذاق على الإطلاق في البداية، لكنها تصبح أكثر حلاوة عند طهوها وتجفيفها.

---

[٢٦] ابن سينا «القانون»، طبعة بولاق ١:٢٢٩، يقول «إن الجوهر الحامل للطعم إمّا أن يكون كثيفًا أرضيًا وإما أن يكون لطيفًا، وإما أن يكون معتدلاً، وقوته إما أن تكون حارة، وإما أن تكون باردة، وإما أن تكون متوسطة، والكثيف = = الأرضي إن كان حارًا فهو مُرّ، وإن كان باردًا فهو عفص، وإن كان معتدلاً فهو حلو، واللطيف إن كان حارًا فهو حريف، وإن كان باردًا فهو حامض، وإن كان معتدلاً فهو دسم، والمتوسط في الكثافة واللطف إن كان حارًا فهو مالح، وإن كان باردًا فهو قابض، وإن كان معتدلاً فقد قالوا إنه تفه». قارن كذلك شرح ابن رشد على أرجوزة ابن سينا، البيت ٥٣ حيث يقال إن الأطباء يعتقدون أن أسباب الطّعوم هي الغلظة واللّطافة وما توسَّطهما. وعندما تختلط الغلظة بالبرودة ينتج عنهما الحريف والمثير، وعندما يجري خلط الغِلْظة والحرارة ينتج عن ذلك المالح والمرّ، ولدَى مَزْج اللّطافة والبرودة ينجم عن ذلك التّفه.

[٢٧] انظر ابن رشد: «الكليات» ٣٩٠، ٧، تحقيق عابد الجابري- مركز دراسات الوحدة- بيروت: «التّفه مائي بارد».

أما الدّسم فلاذ وحلو أيضاً، وجوهره مائي وهوائي كالدّهن الحيواني وزيت الزيتون وثمار الزيتون وغيرها مما يُنْتَج منه الزيت. وتنتمي الدّسامة والحلاوة إلى ذات النوع من الحرارة والرطوبة، بيد أنّ الفرق بينهما يكمن في كون رطوبة الحلاوة لَزِجة كثيفة وقريبة من منزلة وَسط بين الكثافة والرقّة، وتُلائم رطوبةَ الجسم البشري، بينما رطوبة الدسامة لاذة رقيقة وشبيهة برطوبة الهواء[٢٨]. ولهذا السبّب فإن الدّسامة أكثر ملاءمة من أيّ مذاق آخر لتغذية الدّفْء الطبيعي. ويُبرهن على ذلك كون زيت الزيتون والجوهر أو المادّة الزيتيّة أكثر ملاءمة من أيّ شيء آخر لتزويد الإنسان بتغذية خارجية، لأن رطوبة زَيْت الزيتون وجوهرَه يلائمان رطوبة الهواء، والهواء أقرب إلى طبيعة النار من العناصر الأخرى، لأن كلاً من النّار والهواء حارّ.

أما جوهر الحلاوة فمتوسّط[٢٩]، وجميع الأشياء الحلوة حارّة لكنها تتفاوت في درجة حرارتها بحسب درجة حلاوتها؛ لأنّه كلّما ازدادت حلاوة الشيء ازدادت حرارتُه. إلا أن حلاوةَ الحلو لا تؤذي: فهي حرارة قريبة جداً من الأجسام الحارّة. ويعرّف الحلو بأنه ما يغذّي أو يقيث غير أنه حلو بمعنيين: أولا

---

[٢٨] انظر ابن رشد: «الكليات»، ٣٨٩، «وأما الدّسم فالغالب عليه الهوائية مع مائية ما، ولذلك صار دون الحلو في الحرارة». قارن أيضاً شرح ابن رشد لأرجوزة ابن سينا، البيت ٥٣ حيث يقال أن الدّسم حار ورَطْب لأنه مُؤَلّف من جَوْهرٍ هَوائي، والهواء حارّ ورطب.

[٢٩] يضيف المخطوط كلمة «قوة».

بسبب حرارته الطبيعية كالعسل؛ وثانياً بسبب حرارة خارجية كحرارة المواد المطبوخة [F 136r]. وتقسم الحلاوة إلى أصناف أربعة: ١- الحلاوة المَحْضة والمُطْلقة التّي تصبح فيها جميع القُوى متساوية، كما هو الحال في السكّر؛ ٢- الحلاوة الممزوجة باللّزوجة والكثافة، كما في التمر ٣- الحلاوة المشوبة بالتّفاهة أو فقدان المذاق؛ إذ ينتقل جوهر رطوبتها من الكثافة إلى الحالة الوسط، ومن الأقل إلى الأكثر؛ وتتناقص حرارتها كما تضعف حلاوتها، مثل الحال في الرمّان؛ ٤- الحلاوة التي تخالطها حدّة، إذ تتحول رطوبتها من الكثافة إلى الرقة، ومن جفاف أكثر إلى جفاف اقل. وحدة الحلاوة شبيهة بحلاوة العسل؛ لذلك فإن الحلاوة المحضة المجردة من الحدّة واللزوجة دليل على الحالة الوسط، وتشبه مزاج الإنسان.

والمالح وطعمه قريبان من المرّ، لأن كلاً من المالح والمرّ ترابيّان وحارّان، إلاّ أن الفرق بينهما واضح، لأن المرّ هو الطعم الذي يصبح أكثر رقة بسبب الحرارة الجافة، وهو ثقيل الجوهر، بينما تسود في جوهر المالح مادة جافّة ومحروقة مختلطة بالرطوبة، وتتفوّق على الحلو في حرارتها[٣٠]. والمالحُ شبيهٌ بشيء مُرّ كُسِرتْ بشدَّتَهُ رطوبةٌ باردةٌ. ولهذا السّبب يُصبح

---

[٣٠] انظر ابن رشد «الكلّيّات» و ٣٨٩، «وأما المالح فالغالب على مزاجه جوهر يابس محترق خالطته رطوبة ما، وهو فوق الحلو في الحرارة». قارن أيضاً شرح ابن رشد لأرجوزة ابن سينا، البيت ٥٠ حيث يرد أن هناك مادّة محروقة رَطْبة في المادة المالحة. وبعد المالح يأتي المرّ لأنه يحظى بقدر أقوى من الحرارة والجفاف.

المالحُ مُرّاً عند تسخينه في الشمس أو على النار، وانفصال الطبيعة المائية - التي تكسر شوكة الحرارة - عنه[٣١].

وللمرّ جوهر تُرابيّ لطيف: ولا يعني ذلك أنه لطيف بصورة مطلقة، بل إنه لطيف بسبب طبيعة التّراب كما في الغبار. واذا شَبَّهَ المرءُ المرّ بشيء ذي صلة بصنف الدّخان اللطيف المتولد عن اللهب فهو على صواب، لأن لذلك الدخان طعماً مرّا، أما الجسم الترابي الثقيل فهو مثل الحجارة والحديد، وأما الجسم الترابيّ الرقيق فمن أمثلته الدّخان والغبار.

وطبيعة المُرّ طبيعة يغلب عليها الجوهر الترابيّ الجاف، إما ببرودته [أو بحرارته][٣٢]، ويثْبت ذلك أن المُرّ النابع من البرودة يحلو بعد أن كان مُرّاً، مثل العديد من النباتات كاليَقْطين، بينما يعود المُرّ النابع من الترابيّة والحرارة إلى مرارته بعد أن كان حُلْواً. وتدل خاصيّة المُرّ هذه على خليط من مزاجين، الحار

---

(٣١) في هذه الجملة تكرار لقول ابن سينا في «القانون» طبعة بولاق ١:٢٢٩، «المالح كأنّه مرّ مكسور برطوبة باردة... وكذلك إذا سخن المالح بشمس أو نار أو بمفارقة المائية الكاسرة من قوة الحرارة».

(٣٢) أُدخلت هذه الجملة الغائبة في المخطوط، من خلال مقارنة مع المصدر العربي (ابن رشد :انظر الملاحظة ٣٣).

والجاف، أو البارد والجاف، كالأسود الذي ينتج عن خليط من الحرارة والبرودة[٣٣].

ونظراً لثقل المر، فإن المرّ المَحْض لا يسمح بوجود التراب العضوي الذي يتولّد فيه الحيوان، كما أن المالح المحض لا يقيتُ الحيوان[٣٤]. ولذلك تصبح البحار بعد إزالة ملوحتها مرة كالبحر الميت فلا يعيش فيها الحيوان بسبب مرارتها[٣٥].

---

[٣٣] توجد العبارة أعلاه أيضاً في ابن رشد «الكليات» ٣٨٩:« وأما المرّ فطبيعته طبيعة غلب عليها الجوهر اليابس الأرضي، وذلك إما مع برودة وإما مع حرارة، ويُستدل على الذي يكون للبرودة أنه يصير بعد المرارة إلى الحلاوة، وذلك إما بالطبيعة ككثير من النبات، مثل البلوط والقرع وغير ذلك، وأما الذي يكون عن الحرارة والأرضية فإنه يصير بعد الحلاوة إلى المرارة، وكون المرّ بهذه الصفة يدل على أنه يوجد تابعًا لهذين الصنفين من الأمزجة، أعني البارد اليابس أو الحار اليابس، كما أن اللون الأسود يوجد عن الحارّ والبارد». ومن الجدير بالملاحظة أنّ هذه الكلمات التي أعادها فلاقويرا تقدّم رأي ابن رشد الخاصّ حول المر، وهو الرأي الذي سبق العثور عليه (حسب الاقتباس الذاتي الذي نوقش آنفًا) في مؤلفه «كتاب النبات». قارن أيضاً شرح ابن رشد لأرجوزة ابن سينا، البَيْت ٥٠، القائل أن المرّ ناتج عن مادة محروقة ترابية، رغم أنّ هناك العديد من الكائنات ذات الطبيعة الباردة الجافة لكن طعمها مر: الثمار التي كانت حلوة في النهاية مرة في البداية.

[٣٤] توجد الجملة ذاتها في كتاب «القانون» لابن سينا طبعة بولاق، ٢٢٩، ٢٦- ٢٧، : « وأمّا المرّ فثقيل الجوهر يابسه، ولذلك لا يقبل الصرف منه عفونة يتولد منها فيه حيوان ولا يغذو الصرف منه حيوانًا».

[٣٥] انظر ابن رشد «الكليات» ٣٩٠ « والنوع من المرارة الذي يكون عن الحرارة هو أحرّ من المالح إذا كان المالح تخالطه رطوبة ما، ومن الدلائل على ذلك أن البحار إذا اشتدت ملوحتها تمرّرت، كما يقال ذلك في البحيرة المنتنة (البحر الميت)، ولذلك لا يعيش فيها حيوان لموضع المرارة».

وللحادّ جوهرٌ ناريٌّ رقيقٌ، ومعنى الحادّ هو أن اللّسان يصبح حاراً وملسوعاً عند ما يتذوّق الحادَّ. وقوته أشد حرارة من المذاقات الأخرى. وينتمي المالح والمرّ والحادّ إلى ذات الصنف من الحرارة والجفاف، لكن الفرق بينهما هو أن رطوبة الحادّ لطيفة ناريّه بينما تقع رطوبة المالح في موقع وسط بين اللطافة والغلظة وقريب من الترابية، بينما نجد أن رطوبة المرّ غليظة وترابية[٣٦].

والمثير مذاق حرّيف ضعيف؛ وكل من المثير والحرّيف مثير لكنهما يختلفان في درجة إثارتهما[٣٧].

والحريف أكثر برودةً. ثم يأتي المثير ويليه الحامض. ولهذا السبب فإن الثمار تتصف في البداية بحموضة شديدة تجعلها قارسة البرودة. وعندما تتطور فيها الهوائية والمائية بحيث تتعدَّل حُموضتُها قليلا بسببهما، وكذلك حرارة الشمس التي تقوم بطهوها، تميل الفاكهة أو الثمرة نحو المذاق الحامض

---

[٣٦] انظر ابن رشد «الكليات» ٣٩٠، «وأما الحريف فمزاج غلب عليه الحرّ واليبس مع اللطافة غلبة شديدة، ولذلك كان أشدها حرارة»، قارن كذلك شرح ابن رشد لارجوزة ابن سينا، البيت ٥٠، حيث يقول إن الحريف يدل على الحرارة واليبس، والحلو علامة على قدر أقلّ من الحرارة واليبس. ويأتي المالح بعد الحريف في الحرارة واليبس.

[٣٧] انظر ابن رشد «الكليات»، ٣٩٠، «والعِفص والقابض من نوع واحد، وإنما يختلفان بالأقل والأكثر، وهما يدلان من مزاج الشيء على اليُبس الشديد والبرد، والعفصُ في ذلك أكثر من القابض» قارن أيضاً ابن سينا «القانون» طبعة بولاق ٢٢٩، ٢٠- ٢١ [حيث يرد أن الحريف والعِفص والحامض تختلف في درجة إثارتها].

كالفواكــة الفجّــة، وتتّجــه في الوقــت ذاتــه نحــو المــذاق المــثير وتصبح شبه حرّيفة. وبعد ذلك تحوّل الحرارة التي تطهو الثمار إلى الحــلاوة. كمــا تســتطيع الثمــار أيضــاً الانتقــال مــن الطعــم الحريــف إلى الحلْــو دون المــرور عــبر الطعــم الحــامض كمــا هــو الحال في الزيتون[٣٨].

ويشــير الحــامض إلى بــرودة تخــتلط بقــدر مــن الرطوبــة، كما يلسع اللسان دون إحمائه. وينتمي الحريف والمثير والحامض إلى نفــس الصــنف في برودتهــا وجفافهــا، غــير أن الفــرق بينهمــا يتمثــل في أن رطوبــة الحريــف نــادرة وغليظــة وترابيــة إلى درجــة كبيرة، بينمــا رطوبــة المــثير أكثــر واقــرب إلى التوسّــط، ورطوبة الحامض أكثر وتتّصف باللطافة[٣٩].

والخلاصة أنني أعتقد أنه لا مندوحة عن القول أنــه يجــب النظــر لــيس إلى الفصــل الثالــث فقــط مــن الكتــاب الرابــع مــن مصــنَّف «آراء الفلاســفة» لفلاقــويرا (كمــا يفــترض دُروســارْث

---

[٣٨] توجد جميع النبذة حول الحريف في كتاب ابن سينا «القانون» طبعة بولاق. ٢٢٩، ١٤- ١٩.

[٣٩] انظــر ابــن رشــد «الكليــات»، ٣١٣، ليــدل الحــامض علــى بــرودة ممتزجــة بــبعض الرطوبة، ولا تخلو برودة مزيجة من بعض الحرارة. وبسبب ذلك فإنه يلسع بقدْر لطيف، ويأتي بعد الحريف والمثير في البرودة] قارن أيضاً شرح ابن رشد على أرجوزة ابن سينا، البيت ٥، حيث يقال أن الحريف والمثير ناتجان عن جوهر بارد غليظ ترابي، حيث يتولد الحامض من جوهر بارد ترابّي لطيف.

لـولُفْس)، بـل أيضـاً إلى الفصـل الرابـع (المترجـم بعضـه فيمـا ورد أعـلاه في هـذا البحـث) علـى أنهمـا يعكسـان محتويـات «كتـاب النبـات» المفقـود الـذي وضعه ابـن رشـد. وقـد حـدا بـي الاعتبـاران التاليان إلى هذا الاستنتاج:

أوَلاً وقبـل كـل شـيء، فإنّـه مـن المسـتغرب أن يكـون تصـنيف الطعـوم المعقّـد الـذي ورد في الـنص آنفـا قـد وضـعه فلاقويرا ذاته. إذ يدأب في موسوعته على اقتباس المصـادر العربيـة حرفياً بينما مداخلاته الشخصية جد محدودة (تتراوح بـين جملـة أو جملتين مندسّتَيْن هنا وهناك). زد على ذلك أنه يقدّم الفصـلين الثالث والرابع علـى أنهمـا مقتبسـان مـن ابـن رُشْـد. ويقـدّم هـذان الفصـلان معالجـة نظريـة كاملـة إلى حـدّ مـا لعلـم النبـات كمـا كـان معروفـا في العلـوم العربيـة أثنـاء العصـور الوسـطى، فهنـاك تصـنيف عـام لـبعض خصـائص النباتـات (الفصـل الثالـث). يتلـوه تحليل لملامحها «الكيمياوية» من مذاقات وروائح وألوان (الفصـل الرابع)؛ ونحن نعرف من ابن رشد نفسـه أن الطعوم ولا سـيما المـرّ كانت أحد مواضيع «كتاب النبات» الذي ألفّه. وأخيراً على المرء أن يلاحظ أن حديث فلاقويرا عن المرّ يتوافق بصورة دقيقة مع ما يقوله ابن رشد في «الكليات» عن معالجته هو للموضوع نفسـه في مؤلفه عن النبات[٤٠].

---

[٤٠] انظر أعلاه الملاحظة ٣٣.

ثانياً: لا بدّ من التركيز على أنه إذا كان «كتاب النبات» الذي وَضعه ابن رشد (كما يظهر من عنوانه خاصة) ينتمي إلى فئة الجوامع أو المختصرات الوافية لأعمال أرسطوطاليس، فإنه ربما يكون قد أُلفّ حوالي عام ١١٥٩م عندما كتب ابن رشد سلسلة شاملة من المختصرات الوافية لمؤلفات أرسطوطاليس عن العلوم الطبيعية (ما عدا المؤلفات الخاصة بعلم الحيوان)[٤١]. وبما أنه قد جرى تأليف «الكليات» بعد ذلك في عام ١١٦٢م فإنه ليس من التكلّف في شيء الاعتقاد بأن ابن رشد أعاد استعمال بعض أجزاء مؤلَّفه «كتاب النبات» من أجل كتابة أقسام من مؤلَّفه الطبّيّ المكرس لدراسة النباتات على أنها علوم بسيطة (الفصول ٢٧- ٣٠ من الكتاب الخامس). ومن شأن هذا أن يفسر توافُقَ العديد من عبارات النص والنُبَذِه التي اقتبسها فلاقويرا إلى حد معين مع العبارات والنُّبَذ ذات الصلة في كتاب «الكليات». وفي النهاية فإن التطابق الحَرْفي لبعض نُبَذ مختصرة من النصّ الذي اقتبسه فلاقويرا مع أجزاء من كتاب «القانون» لابن سينا، ربما يكون ناتجاً عن استخدام ابن رشد لهذا الأخير كمصدر في تأليف «كتاب النبات». ولن يكون ذلك غريباً؛ إذ يبدو أن ابن رشد اعتاد في

---

[٤١] من أجل تاريخ جوامع ابن رشد انظر: « Alonso » «اللاهوت» "Teologia" ٦٢-٦٨.

بعض مؤلفاته ولا سيما الطبية منها على الاستعانة بالمقتبسات الحرفية من المصادر العربية دون أية إشارة واضحة إليها. ففي «الكليات» على سبيل المثال، يعيد بصورة شبه حرفية بعض العبارات من مؤلفات أبي بكر الرازي والمجوسي[٤٢] في التشريح كما يفعل ذلك، وفي مقدمة الكتاب في تعاطيه مع غالبية كتاب الفارابي «رسالة في الطب»[٤٣].

وبالطبع فإن هذه المعطيات لا تكفي للتوصل إلى أي استنتاج قاطع حول كتاب النبات الذي وضعه ابن رشد؛ ولن تُحَلَّ المشكلةُ، اللهم إلا إذا اكتُشف النصُّ العربيُّ الأصليُّ أو المقتبساتُ الصريحةُ منه، بالعربية أو العبرية أو اللاتينية. وقد اقتصر هدفي على الاشارة إلى نُبْذة نظرية مهملة عن الطعوم تتلاءم جيّداً، بقدر ما نعلمه، مع خصائص الكتاب ومحتوياته، فتجعل منه شاهداً هاماً على علم النبات «العلمي» العربي في العصر الوسيط.

---

[٤٢] انظر ف.خ.رد ريغز موليرو: F.X. Rodriguez Molero «الأصالة والأسلوب في كتاب التشريح لابن رشد». مجلة الأندلس عدد ٣٥، ١٩٥٠، ص٤- ص٦٣.

[٤٣] انظر: هـ. غاتجي H.Gatje: مقدمة لـ «كليات» ابن رشد، مجلة الجمعية الشرقية الالمانية، العدد ١٣٦، ١٩٨٦ ص ٤٠٢- ص ٤٢٧.

قراءة المصطلح النباتي العربي وتحقيقه

إبراهيم بن مراد

١ . تمهيد:

لقد مرّ علم النبات حتى أصْبَح في التراث العلمي العربيّ علمًا مستقلاّ بذاته بأربع مراحل[1]:

(أ) المرحلة اللغوية، أي مرحلة الاهتمام اللغوي بالنبات، وقد امتدت على القرنيْن الثاني الهجري/الثامن الميلادي والثالث الهجري/ التاسع الميلادي. فقد كان القرن الثاني فترة جمع مفردات اللغة وتدوينها. وكان علماء اللغة يشدّون الرحال إلى الأعراب في بواديهم- وخاصة بوادي نجد والحجاز- فيأخذون عنهم فصيح اللغة، وكان من الفصيح المجمَّع ألْفاظ المواليد وخاصة أسْماء النبات وصفاته، وقد ألفوا في أسماء النبات وصفاته رسائل مفردة وكتبًا قصارًا؛ وأمّا القرن الثالث فقد كان فترة الاستفادة ممّا جمّع السّابقون دون انقطاع عن الرحلة

---

[1] ينظر حديثنا المفصّل عن هذه المراحل الأربع في : إبراهيم بن مراد : بحوث في تاريخ الطبّ والصيدلة عند العرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩١، ص ص ٢٥٥ - ٣٠٣.

إلى البوادي وملاقاة الأعراب الفصحاء فيها والأخذ عنهم. وقد ألّف علماء هذه الفترة الرسائل المفردة والكتب المطوّلة في أسماء النبات وصفاته، وكان أهم كتاب توّج هذه المرحلة اللغويّة هو «كتاب النبات» لأبي حنيفة الدينوري (ت. ٢٨٢ هـ/٨٩٥م)[٢]، وهو موسوعة كبيرة في ستة أجزاءٍ، الأربعة الأولى منها في موضوع النبات العامّ، والجزآن الخامسُ والسّادسُ في أسماءِ النبات وصفاته مرتبة على حروف المعجم. والكتاب كله إذن معجم، قد رتّبت مادّة أجزائه الأربعة الأولى بحسب المواضيع، ورتبت مادّة جزئيه الأخيرين على حروف الهجاء، لكن انتماء «كتاب النبات» إلى «المدرسة النباتية اللغوية» لا ينفي عنه قيمته الكبرى في التعريف الدقيق بنبيت أرض العرب وبكثير من صفاته وخصائصه وأجناسه واستعمالاته.

(ب) والمرحلة الثانية هي مرْحلة الترجمة . وقد عاصرت في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي المرحلة الأولى اللغوية.

---

[٢] ينظر حول منزلة كتاب النبات لأبي حنيفة في المباحث اللغوية النباتية العربيّة: إبراهيم بن مراد: بحوث في تاريخ الطبّ والصيدلة عند العرب، ص ص ٢٥٨- ٢٦٤؛ نفسه: المعجم العلمي العربيّ المختصّ حتى منتصف القرن الحادي عشر الهجري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣، ص ص ٢٦ - ٣٢؛ نفسه: «كتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري معجمًا مُختصًا»، - بحث مخطوط قدّم في «الاحتفال بأبي حنيفة الدينوري» ضمن أعمال أسبوع العلم التاسع والثلاثين، المجلس الأعلى للعلوم، دمشق، ٦ - ١١ نوفمبر ١٩٩٩ (ص٤٣).

ولم يترجم العَرَبُ في الحقيقة كتبا نباتية كثيرة لأن علم النبات ذاته لم يكن عند الأمم السّابقة بالعلم المستقل ذي المبادئ والقوانين والأسس النظريّة التي يستقلّ بها. وكان من أجَلّ الكتب التي ترجموها كتابٌ ليْس في النبات الخالص بل هو في النبات الطبيّ، هو كتاب «المقالات الخمس» لديوسقريديس العين زربي. وقد لقي هذا الكتاب بين العرب حظوة كبيرة وكان له في مباحثهم النباتية أثر عميق. وتتجلّى الحظوة التي كانت له في ترجمته ومراجعته وشرحه[٣]. فقد ترجم ثلاث مرات إلى العربية كانت أولاها، وقد أنجزها اصطفن ابن بسيل وحنين بن إسحاق في بغداد أيّام جَعْفر المتوكّل (٢٣٢هـ/٨٤٧م ـ٢٤٧ هـ / ٨٦١م)، وروجعت «المقالات» في ترجمتها البغدادية مرتيْن: إحداهما في بلاد الأندلس، والأخرى في بلاد فارس؛ وقد وضعت لها أربعة شروح على الأقل أنجزت كلّها في بلاد المغرب والأندلس بين القرن الرابع والقرن السّابع الهجريين (القرن العاشر والقرن الثالث عشر الميلادييْن). ومن أهم شرّاحها أبو العبّاس النباتي المعروف بابن الرومية (ت ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م) وتلميذه أبو محمد عبد الله ابن البيطار (ت٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م). وأما الأثر العميق

---

[٣] ينظر حول ترجمة المقالات الخمس ومراجعتها وشروحها: إبراهيم بن مراد: دراسات في المعجم العربيّ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٧، ص ص ٢٢٧ - ٢٧٠؛ نفسه: مقدمة تحقيق «تفسير كتاب دياسقوريدوس» لأبي محمد عبد الله ابن أحمد ابن البيطار، بيت الحكمة، تونس، ودار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٠، ص ص ٤٠ - ٥٥.

الذي كان للمقالات الخمس في مباحث العرب النباتية فيتَبَيَّن جليّا في المرحلة الثالثة من مراحل علم النبات عند العرب.

(ج) المرحلة الثالثة هي مرحلة الاهتمام الطبي بالنبات. والاهتمام الطبي بالنبات قديم لأن النبات أهم المواليد الثلاثة في صناعة الأدوية. وأجَلّ كتب الأقدمين في الأدوية المفردة هو كتاب «المقالات الخمس» لديوسقريديس، ثم كتاب «الأدوية المفردة» لجالينوس الذي نقل إلى العربية في الفترة ذاتها التي نقل فيها «المقالات الخمس». وقد اشتمل كتابُ ديوسقريديس حسب نصّه اليوناني[٤] على ٨٢٧ مادّة جلّها في الأدوية المفردة وبعضها في الصموغ والأدهان والأشربة والمعاجين وأعضاء الحيوان، وكان نصيب النبات من مواد الكتاب حوالي الثلثين لأن فيه حواليْ ٥٠٠ مادة نباتية. وقد كان للكتاب إثر ترْجمته في القرن الثالث الأثرُ السّريعُ في التأليف العربي في الأدوية المفردة، فحذا المؤلّفون العربُ حذوه في التأليف وتتبّعوا أدويته النباتية بالتّحقيق. فسعوْا إلى ضبْط قراءتها وتحديد ماهياتها والبحث عن مقابلاتها العربية واعتمادها في مؤلّفاتهم؛ فقد كان ديوسقريديس كما يقول ابن البيطار «الأستاذ الأفضل»[٥]. وقد استوْعب ابن البيطار

(٤) De Materia Medica. Libri Quinque de Pedanii Anazarbei DIOSCURIDIS. Ed. Max Wellmann, Berolini. 190-1914 (3 Vols).

(٥) أبو محمد عبد الله بن أحمد ابن البيطار: الإبانة والإعلام بما في المنهاج من الخلل والأوهام، مخطوطة الحرم المكي الشريف، رقم ٣٦ (١) طبّ، ٢ و.

في كتابه «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» مادة كتاب ديوسقريديس كلّها تقريبًا.

(د) والمرْحلة الرّابعة هي مرحلة الملاحظة العلمية المحْض. وهذه المرحلة كانت في الحقيقة قصيرة لأنها لم تخرج حسب علمنا عن النصف الثاني من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي والنصف الأوّل من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي. وقد كان أهمُّ ممثل لها أبا العباس النباتي ابن الرومية الذي ألف في النبات الخالص كتاب «الرحلة المشرقيّة». وقد ضاع هذا الكتابُ وبقيت لنا منْه نقول تفُوق المائة في كتاب تلميذه ابن البيطار «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية». وقد مكنتنا المادّة المتبقية منه من تبيّن جملة من مظاهر الجدّة والطرافة، أهمُّها أرْبعة، هي:

(١) طريقة التناوُل بالدرس إذ كان أبو العباس أوّل من اعتنى اعتناءً حقيقيّا بوصْف النّبات وصفًا علميّا وبتحليته الدقيقة وليس له من غاية غير الإخبار عن النبات من حيث هو نبات محْض؛

(٢) تحليته لأول مرّة نباتاتٍ قديمة كانَتْ معروفة من قبْل بأسمائها فقط أو كانت مثارَ اشتباهٍ؛

(٣) إضَافته أصنافا جديدة لنباتاتٍ قديمة معروفة؛

(٤) إضافته نباتاتٍ جديدة كانت من محض اكتشافه[٦]

ويلاحظ من المراحل الأرْبع التي ذكرناها أن العَربَ قد اهتمّوا بعلم النبات اهتمامًا كبيرًا، وقد ألّفُوا فيه المؤلفات الكثيرة. وكانت مؤلّفاتهم إمّا نباتيّة لغويّة وإمًّا نباتية طبيّة وإمّا نباتية خالصة. لكن أهمّ مؤلّفاتهم فيه- من حيث الكثرة والتنوّع - كانت المؤلفات الطبيّة، أي الكتب المعروفة بمعاجم الأدوية المفردة. وقد كانت مصادرُ مؤلفي هذه الكتب إمّا أعْجمية خالصة وإمّا عربية إسلاميّة. لكن الأثر الغالب كان للمصادر الأعجمية لأن المصادر العربيّة الإسلامية نفسها كانت قائمة في مَنْهَج تأليفها وفي المادة العلمية التي اشتملت عليها على المصادر الأعجميّة، وخاصّة على كتابي ديوسقريديس وجالينوس في الأدوية المفردة. وقد نوّه العلماء العرب بهذيْن العالميْن اليونانيين تنويها خاصًّا، فقال فيهما ابن الجزار القيرواني (ت ٣٦٩هـ/٩٧٩- ٩٨٠م):« إن هذين الرّجُليْن لا نهاية وراءهما ولا غاية بعدهما فيما عانياه من هذا الفنّ »[٧]، وقال فيهما ابن البيطار:« إنهما مدَدُ هذا العلم لكلّ من انتحله وقدوة

---

[٦] ينظر حول إضافات أبي العباس النباتي: إبراهيم بن مراد: بحوث في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، ص ص ٢٨٩- ٢٩٦ .

[٧] أبو جعفر أحمد ابن الجزار: كتاب الاعتماد في الأدوية المفردة، مخطوطة آيا صوفيا (بتركيا)، رقم ٣٥٦٤، ٢ ظ. وينظر كتابنا بحوث، ص ٧٨.

لمن علمه وحجّة على من جهلَه»[8] وإذن فإن المصطلح النباتي في التراث العلميّ العربيّ الإسلامي كان- بسبب المصادر التي ينتمي إليها- إمّا أعجميًا خالصًا وإمّا عربيًا. لكن العربيّ الخالص يكاد ينحصر في ما أُخِذَ عن أبي حنيفة الدينوري من «كتاب النبات» الذي كان أهمّ مصْدر في مادّته لمؤلفي المعاجم اللغوية العامّة أيضًا. وأمّا الأعجمي فقد كان نوْعيْن:

الأول أعجمي خالصٌ قد أدْخل النصوصَ العربية مقترضًا، إمّا لأنه منعدم المقابل في العربيّة- فهو إذن يَسُدّ خانَاتٍ مُعْجمية مصطلحيّة فارغة في المعجم العربي- وإمّا لأنّ المقابل العربيّ الموجود له في اللغة كان مجْهُولا.

والثاني نوعٌ أعْجمي له مقابلات عربية معروفة. لكنّ قوة مَرْجِعيّتِهِ قد قدّمَتْهُ على مقابله العربيّ فعوملت المصطلحات الأعجمية لذلك معاملةَ المصطلحات الرئيسيّة وعدّت المصطلحات العربية المقابلةُ لها ثانويَّة، فكان المصطلح العربي الخالصُ لذلك في كثير من الأحيان مصطلحًا تابعًا لا يتحدّد مفهومُه إلاّ من خلال علاقته بالمصطلح الأعْجمي وخاصّة المصطلح اليُونانيّ.

والخاصيتان اللتان ذكرْنا- أي مرْجعية المصطلح النباتيّ الأعجمي وتبعيَّة المصطلح العربي الخالص له مفهوميًا- قد ولدتا في النّصوص الطبيّة العربيّة مشاكل كثيرة في قراءة المصطلح

---

[8] ابن البيطار: الإبانة، ٢و؛ وينظر كتابنا بحوث، ص ٥٠٢.

النباتي وفي تحقيقه. وهذه المشاكل هي التي نريد أن نعْنى بها في هذا البحث.

٢ . في قراءة المصطلح النباتي :

لقد شغلت مسألة قراءة المصطلح النباتي علماءنا القدامى شَغْلاً كبيرًا. ولنَا على ذلك شواهدُ، نخص منها بالذكر ثلاثة :

الأول: مستمدّ من المراجعة الأندلسيّة لترجمة المقالات الخمس البغداديّة. فلقد كان الخليفة الأمويّ بالأندلس عبد الرحمان الناصر قد أهْدِيَ حوالي سنة ٣٣٧هـ/ ٩٤٨م نسْخَةً جيّدة مزينة بالرسوم من كتاب ديوسقريديس في نصّه اليوناني، لكن الإفادة من هذا النّصّ كانت صعبة لأن معظم الأطبّاء المحيطين بالخليفة كانوا يَجْهَلُون اللغة اليونانية، فطلبَ الخليفة من مُرْسِلِ الهدية- وهو الملك البيزنطي أرمانيوس الأول (Romanos) - أن يُرْسِل إلى قرطبة عالمًا يتقن اللسانيْن اللاتيني واليوناني ليُعين العلماء الأندلسيّين على حَلّ مشكلات الكتاب . وقد أرسل الملك البيزنطيّ عالمًا يُدْعى نقولا الراهب فانْضَمَّ إلى أطباء الخليفة الأمويّ وعمل معهم في «تفسير» مصطلحات الكتاب وخاصّة منها التي بقيت مجهُولة في الترجمة البغداديّة. وكان ممّا اهتم به المراجعون تصحيحُ النّطق بالمصطلحات اليونانية. وقد لخص ابن جلجل- حسب نقل ابن أبي أصيبعة عنهُ- النتائج التي انتهت إليْها الجماعة بقوله:« فصَحّ ببَحث

هؤلاء النّفر الباحثين عن أسماء عقاقير كتاب ديسقوريدس(...) ما أزال الشك عن القلوب وأوْجَب المعْرفة بها بالوقوف على أشخاصها وتصْحيح النطق بأسمائها بلا تصحيف، إلا القليل منها الذي لا بال به ولا خطر له، وذلك يكون في مثل عشرة أدوية»[9]. فقد كان تجنّبُ التصحيف في قراءة المصطلحات الأصول في ترجمة المقالات العربيّة غاية أساسية من غايات المراجعين الأندلسيّين.

والشاهد الثاني: مُسْتمدّ من تجربة ابن البيطار في التدريس. فقد كان لابن البيطار في مدينة دمشق تلاميذ، وكان يصطحبهم إلى ظاهر المدينة للتعشيب وينظر معهم في كتب الأدوية المفردة وخاصة في كتابيْ ديوسقريديس وجالينوس. وقد وصف لنا ابن أبي أصيْبعة- وقد كان أحد تلاميذه الآخذين عنه- تناوله لمادّة كتاب«المقالات الخمس» المصطلحية بقوله :« فكان يذكر أوَّلاً مَا قاله ديسقوريدس في كتابه باللفظ اليوناني على مَا قد صحّحه في بلاد الروم»[10]. فقد كان ابن البيطار إذن يذكر لتلاميذه مصطلحات ديوسقريديس اليونانية بحسب نطقها الصحيح. وقد كانتْ معْرفة النطق الصحيح بتلك المصطلحات فيما يبدو من غاياته

---

[9] أبو العباس أحمد بن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء، تحقيق أوغست ملر (August Muller) القاهرة، ١٢٩٩هـ/١٨٨٢م، (جزآن)، ٤٨/٢.

[10] نفسه، ١٣٣/٢.

أثناء رحلته العلميّة المطوّلة التي زارَ خلالها بلاد اليونان وآسيا الصغرى.

والشاهد الثالث لا يتعلّقُ بالمقالات الخمس أو بالمصطلحات اليونانيّة في حدّ ذاتها، بل هو مُتعلّق برسم المصطلح النباتي عامّة، وهو لابن البيطار أيضًا، قد ورد في مقدمة كتابه "الجامع". فقد نبّه في آخرِ المقدمة إلى دقة ضبطه للأدوية النباتية ليسْلَم قارئه من التصْحيف ويخلص نصّه من التحريف. فقال: "وقيّدْتُ مَا يجب تقييدُهُ منها بالضبط وبالشكل والنّقط تقييدًا يُؤمَنُ معه من التّصْحيف ويسْلم قارئه من التبديل والتحريف، إذْ كان أكثر الوَهم والغَلَط الداخل على النّاظرين في الصحُف إنما هو من تصحيفهم لما يقرَؤونه أو سَهْو الورّاقين فيما يكتبونه"[11].

على أن هذه الرّغبة في الضبط والتدقيق التي نجدها في الشواهد التي ذكرنا لم تكن سَهْلَة التحقيق. فإن المؤلفات العربية في الأدوية المفردة مليئة بالمصطلحات النباتيّة المحرفة. ويمكن تصنيف هذه المصطلحات إلى ثلاثة أصنافٍ:

(أ) صنف مصحّفٌ تصحيفًا بسيطًا يسْهُل إرْجَاعهُ إلى أصله. ويشتمل هذا الصنف على ما أبْدل فيه حرْف بحرْف آخر أو أنقص منه حرف أو زيد إليه حرْف ليس من أصله. ومن أمثلتِه

---

[11] ابن البيطار: الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ط. بولاق، ١٢٩١هـ/١٨٧٤م (٤أجزاء)، ٣/١.

المصطلحات التالية: (١) أطراطيقوس: وقد ورد عند ابن سينا[١٢]، والشيخ داود الأنطاكي[١٣]، ورسمه البيروني في الصيدنة «اسْطيا طيقوس»[١٤] وصوابهُ« اسطرا طيقوس "لأنه مصطلح يُونانيّ أصله" (Asterattikos)[١٥]؛ (٢) باطاننخي: وقد ورد عند ابن البيطار[١٦] في باب الباء. وصوابه "قاطاننخي" بالقاف في أوله، لأنه يونانيّ أصله" (Katanankhe)[١٧]؛ (٣) دُخْر: بالخاء، وقد ورد عند الشيخ داود وعرفه بـ"اللوبيا"[١٨]. والصواب"دُجْر"

---

[١٢] أبو علي الحسن ابن سينا: كتاب القانون في الطب، ط. بولاق، ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م (٣ أجزاء)، ٢٦٢/١ .

[١٣] ينظر: داود الأنطاكي: تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب، ط. المكتبة العلاميّة، القاهرة، ١٣٤٩هـ/١٩٣٠م (جزآن، وذيّل لأحد تلاميذ المؤلف)، ٤٥/١.

[١٤] أبو الريحان البيروني: كتاب الصيدنة في الطب، تحقيق محمد سعيد ورنا إحسان إلهي، كراتشي، ١٩٧٣، ص٤٠.

[١٥] ينظر إبراهيم بن مراد: المصطلح الأعجمي في كتب الطب والصيدلة العربية، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٥(جزآن)، ٧٢/٢ (ف ١٥٧).

[١٦] ابن البيطار: الجامع، ٨٣/١ في ط. بولاق (- ب) وقد رسم المصطلح فيها «باطانيخي» بياء بين النون والخاء. أما الترجمة الفرنسية (=ت) :=
Le Traité des Simples par Ibn El-Beiṭār, trad. de Lucien Leclerc, in: Notices et Extraits des Manuscrits de La Bibliothèque Nationale et Autres Bibliothèques, Tomes 23, 25 et 26, Paris,1877-1883, (3Vols), 1/199 (n233). ففيها ما أثبتنا.

[١٧] ينظر كتابنا المصطلح الأعجمي، ١٧٩/٢ (ف٤٢٤) .

[١٨] داود الأنطاكي: التذكرة، ١٣٧/١.

بالجيم[١٩]؛ (٤) رِعْي الإبل: بالبَاء.وقد ورد عند ابن سينا وعلّل التسمية بـ«أن الإبل إنما لا يضرّها سمّ الحيّات والهوَامّ لما يحصل لها من هذا الرعْي من الترياقيّة»[٢٠]، وقد تابعه الشيخ داود في رسم المصطلح وفي تعليل التسمية أيْضًا[٢١]. وصوَابُ رسمه "رعي الأيّل" بالياء المشدّدة، وقد ورد عند ابن البيطار برسمه الصحيح في كتابيْه الجامع[٢٢]والتفسير[٢٣]، وهو المقابل العربي للمصطلح اليوناني (Elephobaskon)، وهو مركب من Elephos ومعناه الأيّل وBaskon ومعناه "رِعْيٌ".

(٥) طوفريوس: وقد ورد عند ابن سينا[٢٤] وعند ابن البيطار في ط. بولاق[٢٥]، وصوابه "طوقريوس" بالقافِ لأنه يُونَانيّ أصله (Teukrios)[٢٦] .

---

[١٩] يتظر مثلاً أبو حنيفة الدينوري: كتاب النبات، (القاموس النباتي): القسم الأول (أ- ز)، تحقيق برنهارد لوين (Bernhard Lewin)، أبسالا، ١٩٥٣؛ القسم الثاني (س- ي)، جمّعه محمد حميد الله، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة ١٩٧٣، ١٧٥/١ (٣٩١).

[٢٠] ابن سينا: القانون، ٤٢٨/١، وينظر فيه أيضًا ٢٦٢/١ (مادة ألسفاني).

[٢١] الشيخ داود: التذكرة، ١٥٢/١.

[٢٢] ابن البيطار: الجامع، ١٤١/٢ب، و ١٧٦/٢ ت (ف ١٠٤٥)

[٢٣] ابن البيطار: تفسير كتاب دياسقوريدوس، ص٢٣٥ (٣- ٦٥)

[٢٤] ابن سينا: القانون، ٣٣٢/١

[٢٥] ابن البيطار: الجامع، ١٠٤/٣ب. أما (ت،٤١٨/٢، ف ١٤٧٨) ففيها «طوقريوس» بالقاف .

[٢٦] ينظر ابن مراد: المصطلح الأعجمي، ٥٣٨/٢ (ف ١٢٧٨) .

(٦) عاليون: وقد ورد عند ابن سينا[٢٧] في باب العيْن. وصوابه "غاليون" بالغيْن لأن أصله اليوناني "Galion"[٢٨] .

(٧)فقلامينوس: وقد ورد عند ابن البيطار[٢٩] في باب الفاء، وصوابه" ققلامينوس" بقافيْن في أوله لأنه يوناني أصله (Kuklaminos)[٣٠].

(٨) قمَرُ قريش : وهو ثمر الصنوبر الصّغير . وقد ورد بالرسم الذي ذكرْنا عند ابن سينا[٣١]، والمصطلح يكتب بثلاث طرق مشهورة هي"قَضْم قريْش" و"قمّ قريش" و"قمل قريش"، وقد وردت ثلاثتها في« تفسير» ابن البيطار[٣٢] .

(ب) صنف مصحف تصحيفاً شديداً لكن إرجاعهُ إلى أصله ممكن بمُعَالجته مُعالجة دقيقة . وهذا الصنف مشتمل على ما داخله إبْدال أو حذف أو زيادة في أكثر من حَرْفٍ .ومن أمثلته:

---

[٢٧] ابن سينا: القانون، ٤٠٣/١

[٢٨] المصطلح الأعجمي، ٥٥٥/٢ (ف ١٣١١)

[٢٩] ابن البيطار: الجامع، ١٦٥/٣ب، و ٤٠/٣ ت (ف ١٦٩٣). وقد أكد رسمه بقوله :« يقال بفتح الفاء وإسكان القاف التي بعدها لام ألف مفترحة ثم ميم مكسورة بعدها ياء ساكنة ثم نون مضمومة ثم واو ساكنة وبعدها سين».

[٣٠] ينظر المصطلح الأعجمي، ٥٨٠/٢ (ف ١٣٩٠)

[٣١] ابن البيطار: تفسير كتاب دياسقوريدوس، ص ١٢٧ (١- ٦٤)

[٣٢] ابن سينا: القانون، ٢٦٣/١

(١) اندَرُوصـارون: وقـد ورد عنـد ابـن سـينا وعنـد ابـن البيطـار في ط. بـولاق[٣٣]. وصـوابه " إيديصـارون" بيـاءٍ بدل النـون وبـراء وَاحِـدة، وهـو يونـاني أصـله[٣٤] (Hedisaron)؛ (٢) أغـالوجي: وقـد ورد عنـد ابـن سـينا[٣٥] وعنـد ابـن البيطـار في ط. بـولاق[٣٦]. وصوابُه " أغالوخن" بخـاءٍ ونـونٍ في آخـره عـوض الجيـم واليـاء لأنـه يوناني أصْله[٣٧] (Agalokhon)؛ (٣) جلز: بالجيم والـزاي، وقـد ورد عند داود الأنطاكي في باب الجيم[٣٨] وعرّفه بالجلبّان، وصـواب رسمـه "خُلّـر" بالخـاء المعجمـة الفوقيـة والـلاّم المشـدَّدَة والـرّاء المهملـة[٣٩]، وهـو ذو أصْـل فارسـيّ[٤٠]؛ (٤) جَـوْز رُومـي: بـالجيم والـزاي في أوّلـه، وقـد وَرَد بهـذا الرسـم المحـرّف عنـد ابـن سـينا[٤١] وأبـي الريحـان البيرونـي[٤٢] وعرّفـاهُ بـ"أكـيروس"، وهـذا مصـطلح يونـاني يكتـب عـادة في العربيـة "اغـيروس" بـالغيْن لأن أصـله

---

[٣٣] ابن البيطار: الجامع، ١/٦٢ب. أما الترجمة (١/١٥٠، ف١٦٣) ففيها "أندوصارون" براء واحدة.

[٣٤] ينظر المصطلح الأعجمي، ٢/١٤٠ (ف ٣٢٩)

[٣٥] ابن سينا: القانون، ١/٢٥٤

[٣٦] ابـن البيطـار: الجـامع، ١/٤٠ب. وقـد أصـلحه المترجـم (١/٩٧، ف ١١٠) فرسمـه «أغلوخن»

[٣٧] ينظر: المصطلح الأعجمي. ٢/٩٢ (ف ٢٠٥)

[٣٨] داود الأنطاكي: التذكرة، ١/٩٧، وقد أورده في باب الخاء أيضًا ورسمه «خلز» بالزاي المعجمة في آخره (١/١٢٩)

[٣٩] ينظر أبو حنيفة: كتاب النبات، ١/٩٧ (ف ٢٠٧)؛ ابن البيطار: الجامع ٢/٦٩ب.

[٤٠] ينظر: المصطلح الأعجمي، ٢/٣٥٦ (ف ٨٣٩)

[٤١] ابن سينا: القانون ١/٢٨٤

[٤٢] البيروني: الصيدنة، ص ١٤٥

(Aigeiros)، ويقابله في العربية "الحور الرومي" بالحاء والراء المهملتيْن في جزئه الأول[٤٣]، ولا صلة له بالجوْز البتّة.(٥) طرْغَافِيثا: وقد ورد عند ابن سينا[٤٤]؛ وصوابُه "طراغاقنثا" بالقافِ والنون بدل الفاءِ والياء، لأنه يوناني أصله (Tragakantha)[٤٥]؛ (٦) عالوسيس: وقد ذكره ابن سينا[٤٦] في باب العين. وصوابه «غالوبسيس» بغيْن بدل العيْن وباءٍ بيْن الواو والسين، فإن المصطلح يوناني أصله (Galiopsis)[٤٧]؛ (٧) فنجيون: كذا ورد في ط. بولاق من كتاب الجامع لابن البيطار[٤٨]، وقد أصلحه مترجِمُ الجامع فرسمه« فيخيون» وهو الرسم الصحيح، لأن أصْل المصطلح (Pekhion) باليونانية[٤٩]، لكن قراءة ط. بولاق أصلية لأن المصطلح قد ورد في باب الفاءِ بعدها نون. (٨) قوثيرا: كذا ورَدَ عند ابن البيطار في ط. بولاق[٥٠]، وقد حُرّف في

---

[٤٣] ينظر: دياسقوريدوس: المقالات الخمس، ترجمة اصطفن بن بسيل وحنين بن إسحاق، تحقيق قيصر دبلار (C. Dubler) وإلياس تراس (E.Teres)، تطوان-برشلونة، ١٩٥٧، ص٨٤ (١- ٨٩)؛ وابن البيطار: تفسير كتاب دياسقوريدوس، ص ١٣٣ (١- ٨٤)

[٤٤] ابن سينا: القانون، ٣٣١/١

[٤٥] تنظر تعاليقنا على تحقيق «تفسير كتاب دياسقورديدوس» لابن البيطار، ص٢١٧ (٣- ٢٠)

[٤٦] ابن سينا: القانون، ٤٠٣/١

[٤٧] ينظر: المصطلح الأعجمي، ٥٥٣/٢- ٥٥٤ (ف ١٣٠٨)

[٤٨] ابن البيطار: الجامع، ١٦٨/٣ ب و ٤٦/٣ ت (ف ١٧٠٧)

[٤٩] ينظر: المصطلح الأعجمي، ٥٩٧/٢ (ف ١٤٤٢)، و ٢٥٨/٢ (ف٥٩٩)

[٥٠] ابن البيطار: الجامع، ٤١/٤ب

تذكرة الشيخ داود[٥١] أيضًا فرسم "قوشيرا" بالشين والراء. وقد أصلحه مترجم كتاب الجامع فرسمه "قونيزا" بالنون والزاي[٥٢]، وهو اسم الطُّبَّاق بالعربيّة، ومَا أثبته لكلرك في ترجمته هو الصحيح، والمصطلحُ يوناني أصله (Konuza)[٥٣].

(ج)صنف مصحّف تصحيفًا مُطْلَقًا، قد أفسَدَهُ التحريف إفسادًا ظاهرًا حتى أصْبح إرجاعه إلى أصْله شاقا عَسيرًا لأنه محْوج إلى معرفة دقيقة بالمصطلح وبمفهُومه في لغته الأصليّة. ومن أمثلة هذا الصّنف: (١) أبو حلسا: وقد ذكره ابن سينا[٥٤]، وصوابه "أنخسا" لأنه يوناني أصله (Ankhusa)[٥٥]. وقد حرّف في ط. بولاق من كتاب الجامع لابن البيطار فرسم"انجشا" بالجيم بدل الخاء[٥٦]؛ (٢) إشْرَان:كذا ورد عند الشيخ داود[٥٧]، وقد عرّفه بقوله:"وبالمهملة [= اسران]، يوناني، هو اللاذنة، وعندنا يسمّى أذن القسيس". وأذن القسيس- أو آذان القسيس- اسم عامي مصري كان عَامّة مِصر يطلقونه مع مصطلح آخر هو " الإذنة" ـ وليس اللاّذنة كما رسمه داود ـ على النبات المسمّى

---

[٥١] داود الأنطاكي: التذكرة ٢٣٧/١

[٥٢] ابن البيطار: الجامع ١٢٤/٣ت (ف ١٨٥٩)

[٥٣] ينظر: المصطلح الأعجمي، ٦٤٦/٢ (ف ١٥٥٧)

[٥٤] ابن سينا القانون، ٢٦١/١

[٥٥] المصطلح الأعجمي، ١٣٨/٢ (ف ٣٢٥)

[٥٦] ابن البيطار: الجامع، ٦٦/١ ب

[٥٧] داود الأنطاكي: التذكرة، ٤٢/١

باليونانيّة" قوطوليدون" وقد وصف ابن البيطار هذا النبات فقال إن" ورقه يُشبه السّكرجات"[٥٨] أو "السكارج"[٥٩]، وقد حرفت "السكرجات" في نسخ كتاب الجامع فرسمت "شكرجان" بالشين في الأوّل والنون في الآخر، والسكرجات والسكارج ليسا اسماً لنباتٍ بل هما جمْعٌ لـ "سُكْرجَة" وهي إناء صغيرٌ يؤكل فيه الشيء القليل من الإدَام[٦٠].فما رسمه الشيخ داود"اشران" إذن- وقد نبه إلى أنه يرسم"اسران" بالسين أيضًا- ليْس إلا تحريفًا شديدًا لكلمة "سُكْرُجات"، جمع سُكْرُجة، وهو إناءٌ وليْس نباتًا. (٣) السفاني: وقد ذكره ابن سينا[٦١]، وصوابه "ألالسفاقن"، فهو يوناني أصله[٦٢] (Elelisphakon)؛ (٤) اللّيني: كذا ورد عند ابن البيطار وأكّد رسْمَهُ بقوله :« اللام والألف فيه أصليّتان"[٦٣]؛وصوابُهُ "اينَنْثي"، فهو

---

[٥٨] بداية الفقرة منقوصة في ط. بولاق من كتاب الجامع، ٤٠/٤. وقد وجد لكلرك المصطلح محرفًا فرسمه «شكرجان» وألحقه بعلامة استفهام(؟)، وقد أصلحناه في كتابنا المصطلح الأعجمي اعتمادًا على مخطوطة كتاب المقالات الخمس المحفوظة بباريس (ينظر: المصطلح الأعجمي، ٦٤١/٢- ٦٤٣،ف١٥٤٦، وخاصة التعليق على المادة).

[٥٩] كذا ورد عند ابن البيطار في تفسير كتاب دياسقوريدوس، ص٣٠٣ (٤- ٨٣).

[٦٠] ينظر تعليقنا على مادة «قوطوليدون» في تفسير ابن البيطار، ص ٣٠٣.

[٦١] ابن سينا: القانون، ٢٦٢/١

[٦٢] ينظر المصطلح الأعجمي، ١١٤/٢ (ف ٢٦٣)

[٦٣] ابن البيطار: الجامع، ٥٢/١ب. وقد أصلح لكلرك مترجم الجامع المصطلح فرسمه «اينَنثي» وهو الصواب، لكنه ليس الرسم الذي أراده ابن البيطار

يونـانيّ أصـله (Oinanthe)[٦٤]؛ (٥) سـطرونيون: وقـد ورد عنـد ابـن سينا[٦٥]، ويـدلّ وصـفه لـه المنقـول عـن ديوسـقريديس أنـه يتحـدث عـن النبـات الـذي يسـمّى باليونانيـة «سـطوريون» (Saturion) وهـو المسـمّى بالعربيـة "خُصَـى الثعلـب".(٦) عَرقـون: وقـد ذكـره ابـن سينا[٦٦] في بـاب العيْن. وصـوابه "غـارانيُون"، وهـو مصـطلح يونـاني أصـــله (Geranion)[٦٧]. (٧) نيطـــافيلي:كـــذا ورد في كتـــاب القـــانون[٦٨].وصـــوابُه "بنْطـــافلّن"، فهـــو يونـــاني أصـــله[٦٩] (Pentaphullon).

وهـذا الصـنف مـن التصـحيف لا يتبـيّنُ إلا بـالرجوع إلى النصوص الأصلية التي نقلت منها المصطلحات المحرّفة إذا كـان المؤلف قد اعتمد في إيرادها مصدرًا مّا، والمقارنـة بيْن تعريفاتهـا الأصلية وما ورد لها من تعريف في النصوص العربيـة. وقـد أمكـن لنـا تبـيّن أصـول المصـطلحات الأعجميـة اليونانيـة الـتي ذكرنـا بالبحث عنها في المقالات الخمس لديوسقريديس، فـإن التعـاريف المسندة إليهـا في نصوصـها موجـودة في المقـالات، إمّـا تامّـة وإمّـا مختصرة .

---

[٦٤] ينظر: المصطلح الأعجمي، ٢/١١٦- ١١٧ (ف ٢٧٠)

[٦٥] ابن سينا: القانون، ١/٣٨٢

[٦٦] نفسه، ١/٤٠٣

[٦٧] المصطلح الأعجمي، ٢/٥٥٠ (ف ١٢٩٩)

[٦٨] القانون، ١/٣٧٨

[٦٩] المصطلح الأعجمي، ٢/٢٣٦ (ف ٥٥٦)

وما يعنينا من أمر أخطاء التصحيف بعد هذا هو أن ما ذكرناه قد تعمدنا نسبة جلّه إلى عالميْن جليليْن وإلى كتابيْن كانا مصدريْن من مصادر العلم الذي نعنى به، والعالمان هما ابن سينا الذي سمّي الشيخ الرئيس لصدارته في العلم، وقد كان كتابه القانون مصدرًا رئيسيًّا لعلم الطبّ بأجزائه، ومنها علم الأدوية المفردة الذي اشتمل عليه الكتاب الثاني من تقسيم المؤلف لكتاب القانون؛ وأمّا العالم الثاني فهو ابن البيطار الذي اشتهر بمعرفة علم النبات حتى سمّى العشاب، ورأينا انشغاله بضبط أسماء النبات وتصحيح نطقها سواء مع تلاميذه وهو يدرّسهم أو في كتابه الجامع وهو يؤلفه . وقد كان الجامع أحظى منزلة بداية من النّصْف الثاني من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) عند المؤلفين في الأدوية المفردة من كتاب القانون لابن سينا. بل إن كتاب الجامع كاد يُوقِفُ حركة الاجتهاد لأن المؤلفين اللاحقين قد انصرفوا إليه هو فخصّوه بالتلخيص والشرح والاختصار، بل وبالسطو على مادته دون إشارة أو تنبيه؛ فقد كان مؤلفه يُعَدُّ الحجّة في العلم وكان ما يوجد في كتابه يُحمل في الغالب محمل اليقين.

والسؤال الذي نضعه بعد هذا: من المسؤول عن أخطاء التصحيف؟ هل هو المؤلف ذاته قد أوقعته معرفته الضعيفة بالمادّة المصطلحية في الوَهْم فأخطأ في إثبات المصطلحات؟ أم هم النسّاخ الذين يتناقلون كتبًا مشتملة على علم مُحْوج إلى معرفة

بمادته وموضوعه دقيقة فيُحرّفون ويصحّفُون لأنهم في الغالب لا يؤْتوْن تلك المعرفة ؟

لقد رأيْنا ابن البيطار من قبل يؤكد أن" أكثر الوَهْم والغلط الداخل على الناظرين في الصُحَف إنما هو من تصحيفهم لما يقرؤونه أو سَهْو الورّاقين فيما يكتبونه"[٧٠]. فالخطأ يحصل إذن إمّا من القارئ غير المتخصِّص وإمّا من الناسخ . وهذا المذهبُ نفسُه تقريبًا قد ذهبَه المستشرق الفرنسيّ لسيان لكلرك، مترجم ابن البيطار إلى الفرنسية. فقد رأيْناه في ترجمته حريصًا على إثبات الرسم الصحيح في كتابة المصطلحات المحرفة في متن كتاب الجامع حتى إذا كان الخطأ أصليًا فيه. بل إن لكلرك قد دافع عن ابن البيطار ضدّ بعض مترجميه وخَاصّة زونشايمر (Sontheimer) الألماني الذي نقل كتاب الجامع إلى الألمانية[٧١]. فقد انتقد لكلرك قراءاته في مواضع كثيرة ونبّه إلى الأخطاء التي أوقعه فيها التصحيف أو اتباع القراءات المصحّفة في الأصول المخطوطة التي اعتمد[٧٢]. وإذَنْ فإن لكلرك

---

[٧٠] يراجع التعليق (١١)

[٧١] صدرت ترجمته بألمانيا بين ١٨٤٠ و ١٨٤٢ (في Stuttgart).

[٧٢] نقوده له مبثوثة في تعاليقه التي يعقّب بها على موادّ الكتاب المترجمة. تنظر في ترجمة الجامع تعاليقه على موادّ حرف الألف مثلا :١/٦٢- ٦٣ (ف ٦٤)؛ ١/ ٦٥ (ف ٦٧)؛ ١/ ١١٩ (ف ١٢٨)؛١/١٦٣ (ف١٨٦)؛ ١/١٦٤ (ف١٩٠)؛ ١/١٧١ (ف ٢٠٤)؛ /١٧٧ (ف٢١٥) وقد ينقده مع مترجم ألماني آخر اسمه Dietz ترجم «الجامع» ترجمة جزئية إلى اللاتينية (ونشرت ترجمته بألمانيا سنة ١٨٣٣) ويشير إليهما معًا بعبارة: المترجمان الألمانيان Les traducteurs allemands تنظر في ترجمة الجامع تعاليق لكلرك على

لا يحمّل ابن البيطار مسؤولية الخطإ لأنه يجلّه عن الوقوع فيه. وهو يُفَضِّلُه على ابن سينا. فإن لابن سينا في نظره منهجًا، لكنْ ليْس له فكرٌ نقديّ، ولذلك تسرّبت أخطاء كثيرة إلى نص الكتاب الثاني من القانون[٧٣]. ولكن لكلرك يعترض مع ذلك على أن ينقل المترجمون أو الباحثون في الطبّ العربيّ المصطلحاتِ من نصّ ابن سينَا مُحرَّفة؛ فهو إذن يقدّم قراءة المصطلح الصحيحة- إرضاء للحقيقة العلمية- على القراءة المحرّفة التي يقع فيها المؤلف. وليْس هذا في الحقيقة موقف الباحث المحقق للنّصوص. بل هو موقف العالم الذي لا يعنيه من بحثه إلا الوقوف على الحقيقة العلميّة.

٣. في تحقيق المصطلح النباتيّ:

وللتحقيق فيما نقصد إليه مفهومان: الأوّل هو تحقيق المصطلح في النصّ الذي ينتمي إليه، أي باعتباره جُزْءًا من مدوّنة تُنْشَرُ محققة بحسب ما يقتضيه نشرُ النصُوصِ العلميّ من دِقة

موادّ حرف الألف :١/١١٧ (ف١٢٤)؛١/١٢٤ (ف١٣٣)؛ ١/١٢٥ (ف١٣٦)؛ ١/١٢٧ (ف ١٣٨)؛١/١٦٢ (ف ١٨١) ؛ ١/١٦٣ (ف١٨٤؛ ١/١٦٥ ف١٩١)؛ ١/١٦٨ (ف ١٩٧). وينظر للكلرك أيضًا:-

Lucien Leclerc: *Histoire de la médecine arabe*, Paris 1876, (2 vols), 2/234 - 235 ; Idem :" *De la traduction arabe de Dioscorides* ", in Journal Asiatique. VIe Serie, Tome IX. Janvier 1867 (pp.5-38), pp.27- 30.

Leclerc: *De la traduction arabe de Dioscorides*, pp. 22-25

المنهج في القراءة والتعليق. والمفهوم الثاني هو تحديد مفهوم المصطلح في مجاله، أي تحقيق مَا بيْن الاسم/ المصطلح والمسمّى/ النبات من العلاقة المفهوميّة، فيكون المصطلح مُنْطبقا إذا استعمل على ما يُصْطلح به عليْه حقّا. والمفهوم الأول شائع مشهورٌ لأنّه هو المتداول في عمل التحقيق. وأمّا المفهوم الثاني فغيْر مُتداوَل لأنه يكاد ينحصر في أعمال علماء النبات الذين يُحدِّدُون ماهيات النباتات بتصنيفها ونسبتها إلى طوائفها وفصائلها ورتبها وأجناسها وأنواعها . فالتحقيق بهذا المفهوم إذن هو تحديد الماهية (Identification) وسنرى أن الصنفيْن يثيران مشاكل عديدة في معالجة التراث النباتي العربيّ.

٣- ١ في تحقيق المصطلح النباتي المخطوط:

وهذا موضوعٌ قد طُرق من قبْلُ لكنه يبقى موضوعًا مهما لأنّ المشاكل التي يثيرها مازالت قائمة. وأهم المشاكل التي يثيرها مشكلة عدم الاختصاص في المصطلح التراثي. إن للمصطلح النباتي في التراث العربيّ الإسلامي خصوصيات راجعة إلى قضايا تصنيفه خاصّة، وأهم خصوصياته كونه مُرْجِعًا في الغالب إلى موجودات حسّية معيّنة، وانتماؤه إلى مستويين لغوييْن مغلّبيْن هما الأعجمي المقترض- وخاصة اليوناني- والمولّد،

وإرْجَاعُه إلى مصادر أصلية إمّا أعجمية وإمّا عربية إسلامية قد أخذت الكثير من المصادر الأعجمية[٧٤].

ونريد أن نمثل لمشاكل تحقيق المصطلح النباتي العربي المخطوط بالنظر في نموذجيْن نراهما مغنيَيْن عن النظر فيما عداهما. الأوّل هو تحقيق كتاب عنوانه" الأدوية المفردة في كتاب القانون في الطبّ لابن سينا". والكتاب في الأصل رسالة اختصر فيها عالم مجهول اسمه سليمان بن أحمد الأدوية المفردة التي خصّها ابن سينا بالقوْل في الكتاب الثاني من القانون. وقد كان الاختصار كبيرًا لأن عدد المفردات الدوَائيّة التي اشتملت عليها الرسالة ٣٩٤، بينما نص القانون يشتمل على ٨٠٦ . وقد تناول طبيب عراقي المخطوطة الفريدة الموجودة للرسالة بالتحقيق، فحققها ونشرها سنة١٩٨٤ [٧٥]. وقد عمد المحقق إلى إكمال النقص فأضاف إلى الأصْل أكثر من نصْف المادّة المنشورة في الرسالة، فكأنه إذن يحقّق أدوية ابن سينا المفردة

---

[٧٤] قد عنينا بذلك في بحثنا :« المصطلح العلمي في التراث العربي المخطوط. إشكالات الماضي وآفاق المستقبل»، ينظر:تحقيق مخطوطات العلوم في التراث الإسلامي، أبحاث= =المؤتمر الرابع لمؤسسة الفرقان، تحرير إبراهيم شبّوح، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ومبلدون، المملكة المتحدة، ١٩٩٩ (ص ص ٢٨٣- ٣٢٥)، ص ص ٢٨٨- ٢٩٦.

[٧٥] الأدوية المفردة في كتاب «القانون في الطب» لابن سينا، تحقيق مهند عبد الأمير الأعسم، دار الأندلس، بيروت (د. ت، ويفهم من التصدير الذي وضعه للكتاب والد المحقق، الباحث الجامعي العراقي عبد الأمير الأعسم، أن الكتاب نشر سنة ١٩٨٤).

كلّها. لكن" التحقيق" عنده لم يتجاوز ثلاثة أمور: (١) إتمام النقص الذي أشرنا إليْه. وقد أخرج هذا الإتمام الرسالة عن أصلْها فأصبح الكتاب المنشور غير الكتاب الذي ألفه سليمان بن أحمد. (٢) رسم المصطلحات المضافة إلى الأصل بالصورة التي وردت عليها في طبعة بولاق لكتاب القانون، دون تغيير أو تبديل أو تعديل أو تعليق على المحرّف منها للتنبيه إلى وَجْه الصواب فيه. ويبدو أن" المحقق" قد رأى في نص طبعة بولاق نصّا موثوقا بصحّته. فقد" راجع طبعة روما ١٥٩٣ وقارنها بطبعة بولاق ١٢٩٤/١٨٧٧. وهنا وجد طبعة بولاق هي الجديرة بتقويم النصّ لأسباب كثيرة أهمها أنها أقوم من مخطوطات القانون المتوفرة بيْن يديه"[٧٦]. (٣) إصْلاح مَا عدّه مغلوطا من قراءات المخطوط بما ورد في نصّ طبعة بولاق. لكن هذا الإصلاح قد شمل النصّ ولم يشمل أسماء الأدوية إلا نادرًا لما بيْن نصّ الرسالة ونص طبْعة بولاق من التوافق. ولم تَعْنِ المحققَ في تحقيقه مسألة صحّة المفردات المداخل ومدى مطابقتها لما عرفت به في النصوص المحققة تحقيقا علميّا. وقد أدى ذلك كله إلى إخراج نسْخة جديدة من نصّ طبعة بولاق تكاد تطابق الأصل مطابقة تامّة.

وقد نتج عن ذلك كله أن اشتملت هذه "القراءة الجديدة"[٧٧] للجملة الثانية من الكتاب الثاني من كتب القانون

---

[٧٦] تصدير الكتاب، ص ٥ .

[٧٧] هذا رأي صاحب التصدير، ص ٦ .

على ما في طبعة بولاق من أخطاء التصحيف والتحريف في قراءة أسْماء النبات . ومن الأخطاء ما سبق ذكره في الفقرة الثانية من هذا البحث، ولم ينبّه المحقق إلى تصحيف أيّ منها[٧٨]. ونريد أن نشير فيما يلي إلى خمسة أخطاء أخرى من أخطاء الكتاب:

(١) اللبلخ[٧٩]: كذا بلاميْن قبل الباء ولام بعدها. وقد أضيف إلى التحريف الذي ورد عليه عند ابن سينا تحريف آخر، لأن ابن سينا قد رسمه "اللبخ" بلاميْن وخاء[٨٠]، وقد أورده في باب الألف ظانا أن الألف واللامين فيه أصليّة. وقد كان على شك في رسمه لأنه قال:" إن كان هذا هو اللبخ فيكون من حقه أن يذكر في باب اللام"، والاسم هو "اللبخِ"، مُتّصلاً بألف التعريف ولامه. لكنّ ابن سينا قد اكتفى بذكره في موضعه من باب الألفِ ولم يُعِدْ ذكره في باب اللاّم قصد التنبيه أو الإحالة .

(٢) أفيوس[٨١]: وكذا ورد في القانون أيْضًا[٨٢]. وقد عرّفه ابن سينا بـ :"الحدَقي، شيء يشبه الحدقة" .والصواب «اواقنثوس» لأنه يوناني أصله (Huakinthos)[٨٣]، وقد ذكر ابن

---

[٧٨] هي بحسب تتاليها فيما سبق: أطراطيقوس (الأدوية المفردة، ص٣٨)؛ رعي الإبل، ص١٣٥؛ طوفريوس، ص٧٨؛ عاليون، ص١١٦؛ قمر قريس، ص١٣٣، وقد سحّف هنا فرسم قرقريش، فكان تصحيف على تصحيف؛ اندرو صارون، ص٣٩؛ أغالوجي، ص٣٥؛ جوز رومي، ص٥٠؛ طرغافيثا، ص٧٨؛ عالوسيس، ص١١٦؛ أبو حلسا، ص٣٧؛ السفاني، ص٣٨؛ سطرونيون، ص١٠٦؛ عرقون ص١١٦؛ نيطافلي، ص١٨٤.

[٧٩] الأدوية المفردة، ص٣٧

[٨٠] ابن سينا: القانون، ٢٦١/١

[٨١] الأدوية المفردة، ص ٣٩

[٨٢] القانون، ٢٦٣/١

[٨٣] ينظر كتابنا المصطلح الأعجمي، ١٤٦/٢ (ف٣٤٥)

البيطار في كتاب الجامع أنّ« تأويله الحدقيّ فيما زعم بَعض التراجمة"[٨٤] .

(٣) أيطاباس[٨٥]: وكذا رسم في القانون[٨٦] أيْضًا. وقد عرّفه ابن سينا بـ "شجرة الغَرَب". والاسم محرّف من اليونانية (Itea) وهو اسم الغَرَب فيها، ولذلك فإن صواب رسمه "إيطايا".

(٤) بُويَانس[٨٧]: وكذا ورد في القانون أيْضًا[٨٨]. وحديث ابن سينا عنه مطابق لما قاله عنه جالينوس حسب ابن البيطار[٨٩]. وقول جالينوس مذكور عند ابن البيطار في وصْف النبات المسمّى باليونانية "بوقادانن" (Peukedanon).

(٥)بيلُون[٩٠]: وكذا في القانون[٩١]. وقد عرّفه ابن سينا بقوله:"هذا هو العرفج البرّيّ، وهو من اليتوعات"، وقد نقل محقق "الأدوية المفردة" التعريف بنصّه. وفي الفقرة خطآن: الأول في المدْخل، فإنه محرف وصوابه" بَبْلِيُون" ببائين تتلوهما لامٌ وياءٌ،

---

[٨٤] ابن البيطار: الجامع، ٦٦/١ب (وقد حرف فيها المصطلح فرسم «أوافينوس»)، و١٦٤/١ ت (ف ١٩١)

[٨٥] الأدوية المفردة، ص ٤٠

[٨٦] القانون، ٢٦٣/١

[٨٧] الأدوية المفردة، ص ٤٣

[٨٨] القانون، ٢٦٩/١

[٨٩] ابن البيطار: الجامع، ٢٠٧/٤ب (= يربطورة)، و ٤٢٥/٣ت (ف ٢٣١٠)

[٩٠] الأدوية المفردة، ص ٤٥

[٩١] القانون، ٢٧٥/١

وهو اسم يوناني للنبات المسمّى" بقلة حمقاء بريّة، أصْله (Peplio) فقد ورد عند ابن البيطار في تعريف"ولْب"[٩٢]:"هو أحد اليتوعات، وزعم قوم أنه النوع المسمى باليونانية بابلص(...). وزعم قوْم أنه النوْع المعْرُوف بالفَرْفَج البرّي المسمى باليونانية ببليس. وابقراط يسميه ببليون، وهو الحلبيتا في بعض التراجم". و" بابلص" الوارد في الشاهد يوناني أصْله (Peplos) و"ببليس" أصله (Peplis) و"ببليس" و"ببليون" يطلقان على" البقلة الحمقاء البريّة" أو"الرِّجلة البريّة" .

والخطأ الثاني في "العَرفج البرّي". وهذا الخطأ قد تسرّب إلى طبعة بولاق من كتاب الجامع[٩٣] أيْضًا . وصوابُه- كما ورد في ترجمة كتاب الجامع[٩٤]- "فرفج برّيّ" بالفاء في أوله، وهو اسم البقلة الحمقاء البرية.

والفرفج هو اسم البقلة الحمقاء غير البرية . وقد ذكره أبو حنيفة في كتاب النبات ورسم عنده بالحاء في الجزء الأول من القاموس النباتي الذي ورد فيه في مادة "رجلة":"الرجلة الفرفح. وهي البقلة الحمقاء (...). وأصل الفرفح فارسي"[٩٥]، وَرُسِمَ بالخاء في الجزء الثاني من الكتاب في مادة مستقلة هي

---

[٩٢] ابن البيطار، ٤/١٩٣ب (وكل المصطلحات محرّفة فيها)، و ٣/٤١٥ت (ف٢٢٩٥)

[٩٣] ينظر التعليق السابق

[٩٤] ينظر التعليق (٩٢)

[٩٥] أبو حنيفة الدينوري: كتاب النبات ١/١٨٦ (ف ٤٢٣)

"فرفخ"[٩٦]وذكره في شعر للعجّاج بالخاء أيْضا. والاسم بعد هذا من الفارسية (Perpehen) قد دخل العربية فيما يبدو عن طريق السّرْيانية التي أصبح فيها[٩٧] (Parpehina) وإذن فإن "العرفج" في نصّ ابن سينا هو "الفرفج"، وهو اسم فارسيّ يكتب في العربية بالحاء المهملة وبالخاء المعجمة أيْضا.

والنموذج الثاني الذي نريد ذكره للتمثيل لمشاكل تحقيق المصطلح النباتي العربي هو التحْقيق الذي نشره باحث مصريّ لكتاب ابن البيطار "تفسير كتاب دياسقوريدوس". فقد صدرت سنة ١٩٨٧ من تفسير ابن البيطار نشرة في ١٨٤ صفحة تحمل عنوان "تفسير كتاب ديسقوريدوس" وكتب على صفحة الغلاف منها أنها تحقيق ودراسة[٩٨].

ولا شك أن إقبال المحقق على نصّ عسير مثل أحد تفاسير "المقالات الخمس" يعدّ في حدّ ذاته شجاعة لما يثيره هذا النوع من المشاكل. فهو مُنتَمٍ إلى المعاجم المختصة الثنائية اللغة لأنه يوناني عربي. ثم إنه مشتمل على كثير من المصطلحات النباتية الأعجمية اللاتينية والبربرية والفارسية خاصّة، إضافة إلى كثير

---

[٩٦] نفسه، ١٨٨/٢ (ف ٨٢٣)

[٩٧] انظر تعاليق برنهارد لوين (B. Lewin) على الجزء الأول من كتابه النبات، ص٤٦

[٩٨] عبد الله بن أحمد المالقي المعروف بابن البيطار: تفسير كتاب ديسقوريدوس، تحقيق ودراسة دكتور حلمي عبد الواحد خضرة، القاهرة، ١٩٨٧.

من المصطلحات المحلية اللهجية التي كان ابن البيطار قد أخذها في المواطن التي عَشَّبَ فيها في البلاد المعرّبة في عصْره.

ولقد اجتهد المحقّق في ذكر أصول المصطلحات اليونانية المداخل وتعيين مواضعها من نص المقالات اليوناني وتحديد تسمياتها العلمية اعتمادا على معجم أسماء النبات لأحمد عيسى. أما النص ذاته فلا تحقيق فيه بل هو نقل مشوه محرّف للكتاب. ولم يقتصر التحريف على المصطلحات العلمية النباتية الأعجمية أو العربية بل طال ألفاظ اللغة العامّة التي استعملها ابن البيطار. فإذا نظرنا في مقدمة الكتاب(٩٩) - وهي شديدة الإيجاز- وجدنا "المتدارك "قد أصبحت" المدارك" و "الأسقام" أصبحت "الانتقام" و "المتشوّفين" أصبحت "المتشوّقين"و "المتعلّمين" أصبحت "المتكلمين". وإذا نظرنا في الصفحات الأولى من المقالة الأولى(١٠٠) وجدنا فعل "يُبْحَثُ عنه" أصبح "فَسَحْتُ عَنْه"(١٠١)، وفعل "اسْتيك بها"- أي اتخذَتْ سِواكا- أصبح "اسْتُبِكَ بها"(١٠٢)، و"ثفَل" دهن الزعفران أصْبح"ثِقْلا" (١٠٣)، و"الكثير العِصِيّ" أصبح " الكثير العصْر"(١٠٤)، و"الطاهر"- من الطهارة - أصبح "الظاهر"(١٠٥) من

---

(٩٩) نفسه، ص ٢٢

(١٠٠) نفسه، ص ص ٢٣- ٣١

(١٠١) نفسه، ص ٢٤

(١٠٢) نفسه، ص ٢٤

(١٠٣) نفسه، ص ٢٥

(١٠٤) نفسه، ص ٣٠

(١٠٥) نفسه، ص ٣١

الظهور، والأغصان الصلبة العسرة "الرّضّ" أصبحت عسرة "الرّصّ"[١٠٦]...الخ. والتصحيف الذي ذكرناه لا يحوج إلى اختصاص في العلم ليُتجنّب، بل يحوج إلى معرفة باللغة تمكّن المحقق من إقامة النصّ المحقق على أسُس صحيحة. ولا شك أنّ الاعتماد على معاجم اللغة العامّة للتفريق بين المعاني واختيار قراءة دون قراءة من الشروط البديهيّة في تحقيق أي نصٍّ تراثي. على أن الألفاظ المصحّفة التي ذكرناها قد وردت كلها في متن الكتاب صحيحة كما بيّناهُ ولم تكن مدْعَاةً إلى التصحيف[١٠٧]

فإذا نظرنا في مصطلحات الكتاب وجدنا الأمْرَ أعْسَر على المحقق. فإن المصطلح النباتي في "تفسير" ابن البيطار لا تكفي معاجم اللغة العامة لمعرفته بدقة بل هو محوج إلى الاعتماد على مصادر عديدة أوّلها مؤلفات ابن البيطارنفسه وخاصة كتابيْ الجامع لمفردات الأدوية والأغذية والإبانة والإعلام بما في المنهاج من الخلل والأوهام؛ وثانيها المقالات الخمس في نصّها اليُونَاني ونصّها العربي في نشرته الإسبانية ثمّ في مخطوطة نفيسة هي مخطوطة مكتبة باريس الوطنية رقم ٢٨٤٩ . فإن على هوامش هذه المخطوطة نقولاً كثيرة من "تفسير" ابن البيطار. ولم

---

[١٠٦] نفسه، ص ٣١

[١٠٧] تنظر القراءات الصحيحة للمواضع المحرّفة التي ذكرنا في تحقيقنا لتفسير ابن البيطار، ص ص ١٠٩- ١٤٥

نَـرَ مُحقّـق "التفسـير" قـد أفـاد مـن كتـابي ابـن البيطـار أومـن نصّـي "المقـالات الخمـس" اليونـاني والعربـيّ شـيئًا في قـراءة المصطلحات ورسمها. فقد اكتفى في إثبات المصطلحات اليونانية المـداخل بنقـل مَـا ورد في مخطوطـة "التفسـير" - وهـي كـثيرة التحريف- دون عناية بما اتبعه ابن البيْطار في قراءتها وضبطها في كتـابي الجـامع والإبانـة. ولم يكتـف المحقـق بإيراد المصـحّف المحرّف بـل إنـه صحّف مـا كـان في الأصْل صحيحًا. ومـن أمثلـة ذلك مصطلحُ "رَامُس"[١٠٨] - وهو العوسج - الذي عَوَّض "رامنس" - بـالنون- (Ramnos) الـذي ورد في الأصْـل، ومصـطلح "الوقيسُون"[١٠٩] - وهو الحُضَض. الذي عَـوَّضَ "لوقيُـون"(Lukion) ومصطلح "أقيـوس" بالقـاف[١١٠] - وهـو الكمّثـرى - الـذي عـوَّضَ "أفيُـوس" (Apios) بالفـاء؛ ومصـطلح «مُـوزا» بـالزاي[١١١] - وهـو التـوت، وليْس التوشـا كمـا رسـم - الـذي عـوّض "مـورا" (Morea) بالراء ... الخ.

وأمّا المصطلحات العربية فلم يقارن رسْمها في مخطوطة التفسير بما ورد لها من رسم في كتابيْ الجـامع والإبانـة. ولـو نظـر في هذيْن الكتابيْن لوجد حلولا لجلّ المصطلحات الصعبة القـراءة

---

[١٠٨] ابن البيطار: تفسير كتاب ديسقوريدوس (تحقيق د. خضرة)، ص ٢٨

[١٠٩] نفسه، ص ٣٠

[١١٠] نفسه، ص ٣٣

[١١١] نفسه، ص ٣٤.

أو المجهولة أو المحرّفة. ومن أمثلة هذه المصطلحات العربيّة أو الأعجمية المعَرّبَة ـ غير اليُونانية المدَاخِل ـ التي لحقها التحريف لأنّ المحقق لم يُجِدْ قراءَتَها فخرج بها عن الصواب نذكر "كرويا" بالواو الذي أصبْح "كرديا" بالدّال[112]، و"تبْن مكة"- وهو الإذخر- الذي أصبْح "تين مكة" بالياء[113]؛ و"اللّكّ" بلاميْن وكاف مشدّدة الذي أصبح "الملك" بميم ولام[114]؛ و"السندروس" الذي أصبح "السنتراس"[115]؛ و"الجادي" بالجيم و"الجساد" بالدال و"الريهقان" بالراء - وكلها من أسْماء الزعفران - التي أصْبحت "الحادي "بالحاء و "الجسار" بالراء و "الزبقهان" بالزاي والباء[116]؛ و"اليرنّاء" و"الرقان" و"الرقون"- وكلها من أسماء الحناء- التي أصبحت "اليرفاك" و"الدقان" و" الدقون" ...[117] الخ. والمصطلحات التي أوردنا مذكورة كلّها في كتاب الجامع، ثم إنها - ما عدا "الريْهقان" الذي رسم بالزاي في الأصْل المخطوط- قد رسمت في المخطوطة رسمًا صحيحًا. لكن عدم تفريق المحقق بيْن بعض الحروف جعله يَعُدُّ الدال راءً في مثل الجسَادِ، والرّاء دالاً في مثل

---

[112] نفسه، ص ٢٣.

[113] نفسه، ص ٢٤.

[114] نفسه، ص ٢٤.

[115] نفسه، ص ٢٤.

[116] نفسه، ص ص ٢٤ - ٢٥

[117] نفسه، ص ٢٩

الرقان والرقون، ويعد الهمزة كافًا في مثل اليرنّاء . وليْس عمل مثل هذا في الحقيقة بتحقيق للمصطلح النباتي بل هو تحريف له .

٣ - ٢ في التحقيق الماهَوي :

وهذا التحقيق علمي خالِصٌ لأن الغاية الأساسيّة منه هي تحديد ماهية النبات باعتباره فرْدًا أو شخصًا له خصائصه وصفاته في علم النبات المحْض أوْ له منافعه العلاجية التي يختلف بها عن غيره من النبات الطبيّ. وقد عُنيَ العربُ بهذا النوع من التّحقيق وخاصّة في مجال النبات الطبي منذ وقت مُبكّر. فإن المترجمين كانوا محققين إذا هم استطاعُوا أن يوقعوا الاسم العربيّ أو المعرّب على المسمّى الذي يحمل اسمًا يُونانيّا؛ ثم إن الصيادلة كانوا محققين إذا هم استعملوا استعمالاً صحيحًا الأدوية النباتية في مواضعها عند إعداد الأدوية؛ ثم إن علماء الأدوية المفردة كانوا محققين أيضا إذا هم ميزوا بيْن النباتات ونسبُوا إلى كلّ نباتٍ دوائي أفعاله الخاصة به.

ولاشك أن هذا النزوع إلى التحقيق العلميّ هو الذي دفع علماء الأدوية المفردة العرب إلى مراجعة ترجمة المقالات الخمس العربية وشرحها أكثر من مرّة بيْن القرن الرابع والقرن السّابع الهجريّيْن، وهو الذي حثهم أيضا على تأليف الكتب في نقد أخطاء بعضهم في الخلْط العلمي بيْن النباتات؛ ومن أشهر تلك الكتب كتاب الإبانة والإعلام بما في المنهاج من الخلل والأوهام

لابـن البيْطـار، والمنهـاج المنتقـد هـو منهـاج البيـان فيمـا يسـتعمله الإنسان لابن جزلة البغدادي. ولقـد كـان التحقيـق بالنسبة إليهم ضروريًا لأنه يقيهم من الوقـوع في الخطإ الـذي يكبر حجمه فـلا يغتفر في الطبّ.

ولكـن هـذه الرغبـة في الاحْتيـاط لأنْفُسـهم ولغيرهـم لم تمنـع كثيرين منهم مـن الوقـوع في الخطـإ، ومـنهم العلمـاء الجِلّـة مثل أبـي بكـر الـرازي وأحمـد ابـن الجـزار وابـن جزلـة وابـن سـينا وأبـي جعفـر أحمـد الغـافقي. ودواعـي الخطـإ حسـب ابـن البيطـار ثلاثة[118]:

(١) الخلط بين اسْمين أو أكثر بسبب ما سمّاه الاشتراك في الاسميّة. فإن الاسمين قد يشتركان في جملة من حروفهما أو في جملـة حُرُوفهمـا فيكونـان مـن المشـترك اللّفظـي ويُرْجعـان إلى نبـاتيْن مختلفـيْن في خصائصـهما ومنافعهمـا. وقـد ذكـر ابـن البيطار من هذه الأخطاء نماذج أصبحت مشهورة مثل التشابه بـين خامالاون وخامالا. فإن"الخامالاون" (Khamaileon) - ومعناه "أسَدُ الأرض" - هـو الإشـخيصُ، بينمـا "الخامَـالا"هـو (Khamelaia) المـازريون[119] ؛ وبـيْن لوطـوس (Lotos) الـذي هـو الحنـدقوقَى

---

[118] ينظر ابن البيطار: الإبانة والإعلام، ١ظ- ٢و

[119] نفسه، ٣٠و- ٣٢و ؛ وينظر كتابنا: بحوث في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، ص ص ٥١٨- ٥٢٤

بنوعيها البرّي والبُستاني، و« لوطوس المصري» الذي هو البشنين[١٢٠] ؛

(٢) الخلط في التحليات، وذلك بوَصْف دواء نَبَاتيّ بما ليْسَ له من الصّفات، وهو خلط واضح لأنه مؤدّ إلى إعطاء نباتٍ مّا خصائص نباتٍ آخر. وقد ذكر ابن البيطار من هذا النوع مجمُوعَةً من الأخطاء منها الخَلْط بين البابلس والخشخاش الزبدي[١٢١]؛ والخلط بين البنجنكشت والبنطافلن[١٢٢]؛

(٣) الخلط بين المنافع، أي خلط منافع دواءٍ نباتِيّ بمنافع دواء نباتيّ آخر، أي بإعطاء دواءٍ مّا ما ليْس فيه من الخصائص العلاجيّة. وهذا النوع متأثر بالنوع الأول لأن النباتيْن المُختلفيْن إذا عُدَّا نباتًا واحدا أعْطى كلّ منهما ما للآخر من الخصائص والمنافع .

وليْس مثل هذه الأخطاء في الحقيقة بالنادر في مؤلفات القدماء . ونذكر منها فيما يلي النماذج التالية :

(١) تعريف مصطلح" فُرثْرون" (Purithros) اليوناني بعاقرقرحا. وقد اتبع هذا التحديد اصطفن بن بسيل وحنين بن

---

[١٢٠] ابن البيطار: الإبانة والإعلام، ٢٦ظ - ٢٨ظ؛ وينظر كتابنا بحوث، ص ص ٥١٢- ٥١٨.

[١٢١] ابن البيطار: الإبانة، ١٤ظ - ١٥و

[١٢٢] نفسه، ١٧ظ - ١٨ظ

إسحاق في ترجمة المقالات الخمس[123]، وقد تابعهما في ذلك ابن سينا في القانون[124] والبيروني في الصيدنة[125]. على أن هذيْن العالميْن قد جعلا أيْضًا العاقرقرحا أصْلاً لنوع من الطرخون هو الطّرخون الجبلي حسب ابن سينا[126] والطرخون الروميّ حسب البيروني[127]. وقد أوقعهما في هذا الخطإ الثاني مسيح بن الحكم الدمشقي. فقد" زعم مسيح وَحْدهُ أنه بقلة العاقرقرحا وليس كما زعم"[128]. والفرثرون الذي وصفه ديوسقريديس في المقالات الخمس يُوَافق حسب ابن البيطار النبات المسمّى بالعربيّة عود القرح الجبليّ، أمّا النبات المعروف بالعاقرقرحا فهو المسمّى في بلاد المغرب "تيقندست" وهو اسم بربريّ"[129].

(٢) تعريف مصطلح "سطروثيون"[130] (Struthion) اليوناني بالكندس. وقد عرّفه بذلك البيروني في

---

[123] دياسقوريدوس: المقالات الخمس، ص ٢٧٢ (٣- ٦٩)

[124] ابن سينا: القانون، ٣٩٦/١

[125] البيروني: الصيدنة، ص ٢٦١

[126] ابن سينا: القانون، ٣٢٦/١

[127] البيروني : الصيدنة، ص ٢٦١

[128] ابن البيطار: الجامع، ١٠٠/٣ ب، و ٤٠٧/٢ت، (ف ١٤٥٩)

[129] نفسه، ١١٥/٣ب، و ٤٣٢/٢- ٤٣٣ت (ف١٥٠٧)؛ وينظر له أيضًا: تفسير كتاب دياسقوريدوس، ص ٢٣٧ (٣- ٧٠)

[130] كثيرًا ما يحرّف هذا المصطلح فيرسم «سطرونيون» بالنون بين الواو والياء و«سطروبيون» بالباء: ينظر تعليقنا على مادة «سطروثيون» في كتابنا المصطلح الأعجمي، ٤٤٩/٢- ٤٥٠ (ف ١٠٥٥).

الصيدنة[١٣١] وداود الأنطاكي في التذكرة[١٣٢]. وليس بين السطروثيون والكندس من صلةٍ إلا في تحريك العطاس. وقد ترجم حنين بن إسحاق المصطلح اليوناني بالكندس في كتاب الأدوية المفردة لجالينوس وانتقل من ترجمته الخطأ[١٣٣].

(٣) الخلط بيْن النبات المسمّى باليونانية "اسْطيراطيقوس" (Asterattikos) والنبات المسمّى "قرصَعْنة". وأوّل من وقع في هذا الخطإ فيما يبدو هو ابن وافد الأندلسي[١٣٤]. وقد انتقل هذا الخطأ إلى ابن رشد في كتاب الكلّيات. فقد قال عن القرصعنة: " وأمّا خاصّتُه المشهورة فهي تحليل الأورام الحالبيّة، حتى أن اسمه باللسان اليوناني كان مشتقا من اسم الحالب"[١٣٥]. واسم القرصعنة اليونانيّ في الحقيقة هو (Erunge)، ولا صلة له بالحالبي البتّة. فإن الحالبيّ منسوبٌ إلى الحالب الذي يسمّى باليونانية (Bubon) "بُوبون" ومنه في اليونانية مصطلح (Bubonion) (بُوبُونيون)ومعناه "الحالبي"، وهو اسمٌ يطلق على النبات المسمّى

---

[١٣١] البيروني: الصيدنة، ص ٣٢٥

[١٣٢] داود الأنطاكي : التذكرة، ٢٤٨/١

[١٣٣] ينظر تنبيه ابن البيطار إلى ذلك ونقده حنينًا بن إسحاق وكذلك ابن وافد: الجامع، ١٣/٣ب، و ٢٤٩/٢ت (ف ١١٧٩)، و ٨٦/٤ب، و٢٠٤/٣ت (ف ١٩٧٥)؛ نفسه: تفسير كتاب دياسقوريدوس، ص١٩٨ (٢- ١٤٦).

[١٣٤] ينظر: ابن البيطار: الجامع، ٥٢/١ب، و٦٢/١ت (ف ٦٤).

[١٣٥] أبو الوليد ابن رشد: الكليات في الطب، تحقيق سعيد شيبان وعمّار الطالبي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٨٩، ص٢٦٤.

باليونانية" اسْطيرا طيقوس". وقد ذكر جالينوس في الحديث عن "اسطيرا طيقوس" أن "هذا النبات يسمّى باليُونانية بونيون وهو اسم مشتق من اسم الحالب لأنّه دواءٌ وثق الناس منه أنه يشفي الوَرَمَ الحادث في الحالب إذا وضع عليْه كالضماد"[136] .

(٤) الخلط بيْن النبات المسمّى بالعربية "أذنة" و"آذان القسيس"- ويقابلهما في اليونانية مصطلح "قوطوليدون" (Kotuledon) - والنبات المسمّى "قاتل أخيه"، وهو نوع من النبات المسمّى "خصى الثعلب" الذي يقابله في اليونانية مصطلح (Saturion). وقد وقع في هذا الخلط الشيخ داود الأنطاكي في التذكرة . فقد ذهب في مادّة "اشران"- وقد نبهنا إلى مسألة التحريف في كتابة هذا المصطلح من قبل وبيّنا صلته بالنبات المسمى باليونانية "قوطوليدون"- إلى الجمع بيْن الأذنة وآذان القسيس وقاتل أخيه في نبات واحد. فقد قال "اشران: هو اللاّذنة (= الأذنة)، وعندنا يسمّى أذن القسيس(...). وهو نبات له ورق إلى حمرة وزهر أبيض وساق دقيق جمته لا تزيد على ستة عروق (...)، وإذا قلعت وُجِدَ في أصْلها كبيْضتي الإنسان إحداهما صلبة والأخرى رخوة، وقد يكون كالجزر(...)، لا يعدله في تحريك شهوة الباه مُفْرد ولا مركّب (...)، والرخوة منه تسقط

---

[136] ينظر ابن البيطار: الجامع، ١/٢٥ب، و١/٦٢ ت (ف ٦٤)

الشـهْوة"[١٣٧]؛ والخصـائص الـتي ذكرهـا الشـيخ داود ليْسـت خصـائص آذان القسيس، بـل هـي خصـائص النّـوع المسمّى قاتـل أخيه من النبات المسمّى خصى الثعلب[١٣٨].

ولقد اهتم المحدثون بالتحقيق الماهويّ أيْضًا. فقد ألّفتْ كتب غير قليلة في تحديد ماهيات النباتات التي ذكرت في النّصُوص التراثية، ومن أشهر تلك الكتب "معجم أسماء النبات" لأحمد عيسى، و«معجم الألفاظ الزراعية» لمصطفى الشهابي، ثم كتاب«إحياء التذكرة» لرَمْزي مفتاح. وهذا الكتاب الأخير يمثل في الحقيقة مشاركة مهمة في إعادة قراءة التراث العلميّ العربي القديم، فقد حاول مؤلفُه أنْ يستقرئ أحد كتب التراث العلميّ العربيّ ليختبرَهُ ويبحث في مَدَى مطابقته لمقالات المحدثين.

ولقد اختار رمزي مفتاح نموذجًا للاختبار صعْبًا هو كتاب "تذكرة أولى الألباب والجامع للعجب العجاب "للشيخ داود بن عمر الأنطاكي (ت. ١٠٠٨ هـ / ١٥٩٩ م). والشيخ داود من المتأخرين، أي إنّه ليْس من العلماء المبتكرين بل هو مقلّد للسابقين له وخاصة لابن البيطار. ولا ينتظر من عالم متأخّر في الزمَن مقلّد لسابقيه أن يكون ذا تجربة فذة في تناول النباتات

---

[١٣٧] داود الأنطاكي: التذكرة، ٤٢/١

[١٣٨] ينظر حول خصى الثعلب وخصائصه، وحول قاتل أخيه: ابن البيطار: الجامع، ٦٢/٢- ٦٣ب، و٣٤/٢- ٣٥ت (ف٨٠٢)، و٤/٤ب (وفيها«خصى الكلب» عوض «خصى الثعلب») و ٥٨/٣- ٥٩ت (ف ١٧٣٣).

الطبية بالقوْل. ثم إن مَا ظهر في كتب السابقين من التصْحيف في قراءة المصطلحات أو الخلْط في تحقيقها كان في كتاب التذكرة أشدّ. وقد وقعت فيه جُلّ الأخطاء التي انتقدها ابن البيْطار عَلَى كتاب منهاج البيان لابن جزلة أوْ عَلَى كتاب القانون لابن سينا.

وكثرة الأخطاء في كتابٍ مثل تذكرة الشيخ داود تقتضي أن يُنْظر فيه بحذر شديد وأن يُسْتَعَانَ عَلَى البحث فيه بمصادر العلم الذي ينتمي إليْه وخَاصّة بالمصادر التي نقل منها المؤلف . وأهمّ مصادر الشيخ داود كان ابن البيطار في كتاب الجامع. وقد اعتمد رمزي مفتاح على كتاب الجامع إذْ أحال إليه أكثر من مرة، لكنّ اعتماده كان على طبعة بولاق فقط- أي النص العربيّ- فكان اعتمادًا منقوصًا لأنّ طبعة بولاق منه مليئة هي نفسها بشتّى أنواع التصحيف والتحريف، ولا يمكن فيما نرى أن يستفاد من نصّ كتاب ابن البيْطار في طبعته العربية ما لم تُعْتَمدْ معَهُ الترْجَمةُ الفرنسية الممتازة التي قام بها المستشرق الفرنسي لسيان لكلرك (Lucien Leclerc) ونشرها بباريس بيْن ١٨٧٧ و١٨٨٣ في ثلاثة أجْزاءٍ كبيرَة. فإن لكلرك قد حافظ في ترجمته على الجهاز المصطلحيّ الذي وضعه ابن البيطار لكتابه، فرسم مصطلحات الكتاب بالحروف العربية ثم ترجمها. ولم يكن لكلرك فيما نعلم على دراية بطبعة بولاق التي صدرت سنة ١٨٧٤ ، لأنه كان أثناء صدورها متَقدِّمًا في

ترجمة الكتاب أو لعلّه قد انتهى منها . فلقد كان سنة ١٨٦٦ قد بلغ في الترجمة حرف الميم من أصل الكتاب[١٣٩]. وإذن فقد كان اعتماده في عمله على مخطوطات أصْليّة ، وقد بحث قبل أن يشرع في ترجمته عن أفضل نسخ الكتاب المخطوطة فجمّع منها أكثر من عشر . ولذلك كلّه فإن عمله في الترجمة لم يقتصر على نقل مادّة كتاب من لغة إلى لغة ثانية بل كان تحقيقا للنصّ وللجهاز المصطلحيّ جيّدًا . وهذه مزيّة في عمل لكلرك تجعل الاعتماد عليْه ضروريّا في إنجاز أي بَحْث حوْل كتاب الجامع بل وحول الأدوية المفردة عامّة. ولو فعل رمزي مفتاح ذلك لخلص من أخْطاءٍ كثيرة: منها ما أوقعه فيها الشيخ داود نفسه ، ومنها ما أوقعه فيها ضعف معرفته بالمادّة العلميّة التي يكتب فيها ، أي علم الأدوية المفردة العربية. ونقدم فيما يلي نماذج من أوْهام الرجليْن:

(١) افنقيطش : كذا رسَمَهُ الشيخ داود[١٤٠] ، وقد عرّفه بالسّلحم. وقد أخذ رَمْزي مفتاح المصطلح برسْمه وتعريفه[١٤١] ، وقد أخطأ الشيخ داود وأخطأ هو معه لأن "افنقيطش" رسم محرّف لـ"أفيبقطيس" وهذا من اليونانية(Epipaktis) ، ولا علاقة

---

[١٣٩] ينظر: L.Leclerc: De la traduction arabe de Dioscorides. p .27.

[١٤٠] داود الأنطاكي: التذكرة ١/٤٧.

[١٤١] رمزي مفتاح: إحياء التذكرة في النباتات الطبية والمفردات العطارية ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى بابي الحلبي وأولاده بمصر ، القاهرة ، ١٩٥٣ ، ص٩٧.

لهذا النبات بالسلجم الذي يقابله في اليُونانية مصطلح " غُنْغيلى" (Gongule)؛ وقد ذكر "ابن البيطار" "افيبقطس" في كتاب الجامع[١٤٢] ولم يذكر له مقابلاً عربيًا ، وقد بقي بلا مقابل فيما يبدو حتى العصر الحديث لأن أحمد عيسى قد ذكره في معجمه[١٤٣] مكتفيًا به ولم يورد له مقابلا عربيّا .

(٢) أقسون: كذا رسمه الشيخ داود وعرّفه برأس الشيخ[١٤٤] ، وقد نقل عنه مفتاح رسم المصطلح وتعريفه وزاد عليه في التعريف مصطلح" شكاعى"[١٤٥]. وقد أخطأ الرجلان في رسم المصطلح لأن صواب رسمه هو" أقنثيون" لأنه يوناني أصله (Akanthion) وهو المسمى بالعربية "رأس الشيخ"؛ وقد أخْطأ مفتاح وحده إذ زاد الشكاعَى لأن الشكاعَى لا توافق "أقنثيون" بل توافق مصطلحًا آخر هو "الشوكة العربية" ، أي" اقنثا أرابيقى" (Akantha Arabike) باليونانية.

(٣) أوافينوس: كذا رسمه الشيخ داود وقال في تعريفه إنّهُ يُونانيّ وإن'معناه شبيه الحذق' ، بالذال المعجمة[١٤٦].وقد أخذ

---

[١٤٢] ابن البيطار: الجامع، ٤٤/١ب (وقد حرف فيها فرسم "افنيقطش")، و١٠٥/١ات (ف ١١٤).

[١٤٣] أحمد عيسى: معجم أسماء النبات، القاهرة، ١٩٣٠ ، ص٧٦ (ف٤).

[١٤٤] داود الأنطاكي: التذكرة، ٤٩/١

[١٤٥] رمزي مفتاح: إحياء التذكرة، ص ٩٩

[١٤٦] داود الأنطاكي: التذكرة، ٥٦/١

مفتاح المصطلح برسمه ثم اجتهد في تأصيله فقال:" اسْمُها محرّف ومصحّف وأصْلُه بالفرنجيّة عين فينوس، وهي إلهة الجمال"[١٤٧]. وقد أخطأ الرجلان أيضًا لأن "أوافينوس" ليْس إلاّ رسْمًا محرّفا لمصطلح "أواقنثوس" بالقاف، ذي الأصل اليوناني (Huakinthos)، وليْس ذا صلة البتة بما سمّاه مفتاح" عين فينوس".

(٤) إيمار أنطولي: كذا رسمه الشيخ داود، وقد عرّفه بالكرْمة والزويتينيّة[١٤٨]. وقد أخذ مفتاح عن داود المصطلح برسمه وتعريفه[١٤٩] وهما مُخْطِئانِ أيْضًا لأن المصطلح ليْس إلاّ تحريفًا لمصطلح آخر ذي أصْل يوناني هو "إيارًا بُوطاني" (Hiera botane). ولا علاقة له بالكرْمِ البتّة بلْ هو النباتُ المسمّى بالعربيّة "رِعْيُ الحَمام".

(٥) برْطاليقي: كذا رسمه داود، ولم يعرِّفْهُ بمقابل عربيّ[١٥٠]. وقد أخذ عنه مفتاح المصطلح وعرّفه بالرِّجْلة وعَدَّ الاسم مُعرّبًا من اسم الرِّجْلَة اللاتيني وهو[١٥١] (Portulaca). وقد وهم الشيخ داود في رسْمه إذ الصواب فيه هو «بَرْطَانِيقي» كما يدلّ عليْه الوصْف الذي أوْرَدَهُ له، وبَرْطَانِيقي من اليونانية

---

[١٤٧] رمزي مفتاح: إحياء التذكرة، ص ١١٥

[١٤٨] داود الأنطاكي: التذكرة، ٥٧/١

[١٤٩] مفتاح: إحياء التذكرة، ص ١١٩

[١٥٠] داود الأنطاكي: التذكرة، ص ٦٩/١

[١٥١] مفتاح: إحياء التذكرة، ص ١٤٠

(Brettanike) وأمّا مفتاح فقد أخرج المصطلح عن أصله وحَرَّفه تحريفا شديدًا إذ ربَطه باللاتينية Portulaca وبالعربية الرّجْلة، خاصّة وأن الشيخ داود قد خَصّ الرجلة بمادّة مستقلة في كتابه[١٥٢] وبينها وبيْن هذا النبات اختلاف تامّ.

(٦) طَليقون: كذا رسمه الشيخ داود[١٥٣]، وقال في تعريفه: "نبْتٌ كالرجْلة له زهر أبْيَضُ وأوْراقٌ يتفرع من بيْنها قُضْبَان لا تتجاوَز ستّة (كذا) حريفة، إذا فُركت لزجت". وبالنظر في هذا التعريف يتبيَّنُ أنه ملخّصٌ- والتلخيص من عادات الشيخ داود- من تعريف النبَات المسمَّى باليونانية "طيلافيون" (Telephion) فقد وصف ابن البيطار هذا النبات- وقد حرّف اسمُه في ط. بولاق فرسم "طيلاقيون" بالقاف عوض الفاء- اعتمادًا على ديوسقريديس بقوله: "ورق هذا النبات وساقُه يشبه ورق البقلة الحمقاء [= الرّجلة] ساقَها، وينبت عند كلّ ورقة قضبان يتشعّبُ منها سبْع شعب صغار مملوءة من ورق ثخان يظهر منها إذا فُركت رطوبة لزجة، وله زهر أبيض. وينبت بيْن الكروم والحروث"[١٥٤]. وإذن فإن "طيلافيون" اليوناني قد أصبح

---

[١٥٢] داود الأنطاكي: التذكرة، ٧٢/١.

[١٥٣] نفسه، ١ /٢٠٩.

[١٥٤] ابن البيطار: الجامع، ١٠٥/٣ب، ٤٢٠/٢ت (ف ١٤٨٣). وينظر أيضًا: دياسقوريدوس: المقالات الخمس، ص ٢٣٥ (٢- ١٨٤).

عند داود "طليقون". وقد أخذ رمزي مفتاح بهذا الرسم[155] لكنه أرجع المصطلح إلى أصلٍ من "اللغات الأوروبية" هو (Theligone) وجعله من الفصيلة التلجونية (Cynocrambacees) وعدة من «المُهيّجات الجنسية المؤذية»، وفسر معنى الأصل اللاتيني للمصطلح - هو (Thelygonum)- بـ "المسبب للجنون الجنسي". وليس لما ذكره من أساس علمي لأن أصل المصطلح يوناني كما ذكرنا، والنبات من الفصيلة الحِمِمية (Borraginees) واسمه العلمي (Cerintha minor).

والأمثلة على هذه الأوهام كثيرة لكن يَسْهُل تتبّعها في كتاب التذكرة وفي إحيائه معًا .

[155] مفتاح: إحياء التذكرة، ص ٤٢٤

٤ . خاتمة:

قد ركزنا القوْل في بحثنا على مشاكل قراءة المصطلح النّباتي العربي وتحقيقه في النصوص التراثية العربية الإسلامية وفي النصوص الحديثة. وقد عالجنا المسألتين اعتمادا على جملة من النصوص أهمّها كتابُ القانُون لابن سينا وكتاب الصيدنة للبيروني وكتاب الجامع لابن البيطار وتذكرة الشيخ داود بن عمر الأنطاكي، واخترنا من الأعمال الحديثة ثلاثةً: هي تحقيق رسالة في" الأدوية المفردة "من كتاب القانون لابن سينا، لباحث عراقي، وتحقيق" تفسير كتاب ديسقوريدوس" لبعض الجامعيين المصريين، وكتاب "إحياء التذكرة" لأحد الأطباء المصريين الباحثين. وقد ذكرنا نماذج من أخطاء القراءة والتحقيق لم نقصد بذكرها الإنقاصَ من قيمة القُدَمَاءَ أو الطعن في كفاءة المحدثين. وإنما كان قصدُنا الأوّل أن ننبّه إلى ما تثيرُهُ النصوص النباتية التراثية من المشاكل المصطلحية المؤدّية إلى تشويش المفاهيم العلميّة ذاتها التي ترتبط بها المصطلحات. وقد كانَ أكثر اخْتيارنا لأشدّ المصطلحات تعقيدًا، وهي المصطلحات الأعجمية اليُونانية. فإن منزلتها في نصوصنا العلمية النباتية القديمة- وخاصة كتب الأدوية المفردة - كبيرة، ولا يمكن فهم النصوص النباتية التراثية العربية القديمة دون فهمها ومعرفة أصولها ومفاهيمها وطرق انتقالها إلى العربية وتناقلها بيْن العلماء المؤلفين في الأدوية المفردة. وقد بيّنت لنا النماذج التي قدّمنا أن

المحدثين ليسوا أحسن حالا من القدماء في تجنب أوْهام القراءة والتحقيق . وهذا مُوجبٌ فيما نرى لأمْريْن نراهما ضرُوريّيْن:

الأول هو تحقيق المدونة النصّية النباتية العربية تحقيقا علميّا بحسب ما يقتضيه التحقيق العلمي من منهج وجهاز نقديّ. فإننا لا نستغرب اليوم وجُودَ الأخطاء ما دامت النصوص الأساسية - مثل القانون لابن سينا وكتاب الجامع لابن البيطار- غير محققة. فإن جُلّها مخطوط وبعضها موْجود في طبعات تقليدية رديئة .

والثاني هو وضع المدونة المصطلحية النباتية العربية اعتمادًا على نصوص التراث. على أن هذه المدونة فيما نرى تكوِّن جزءًا من المدونة المصطلحية التراثية العربية التي ينبغي أن تنجز أيْضًا.

مُسْتدْرَك

تضمن جدول أعمال المؤتمر مشاركتَيْن مُهمّتَين لم يَرِدْ لهما نصٌ في هذا السجل الجامع.

❖ ❖ ❖

● **الأولى:** مشاركة الدكتور ريجيس موريلون، التي قدّمها شفهيًا ملخّصة في الجلسة الثانية للمؤتمر؛ ولم تسعفه ظروفه وشواغله لإعداد بحثه مكتوبًا لينشر ضمن الأبحاث.

وقد استخلصنا من التسجيل الصوتي هذا التقديم الذي عرّف فيه بموضوعه:

تحدث عن العلاقة بين الجغرافيا وعلم الفلك، وبصفة أخص، عن أثر الجغرافيا في المؤلفات الأولى في علم الفلك العربي.

نوّه فيه بأهمية الرصد في الفلك العلمي قبل كوبرنيك، وبالرصد المتوازي واتخاذ الإحداثيات. وذكّر بأهمية ترجمة كتاب المجسطي لبطلميوس الذي قسّم الأرض إلى سبعة أقاليم،

تفصلها خطوط متوازية تتميز بالحساب الفلكي؛ وكيف أدت هذه الترجمة إلى انطلاق الأبحاث في مجال علم الفلك والجغرافيا العلمية، وإنشاء مرصدين في بغداد ودمشق، وعن تكوّن أول النتائج في هذا المجال من عدد قليل من الجداول السّمتيّة المبنية على أرصاد أُجريت في خلافة المأمون، وكانت أول دراسة نظرية لتجديد نظام بطلميوس، دراسة لحركة الشمس، وقد ألف هذا الكتاب المبكّر في النصف الأول من القرن التاسع الميلادي، ونسب إلى ثابت بن قرة، ولكن الأرجح أنه من تصنيف بني موسى.

وهناك معلومات أفضل بدأت تظهر حول معرفة الأرض في عصر المأمون، من ذلك ظهور رسالة تُعتبر في ذلك الزمان نموذجًا مثاليًا للبحث الفلكي، كتبها أحمد بن محمد بن كثير الفرغاني، بها بعض فصول قصار عن قوانين الشمس، وفيها أعاد الفرغاني النظر في النتائج التي يحتوي عليها المجسطي، لكنه لم يذكر فيها تجارب عَرْضية توضيحية أو ملاحظات أرصاد.

واشتملت النتائج على مسألة الترتيب الزمني للأرض ووصفها. وقد بناها على الحِقب والعصور.

ففي **الفصل الأول** الذي هو فصل الترتيب الزمني، وصف المؤلف مختلف العصور، عصور الإغريق، والبيزنطيين، والسومريين، والفرس، والعصر الإيجي.

الفصل الثاني: عن الحركة الكروية للسماء، ومن هذا الفصل إلى الفصل الخامس، توجد معلومات استقاها من المجسطي.

الفصل الثالث: في كروية الأرض.

الفصل الرابع: لا توجد حركة للأرض في مركز الكون.

الفصل الخامس: حركة الأجسام السماوية مؤلفة بالدرجة الأولى من نوعين، ويتبع في ذلك جغرافية بطلميوس.

الفصل السادس: وصف الجزء المأهول من الأرض.

الفصل السابع: ما يختص تحديداً بتلك الأجزاء المأهولة من الأرض وطول الأيام.

الفصل الثامن: التقسيم إلى سبعة أقاليم.

الفصل التاسع: أسماء الأقطار والمدن التي تحتوي عليها الأقاليم السبعة.

الفصل العاشر: الارتفاع والصعود والالتزامات المتعلقة بخط عرض المكان.

الفصل الحادي عشر: تمييز الساعات الاعتدالية والساعات غير المنتظمة.

الفصل الثاني عشر والثالث عشر: دراسة لجميع المسائل الفلكية المتعلقة بالنجوم والكواكب السيارة، حسبما قاله بطلميوس في المجسطي.

ولم تكن هذه الرسالة نتاج عمل بحثي، إنها لم يَعْدُ كَوْنها تبسيطًا وترويجًا بين عامة الناس لعلم الفلك في القرن التاسع الميلادي، لكنها عمل مهمّ كل الأهمية في تاريخ هذا الفرع من فروع المعرفة، لأنها كانت تعْتبر في القسم الأول من تطور هذا النتاج، على أنها نموذج فعلي لبحث فلكي.

وقد كان من الضروري ابتداؤه بالترتيب الزمني لمقارنة تقسيم العصور الذي انتقل إلى العالم العربي عن طريق جميع الموروثات والمأثورات السابقة.

واحتوت على وصف الأرض باعتبارها جزءً من الكون العالمي برمّته. وخلال قرنين امتدّ هذا الموروث ولا سيما جمع الجداول الفلكية التي تحتوي على قائمة من خطوط الطول والعرض لجميع المدن.

ونعثر على أوج هذا الموروث عند أبي الريحان البيروني العالم العظيم في القرن الحادي عشر، ففي كتابه الجليل "القانون المسعودي في هيئة النجوم" يتناول مرة أخرى وصف الكون بمجمله، ووصف المبادىء الأولى للفلك والعصور المختلفة بأسلوب أكثر تطورًا بكثير من النهج الذي انتهجه الفرغاني.

أما في الكتاب الثاني فوصف الكيفية التي يمكن للمرء أن يحوّل بها الأيام من تقويم إلى تقويم آخر، وهو عمل بالغ الدّقة والتطوير. وأما في الكتابين الثالث والرابع فيتناول الجغرافيا الرياضية، ووصف الجزء المأهول من الأرض، مع جداول بخطوط الطول والعرض لمختلف المواقع.

في الكتاب السادس وحتى الكتاب الحادي عشر، يتطرق إلى دراسة مسائل تتعلق بالنجوم والكواكب السيارة.

وبهذا فإنه يصبح لدينا عملان مبكران، أحدهما في البداية والآخر في القمة. فقد شهدنا مع الفرغاني بداية الموروث بشكل ابتدائي، ومع البيروني نصل إلى ذروة هذا الموروث بأسلوب فائق الإتقان. وهذا كله يكوّن الحقبة الأولى من تاريخ علم الفلك العربي.

❖ ❖ ❖

• **والمشاركة الثانية**، كانت في الجلسة الختامية التي قدّم فيها الأستاذ الدكتور يوسف إيبش، مدير عام مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي رحمة الله عليه، حديثًا عن الحاجة إلى إحياء علوم الأرض، وعن الأميّة الشديدة التي نعاني منها في مجال الجغرافيا وكيف نفسر نشوء المدن وتكوّن الجماعات، مدلّلاً على ذلك بنظريات عبد الرحمن بن خلدون، ومستمدًا النماذج من تراثنا التاريخي والجغرافي.

ولم يسعفنا التسجيل الصوتي بما نُعيد به تحرير ما تحدّث به الأستاذ؛ وقد وافاه أجله وذهب إلى لقاء ربه راضيًا مرضيًا.

وفقدنا بموته عالمًا متمكنًا، واسع الأفق، رضيَّ النفس، كريم الخصال، نبيل الخُلُق، سَمْح المعاملة، وافر الأدب، متحدثًا بارعًا، لمّاحًا، شديد الذكاء، تجمّع فيه من حميد الصفات ما حبّبه للقلوب، وما أصبح به في عداد النوادر. يرحمه الله رحمة واسعة.

ومؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي تعدّ له بدعوة من معالي رئيسها الشيخ أحمد زكي يماني- حفظه الله- كتابًا تذكاريًا، تكريمًا وتمجيدًا لذكراه العطرة.

المحتـوى

المؤتمر الخامس

حول

" علوم الأرض في المخطوطات الإسلاميّة "

المنعقد بمقر المؤسسة من ٢٤-٢٥ نوفمبر ١٩٩٩

اليوم الأول

٩،٠٠ - ١٠،٠٠ التسجيل للمؤتمر

١٠،٠٠ الافتتاح وكلمة الشيخ أحمد زكي يماني، رئيس المؤسسة

(الجلسة الأولى)

الجغرافيا في التراث الإسلامي

- برئاسة الشيخ أحمد زكي يماني

أ. د. رشدي راشد: " العلوم الرياضية المتعلقة بكوكب الأرض"

أ. د. عبد الله يوسف الغنيم: " نظرات في تحقيق النصّ الجغرافي "

١١،٣٠ - ١٢،٠٠ استراحة قهوة

١٢،٠٠ **(الجلسة الثانية)**

الجغرافيا في التراث الإسلامي

- **برئاسة الأستاذ الدكتور يوسف إيبش**

أ. إبراهيم شبوح: **" أنظار في بعض مشكلات النص الجغرافي التراثي"**

د. رجيس موريلون: **" الجغرافيا والفلك"**

١٣،٣٠ - ١٥،٠٠ استراحة الغداء

١٥،٠٠ **(الجلسة الثالثة)**

الجغرافيا في التراث الإسلامي

- **برئاسة الأستاذ إبراهيم شبوح**

أ. د. أكمل الدين إحسان أوغلي: **" تاريخ الأدبيات الجغرافية في العهد العثماني"**

د. يان يوست ويتكام: **" م.ج. دي خويه وتحقيق النصوص الجغرافية العربية"**

د. أيمن فؤاد سيد: **" النصوص الجغرافية العربية غير المنشورة: حصر وتقييم"**

١٧،٠٠ ختام

٢٠،٠٠ عشاء المؤتمر

اليوم الثاني

٩، ٣٠ **(الجلسة الرابعة)**

الكيمياء

- **برئاسة الأستاذ الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلي**

د. سيد نعمان الحق: **" مخطوطات الخيمياء: أنموذج المدونة الجابريّة"**

١٠، ١٥ **(الجلسة الخامسة)**

علم المعادن وموضوعات أخرى

- **برئاسة الأستاذ الدكتور رشدي راشد**

د. إيراج أفشار: **" جواهرنامه نظامي: أقدم نص فارسي عن الأحجار الكريمة"**

أ. د. إحسان عباس: **" تجربة صغيرة في نص جغرافي"** ينوب عنه أ. إبراهيم شبوح

١١،٣٠ - ١٢،٠٠ استراحة قهوة

١٢،٠٠ **(الجلسة السادسة)**

علم النبات

- **برئاسة الدكتور إيراج أفشار**

أ. د. ماورو زونتا: **" مقالة ابن رشد حول الطعوم أهي جزء من كتابه المفقود (كتاب النبات) "**

أ. د. إبراهيم بن مراد: **" قراءة المصطلح العربي وتحقيقه النّباتي"**

١٣،٣٠ - ١٥،٠٠ الغداء

١٥،٠٠ **(الختام والتوصيات):**

- **برئاسة الشيخ أحمد زكي يماني**

أ. د. يوسف إيبش: **" الحاجة إلى إحياء علوم الأرض"**

أ. د. رشدي راشد: **" تعقيب"**

١٧،٠٠ نهاية المؤتمر